السلسلة السلفية للرسائل والكتب النجدية (٩)



توفيق الرحمن في دروس القرآن

تأليف

الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك

(١٣١٣ - ١٣٦٦هـ)

رحمه الله

حققه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه

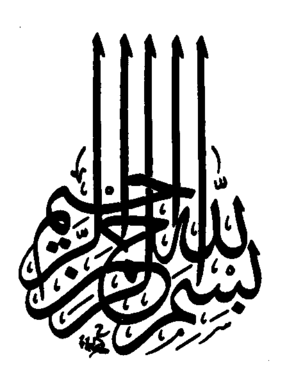
عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد

الجزء الثالث

من سورة الكهف إلى سورة فصلت

دار العاصمة للنشر والتوزيع

دار العليان



توفيق الرحمن

٣

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص.ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

دار العليان
للنشر والنسخ والتصوير والتجليد
وطبع الرسائل والبحوث العلمية
القصيم - بريدة - ص.ب : ١٨٣
هاتف : ٣٢٣٠٢٤٧ - فاكس ٣٢٤٣٦٤٤

الدرس السادس والخمسون بعد المائة

﴿سورة الكهف﴾

مكية، وهي مائة وإحدى عشرة آية

روى مسلم وغيره عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»[١]. وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»[٢]. رواه الحاكم وصححه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا

(١) أخرجه مسلم (ح/٨٠٩).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٣٦٨)، ومن طريقه البيهقي (٣/٣٤٩)، قال الحاكم: «صحيح الإسناد»، وتعقبه الذهبي بقوله: «نعيم ذو مناكير». قلت: ونعيم هو ابن حماد الخزاعي، إمام في السنَّة ـ رحمه الله ـ وثقه غير واحد كأحمد، وابن معين، والعجلي، وقال أبو حاتم: محله الصدق، وضعفه النسائي، فأقل أحواله أنه حسن الحديث. ومع ذلك هو لم يتفرد بهذه الرواية، بل تابعه غير واحد، فالحديث صحيح كما قال الحاكم.

كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾
إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا
عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا
عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ
أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ
لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ
ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا
طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى
فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ
وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ
وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ
مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ
لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم
بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ
يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ

أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿ولم يجعل له عوجاً قيّماً﴾ يقول: أنزل الكتاب عدلاً قيّماً ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾. وقال قتادة: معناه ﴿أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾ ولكن جعله ﴿قيماً لينذر بأساً شديداً﴾ قال ابن إسحاق: عاجل عقوبة في الدنيا، وعذاباً في الآخرة ﴿من لدنه﴾، أي: من عند ربك الذي بعثك رسولاً.

﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً﴾، أي: في دار خلد لا يموتون فيه، الذين صدقوك بما جئت به عن الله وعملوا بما أمرتهم ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ يعني قريشاً في قولهم: إنما نعبد الملائكة وهن بنات الله ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ قولهم: إن الملائكة بنات الله ﴿إن يقولون إلاّ كذباً﴾.

وعن قتادة ﴿فلعلّك باخع نفسك﴾ قاتلٌ نفسك ﴿على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ قال: حزناً عليهم . قال ابن إسحاق: يعاتبه على حزنه عليهم، حين فاته ما كان يرجو منهم، أي: لا تفعل.

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ اختباراً لهم، أيهم أتبع لأمري وأعمل بطاعتي. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «إن الدنيا خَضِرَة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»[١].

وعن ابن إسحاق ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً﴾ يعني الأرض إن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع إليّ، فلا تأس ولا يحزنك ما ستسمع وترى فيها.

قال ابن كثير[٢]: وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصِفوا لهم صفته وأخبِروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلاَّ فهو رجل متقوّل فروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ في مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم، فإنه رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث

---

(١) أخرجه مسلم مرفوعاً (ح/ ٢٧٤٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧١).

رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنهم من أمر الفتية والرجل الطوّاف، وقول الله عز وجل: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾[1].

قوله عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾.

عن مجاهد: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك. وقال ابن عباس: الرقيم وادٍ دون فلسطين وهو قريب من أيلة. وعن سعيد بن جبير قال: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف.

وعن قتادة قوله: ﴿ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ يقول: ما كان لواحد من الفريقين علم، لا لكفارهم ولا لمؤمنيهم. وعن مجاهد ﴿أمداً﴾ قال: عدداً.

قال ابن كثير[2]: هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥، والحديث أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٩١)، وفي سنده ضعف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٢).

قوله عز وجل: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

قال ابن إسحاق: مرج أهل الإنجيل، وعظمت فيهم الخطايا، وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام، وذبحوا للطواغيت، وفيهم بقايا على دين المسيح متمسّكين بعبادة الله وتوحيده، فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقينوس[1]، كان قد عبد الأصنام، وذبح للطواغيت، وقتل من خالفه في ذلك.

وقال مجاهد: كان أصحاب الكهف أبناء عظماء مدينتهم وأهل سوقهم، فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة على غير ميعاد، فقال رجل منهم هو أسنّهم: إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أن أحداً يجده، قالوا: ماذا تجد؟ قال: أجد في نفسي أن ربي رب السماوات والأرض، وقالوا: نحن نجد، فقاموا جميعاً: ﴿فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً﴾ فاجتمعوا أن يدخلوا الكهف وعلى مدينتهم إذ ذاك جبار يقال له دقينوس، فلبثوا في الكهف ﴿ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ رقداء.

وعن قتادة قوله: ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ يقول: بالإيمان ﴿إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً﴾ يقول: كذباً. وقال ابن زيد: الشطط الخطأ من القول. وقال ابن كثير ﴿شططاً﴾، أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً.

---

(١) في (الأصل): وتفسير البغوي: «دقيانوس»، والمثبت من تفسير ابن جرير، وفي (الدر): «دقيوس».

وقوله تعالى: ﴿ويهيِّىء لكم من أمركم مرفقاً﴾ **قال البغوي**[١]: ﴿ويهيِّىء لكم﴾ يسهّل لكم ﴿من أمركم مرفقاً﴾، أي: ما يعود إليه يُسْرُكم ورفقكم.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

عن ابن عباس ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾ يقول: تميل عن كهفهم يميناً وشمالاً، وقال: لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا ينقلبون لأكلتهم الأرض. وعن سعيد بن جبير قال: ﴿وإذا غربت تقرضهم﴾ تتركهم ﴿ذات الشمال﴾.

وعن قتادة ﴿وهم في فجوة منه﴾ يقول: في فضاء من الكهف ﴿ذلك من آيات الله﴾ قال ابن قتيبة: كان كهفهم مستقبل بنات نعش. **وقال ابن كثير**[٢]: ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾، أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه.

وقوله تعالى: ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾ قيل: إن أعينهم كانت مفتحة ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ قال ابن عباس يقول: بالفناء. وقال ابن جريج: يحرس عليهم الباب، ﴿لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾، أي: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة فلا يقدر أحد أن يدنو منهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٢٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٥).

كَم لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

عن عكرمة قال: كان أصحاب الكهف أبناء ملوك الروم رزقهم الله الإسلام، فتعوّذوا بدينهم، واعتزلوا قومهم، حتى انتهوا إلى الكهف، فضرب الله على سمعهم فلبثوا دهراً طويلاً، حتى هلكت أمتهم وجاءت أمة مسلمة وكان ملكهم مسلماً، فاختلفوا في الروح والجسد فقال قائل: يبعث الروح والجسد جميعاً، وقال قائل: يبعث الروح فأما الجسد فتأكله الأرض فلا يكون شيئاً، فشقّ على ملكهم اختلافهم، فانطلق فلبس المسوح وجلس على الرماد، ثم دعا الله تعالى: أي رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبيّن لهم، فبعث الله أصحاب الكهف، فبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً، فدخل السوق فجعل ينكر الوجوه ويعرف الطرق، ويرى الإيمان بالمدينة ظاهراً، فانطلق وهو مستخف حتى أتى رجلاً يشتري منه طعاماً، فلما نظر الرجل إلى الوَرِقِ أنكرها فقال له الفتى: أليس ملككم فلان؟ قال: بل ملكنا فلان، فلم يزل ذلك بينهما حتى رفعه إلى الملك، فسأله فأخبره الفتى خبر أصحابه، فبعث الملك في الناس فجمعهم فقال: إنكم قد اختلفتم في الروح والجسد، وإن الله قد بعث لكم آية، فهذا رجل من قوم فلان ــ يعني ملكهم الذي مضى ــ فقال الفتى: انطلقوا بي إلى أصحابي، فركب الملك وركب معه الناس حتى انتهوا إلى كهف، فقال الفتى: دعوني أدخل إلى

أصحابي، فلما أبصرهم ضرب على أذنه وعلى آذانهم، فلما استبطؤوه دخل الملك ودخل الناس معه، فإذا أجساد لا ينكرون منها شيئاً غير أنها لا أرواح فيها، فقال الملك: هذه آية بعثها الله لكم.

وقوله تعالى: ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجداً﴾ **قال ابن كثير**[١]: حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما أنهم المسلمون منهم، والثاني أهل الشرك منهم، فالله أعلم، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»[٢]. يحذّر ما فعلوه انتهى.

قوله عز وجل: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

عن قتادة ﴿ما يعلمهم إلاّ قليل﴾ يقول: قليل من الناس. وعن ابن عباس ﴿ما يعلمهم إلاّ قليل﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. ﴿فلا تمار فيهم إلاّ مراء

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٣٥ و ٤٣٦)، ومسلم (ح/ ٥٣١) من حديث عائشة وابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ وفيه قصة.

ظاهراً﴾ يقول: إلاَّ بما قد أظهرنا لك من أمرهم. وقال قتادة، أي: حسبك ما قصصنا عليك من شأنهم وعن ابن عباس ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ قال: هم أهل الكتاب. وعن أبـي العالية في قوله: ﴿ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلاَّ أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت﴾ ثم ذكرت فاستثن.

وقوله تعالى: ﴿وقل عسى أن يهدين ربـي لأقرب من هذا رشداً﴾ **قال ابن كثير**[1]، أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجّه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك. وعن مجاهد ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ قال: عدد ما لبثوا. وعن قتادة ﴿أبصر به وأسمع﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع تبارك وتعالى.

• • •

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٩).

الدرس السابع والخمسون بعد المائة

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ

مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

عن مجاهد ﴿ملتحداً﴾ قال: ملجأ.

وقوله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾ قال ابن عباس: لا تجاورهم إلى غيرهم. وعن سعد بن أبي وقاص قال: «كنا مع النبي ﷺ ستة، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه﴾»[1]. رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ قال مجاهد: ضَياعاً.

وقوله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

قال البغوي[2]: هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٧٨)،

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٣٢).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ قال: حائط من نار ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل﴾ قال: هو ماء غليظ مثل درديّ الزيت. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وشجرها أسود وأهلها سود. وقال سعيد بن جبير: المهل هو الذي قد انتهى حرّه. وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرّعه﴾ قال: «يقرّب إليه فيتكرهه، فإذا قرّب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شرب قطّع أمعاءه، يقول الله: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب﴾ »[1] رواه ابن جرير.

وعن مجاهد ﴿وساءت مرتفقاً﴾ قال: مجتمعاً.

وقال ابن كثير: ﴿وساءت مرتفقاً﴾، أي: وساءت النار نُزُلاً ومَقِيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما في الآية الأخرى ﴿إنها ساءت مستقرّاً ومُقَاماً﴾.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنّى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا بما أمروهم به.

قال ابن كثير[2]: والأرائك جمع أريكة وهي السرر تحت الحجلة والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة والله أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥)، والترمذي (ح/ ٢٥٨٣)، وقال: «حديث غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧١)، وابن جرير (١٥/ ٢٤١)، والحاكم (٢/ ٣٥١ و ٣٦٨ ـ ٣٦٩)، وصححه، ووافقه الذهبي!! وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٢)، وفي سنده عبيد الله بن بسر، ويقال عبد الله، وهو مجهول.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٨٢).

قوله عز وجل: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

لما ذكر سبحانه وتعالى الكافرين المستكبرين والمؤمنين المستضعفين، ضرب لهم مثلاً بهذين الرجلين؛ قال قتادة في قوله: ﴿فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً﴾ تلك والله أمنيّة الفاجر كثرة المال وعزة النفر ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة﴾ كفور لنعم ربه مكذّب بلقائه متمنٍ على الله.

وقوله تعالى: ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره﴾، أي: يجادله ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾.

قال البغوي[١] وأصله: «لكن إنا» فحذفت الهمزة طلباً للتخفيف، لكثرة استعمالها، ثم أدغمت إحدى النونين في الأخرى.

وقال ابن كثير[٢]: ﴿لكنا هو الله ربـي﴾، أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿ولا أشرك بربـي أحداً﴾، أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً﴾، أي: فتكبّرت وتعظّمت عليّ: قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله. ﴿فعسى ربـي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾، أي: في الآخرة ﴿ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾ قال قتادة: ﴿حسباناً﴾ عذاباً ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ قال ابن عباس: مثل الجرز ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ قال قتادة: ذاهباً قد غار في الأرض ﴿فلن تستطيع له طلباً﴾. ﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها﴾ متلهّفاً على ما فاته وهو ﴿يقول يا ليتني لم أشرك بربـي أحداً﴾. وعن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله﴾ قال: عشيرته ﴿وما كان منتصراً﴾ قال قتادة: ممتنعاً.

وقوله تعالى: ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾.

قال ابن كثير[٣]: أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾[٤]. ﴿وهو خير ثواباً﴾، أي: جزاءً ﴿وخير عُقْبَاً﴾، أي: الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٣٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٨٣).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٨٤).

(٤) سورة غافر: الآية ٨٤.

قوله عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَٰبُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ قال: هي ذكر الله قول: لا إله إلَّا الله والله أكبر، وسبحان الله والحمد لله، وتبارك الله ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، وأستغفر الله وصلَّى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج، والصدقة والعتق والجهاد والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهنّ الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض.

وعن مجاهد ﴿وترى الأرض بارزة﴾ قال: لا حجر فيها ولا غيابة، ولا شجر ولا بناء ولا جبال فيها. وعن قتادة قوله: ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها﴾ اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلماً، فإيّاكم والمحقّرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب لها مثلاً يقول: «كمثل قوم انطلقوا يسيرون حتى نزلوا بفلاة من الأرض، وحضر صنيع القوم، فانطلق كل رجل يحتطب، فجعل الرجل يجيء بالعود ويجيء الآخر بالعود، حتى جمعوا سواداً كثيراً وأجّجوا ناراً، فإن الذنب الصغير يجتمع على صاحبه حتى يهلكه»[1].

(١) أخرجه ابن جرير (١٥/٢٥٨)، وبنحوه مرفوعاً من حديث سعد بن جنادة رضي الله عنه: أخرجه الطبراني (٦/ ٥٢) بسند ضعيف.

الدرس الثامن والخمسون بعد المائة

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾.

قال ابن كثير[(١)]: يقول تعالى منبّهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرّعاً لمن اتّبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتدأه بألطافه ورزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله فقال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن﴾ ، أي: خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم»[(٢)]. فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه قد توسّم بأفعال الملائكة وتشبّه بهم وتعبّد وتنسّك فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة. انتهى.

وعن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ قال: عصى في السجود لآدم ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ قال: ذريته هم الشياطين. قال قتادة: وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم ﴿وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ بئسما استبدلوا بعبادة ربهم إذ أطاعوا إبليس. ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ قال: أعواناً.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٨٨).

(٢) سبق تخريجه.

وقال ابن كثير[١]: يقول تعالى: أنا المستقلّ بخلق الأشياء كلها ومدبّرها ومقدّرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير.

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال: مهلكاً. وقال الحسن: جعل بينهم عداوة يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ قال قتادة: علموا.

وقال ابن كثير[٢]: أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد سبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار تحقّقوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهمّ والحزن لهم، فإنّ توقّع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز. وقوله: ﴿فلم يجدوا عنها مصرفاً﴾، أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ قال: الجدل

(١) المصدر السابق (٣/ ٨٩).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٩٠).

الخصومة، خصومة القوم لأنبيائهم وردّهم عليهم ما جاءوا به. وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال: ألا تصلّيان؟ فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يُرجع إليّ شيئاً، ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذه ويقول: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاَّ أن تأتيهم سنة الأولين﴾، أي: في إهلاكهم إن لم يؤمنوا ﴿أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ قال ابن عباس: عياناً وقال مجاهد: فجأة، أي: ما منعهم من الإيمان إلاَّ طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً.

وقوله تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلاَّ مبشرين ومنذرين﴾، أي: قبل العذاب ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾، أي: نسي ما سلف من الذنوب. وعن ابن عباس قوله: ﴿لن يجدوا من دونه موئلاً﴾ يقول: ملجأ. وعن مجاهد قوله: ﴿لمهلكهم موعداً﴾ قال: أجلاً.

• • •

(١) أخرجه البخاري (ح/ ١١٢٧ و ٤٧٢٤)، ومسلم (ح/ ٧٧٥).

الدرس التاسع والخمسون بعد المائة

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا

ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ والبحران: بحر فارس والروم، وبحر الروم مما يلي الغرب، وبحر فارس مما يلي الشرق. وعن ابن عباس قوله ﴿أو أمضي حقباً﴾ قال: دهراً. وقال عبد الله بن عمر: والحُقُب ثمانون سنة.

وقال ابن عباس: ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ وحلّق بيده. وعن مجاهد

قوله ﴿في البحر عجباً﴾ قال: موسى يعجب من أثر الحوت في البحر ودوراته التي غاب فيها، فوجدا عندها خطراً.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.

عن ابن عباس قال: ﴿فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ يعني عن شيء أصنعه حتى أبيّن لك شأنه.

قوله عز وجل: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿لقد جئت شيئاً إمراً﴾، أي: عجباً، إن قوماً لجّجوا سفينتهم فخرقتها كأحوج ما تكون إليها؟! ولكن عَلِمَ من ذلك ما لم يعلم نبي الله موسى، ذلك من علم الله الذي آتاه، وقد قال لنبي الله موسى عليه السلام ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾.

قوله عز وجل: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

قال سعيد بن جبير: وجد خضر غلماناً يلعبون، فأخذ غلاماً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين. وعن قتادة ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ والنكر أشد من الأمر. وعن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «رحمة الله علينا، وعلى موسى، لو لبث مع

صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: ﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً﴾[1] رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾﴾.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: أن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبـيّ بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل،

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨٨/١٥)، وبنحوه مسلم (١٨٥١/٤) من حديث أبـي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة ــ أي حياء وشفقة ــ قال: «إن سألتك. . .»، وبنحوه ــ أيضاً ــ البخاري (ح/ ٤٧٢٥ و ٤٧٢٧)، من حديث أبـي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما». =

فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمّ، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغداة ﴿قال﴾ موسى ﴿لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ ولم يجد موسى النَصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ﴿قال﴾ له فتاه ﴿أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره فاتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ قال: فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ قال: فرجعا يقصّان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجّى بثوب، فسلّم عليه موسى فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أتيتك لتعلّمني ﴿مما عُلّمت رشداً قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ يا موسى، إني على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه، فقال موسى ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ قال له الخضر: ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً فانطلقا﴾ يمشيان على ساحل البحر، فمرّت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلاّ والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدّوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً﴾؟! ﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾.

قال: وقال رسول الله ﷺ: فكانت الأولى من موسى نسياناً. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلاّ مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا

من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا﴾؟! ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾؟ قال: وهذه أشدّ من الأولى ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾، أي: مائلاً، فقال الخضر بيده ﴿فأقامه﴾ فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا؟! ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾؛ فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، وكان يقرأ: وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»[1] رواه البخاري. وفي رواية: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلاّ حَيِيَ، فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرّك وانسلّ من المكتل فدخل البحر.

وفي رواية: فرجعا فوجدا خضراً على طنفسة خضراء على كبد البحر؛ وفيها قال سعيد: وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، فقال: ﴿أقتلت نفساً زكية﴾ لم تعمل الخبث؟! وفيها كانت الأولى نسياناً والثانية شرطاً والثالثة عمداً. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ قال: حُفِظا بصلاح أبيهما.

• • •

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٢٥)، ومسلم (ح/ ٢٣٨٠).

الدرس الستون بعد المائة

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ

أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ يقول: علماً ﴿فأتبع سبباً﴾ يعني بالسبب المنزل. وقال مجاهد: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب.

قال ابن كثير[1]: يسّر الله له الأسباب، أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم، وكسر الأعداء. وقال وهب بن منبه: سخّر الله له النور والظلمة فجعلهما جنداً من جنوده. وروي عن عليّ رضي الله عنه: سخّر له السحاب، ومدّت له الأسباب، وبسط له النور، وأحب الله وأحبه.

قال بعض المفسرين: والسبب في اللغة: الحيل، والمراد ههنا: كل ما يُتوصّل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة.

وقال البخاري[2]: باب قول الله تعالىٰ: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾ إلى قوله: ﴿سبباً﴾ قال الحافظ: في إيراد المصنف ترجمة ذي القرنين قبل إبراهيم، إشارة إلى توهين قول من زعم أنه الإسكندر اليوناني.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٠١).

(٢) انظر الصحيح (٢/٤٥٨).

إلى أن قال: والذي يظهر أن الإسكندر لقب بذي القرنين تشبّهاً به لسعة ملكه، والذي يقوّي أن ذا القرنين من العرب كثرة ما ذكروه في أشعارهم. وقال الربيع بن ضبيع والصعب: ذو القرنين عمّر ملكه ألفين، أمسى بعد ذلك رميماً.

وعن ابن عباس: ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ قال: في طين أسود. **قال ابن كثير**[١]: وقوله ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾، أي: رأوا الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه؛ والحَمِئَة: مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة، وهو الطين أي طين أملس. وعن ابن عباس: وجدها تغرب في عين حامية، أي: حارة، ولا منافاة بين معنييها، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وضح الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود.

وعن قتادة في قوله: ﴿أما من ظلم فسوف نعذبه﴾ قال: هو القتل. وقوله: ﴿ثم يردّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾، يقول: ثم يرجع إلى الله تعالىٰ بعد قتله فيعذبه عذاباً عظيماً. وعن مجاهد قوله: ﴿من أمرنا يسراً﴾ قال: معروفاً.

وقال البغوي[٢]: أي تلين له القول وتعامله باليسر.

قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾.

عن قتادة ﴿ثم أتبع سبباً﴾ منازل الأرض ومعالمها ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾.

قال ابن جرير[٣]: وذلك أرضهم لا جبل فيها ولا شجر ولا تحتمل بناء فيسكنوا[٤] البيوت، وإنما يغورون في المياه أو يسربون في الأسراب.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٠٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٤٩).

(٣) انظر جامع البيان (١٦/ ١٤).

(٤) في (الأصل): «فيسكن»، والمثبت من تفسير ابن جرير، وهو الصواب.

وقوله تعالى: ﴿كذلك﴾، أي: كما حكم في القوم الذين هم عند مغرب الشمس حكم في هؤلاء ﴿وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾.

قال البغوي[1]: يعني بما عنده ومعه من الجند والعدة والآلات ﴿خبراً﴾، أي: علماً.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿بين السدين﴾ قال: هما جبلان. قال أبو عبيدة: السدّ إذا كان بخلق الله فهو بضم السين، وإذا كان من عمل العباد فهو بالفتح. قال بعض المفسرين والردم أكبر من السد.

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية»[2]: أما السدّ فقد تقدم أن ذا القرنين بناه من الحديد والنحاس، وساوى به الجبال الصمّ الشامخات الطوال، فلا يعرف على وجه الأرض بناء أجلّ منه ولا أنفع للخلق منه في أمر دنياهم. قال البخاري: «وقال رجل للنبي ﷺ: رأيتُ السد قال: وكيف رأيته؟ قال: مثل البُرْدِ المُحَبَّرِ، فقال: رأيته»[3]. وعن قتادة قال: ذكر لنا «أن رجلاً قال: يا نبي الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال انْعتْه، قال: كأنه البُرْدُ المُحبَّر، طريقة سوداء وطريقة

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٤٩).

(٢) انظر (٢/ ١١١).

(٣) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٢/ ٤٥٨).

حمراء، قال: قد رأيته»[١]. وعن الضحاك في قوله: ﴿بين الصدفين﴾ يعني الجبلين، وهما من قِبَل أرمينية وأذربيجان.

قال ابن كثير: وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه، وجهز معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا، فتوصّلوا من بلاد إلى بلاد ومن مُلك إلى مُلك حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاهق لا يُستطاع ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب. انتهى.

قلت: ولا يشكل على ذلك أن الدول المتأخرة لم تكتشفه، فإنها وإن أعطيت ما أعطيت من القوة والآلة، فلم يبلغوا معشار ما أوتي ذو القرنين، فإن الله يسّر له الأسباب والوسائل لفتح المدائن والأقاليم، وأطال عمره ووسّع ملكه وكسر أعداءه، وسخر له النور والظلمة، فجعلهما جنداً من جنوده، وكان إذا انتهى إلى بحر أو مخاضة بنى سفناً من ألواح صغار أمثال النعال، فنظمها ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم والجنود، فإذا قطع الأنهار والبحار فتقها ثم دفع إلى كل إنسان لوحاً فلا يكرثه حمله، وكان إذا البحر الجامد ألقى عليه ما يذيبه فخاضه، وإذا أراد أن يجمّد الماء ألقى عليه ما يجمّده فمشى فوقه، وبعث النور والظلمة على ما يريد بحسب حاجته، وذلك مدد من الله تعالى، ويشهد لذلك قوله تعالىٰ: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾.

قال وهب بن منبه: ما بين الصدفين مائة فرسخ، فلما أنشأ في عمله حفر له أساساً حتى بلغ الماء، ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً، وجعل حشوه الصخور، وطينه النحاس يذاب ثم يصبّ عليه، فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض، ثم علاه وشرّفه بِزُبَرِ الحديد والنحاس المذاب.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/١٦) عن قتادة مرسلاً.

وعن ابن جريج ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه﴾ قال: يعلوه ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾، أي: ينقبوه من أسفله. قال وهب بن منبه: وهو في منقطع أرض الترك مما يلي مَشرق الشمس، بُعْدُ ما بينهما مائة فرسخ، وجعل خلاله عرقاً من نحاس أصفر، فصار كأنه بُرْدٌ مُحَبَّر من صفرة النحاس وحمرته وسواد الحديد.

وقال ابن كثير[١]: وقوله: ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾، أي: لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس.

وقال البغوي[٢]: أي لا يفقهون كلام غيرهم. قال ابن عباس: لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم. وقال في جامع البيان ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ يعني لعجمهم وقلّة فطانتهم، لا يفهمون كلام أحد، ومن قرأ بضم الياء وكسر القاف، أي: لا يفهمون السامع لغرابة ألسنتهم.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

روى ابن جرير وغيره عن أبي هريرة عن نبي الله ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج يحفرونه كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فتحفرونه غداً، فيعيده الله وهو كهيئته، حتى إذا جاء الوقت قال: إن شاء الله، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه، ويتحصّن الناس في حصونهم فيرمون، بسهامهم إلى السماء، فيرجع فيها كهيئة الدماء، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفائهم فتقتلهم، فقال

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٠٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٥٠).

رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر من لحومهم»[١].

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: «استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمّر وجهه وهو يقول: لا إله إلاّ الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلّق بأصبعه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[٢]. متفق عليه.

وفي رواية: وعقد وهب تسعين. قال الحافظ العسقلاني: وعقد التسعين أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها ويضمها ضماً محكماً، بحيث تنطوي عقدتاها حتى تصير مثل الحية المطوّقة. وقال: المراد بالردم السد الذي بناه ذو القرنين.

وقوله تعالى: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ قال السدي: ذاك حين يخرجون على الناس، أي: في زمان عيسى قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما قال تعالىٰ: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾، أي: يوم القيامة ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾، أي: تعاموا وتصامموا وتغافلوا عن قبول الحق واستماع القرآن، كما قال تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ وفي الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار؛ فيقول: ما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥١٠ و ٥١١)، والترمذي (ح/ ٣١٥٣)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (ح/ ٤٠٨٠)، وابن جرير (١٦/ ٢١)د والحاكم (٤/ ٤٨٨)، وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٣٣٤٦ و ٣٥٩٨ و ٧٠٥٩)، ومسلم (ح/ ٢٨٨٠).

فقالوا: يا رسول الله وأيُّنا ذلك الواحد؟ فقال: إن فيكم أمّتين ما كانتا في شيء إلاّ كثّرتاه: يأجوج ومأجوج»[١].

قوله عز وجل: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

عن ابن جريج في قوله: ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ قال: يعني من يعبد المسيح ابن مريم والملائكة، وهم عباد الله ولم يكونوا للكفار أولياء. عن مصعب بن سعد قال: قلت لسعد: يا أبت ﴿هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ أهم الحرورية؟ فقال: لا ولكنهم أصحاب الصوامع، ولكن الحرورية قوم زاغوا فأزاغ الله قلوبهم. وفي رواية: ولكن الحرورية الذين ﴿ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾، فكان سعد يسمّيهم الفاسقين[٢].

وعن عليّ بن أبي طالب أن ابن الكوّاء سأله عن قول الله عز وجل: ﴿هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ فقال: أنت وأصحابك. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرأوا إن شئتم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾[٣]. متفق

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٢٩)، ومسلم (ح/ ٢٧٨٥).

عليه. وفي الصحيحين أيضاً: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنها أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة»[١].

قال ابن كثير[٢]: وقوله تعالىٰ: ﴿نزلاً﴾، أي: ضيافة ﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾ قال ابن عباس: لا يريدون أن يتحوّلوا عنها، كما ينتقل الرجل من دار إذا لم توافقه إلى دار أخرى.

قوله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربـي﴾ إذاً ﴿لنفد﴾ ماء البحر ﴿قبل أن تنفد كلمات﴾ الله وحكمه.

وقوله تعالى: ﴿ولو جئنا بمثله مدداً﴾.

قال ابن كثير[٣]: أي بمثل البحر آخر ثم آخر وهلمّ جرّاً، بحور تمدّه ويكتب بها لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾، أي: فإني لا أعلم الغيب إلاّ ما أطلعني الله عليه من خبر أصحاب الكهف وذي القرنين وغير ذلك ﴿يوحى إليّ أنما

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٢٩)، ومسلم (ح/ ٢٧٨٥). أخرجه البخاري (ح/ ٢٧٩٠ و ٧٤٢٣)، من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه. ووهم المؤلف ـ رحمه الله ـ فظن الحديث عند مسلم أيضاً.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٠٨).

(٣) المصدر السابق (٣/ ١٠٨).

(٤) سورة لقمان: الآية ٢٧.

إلهكم إله واحد﴾ قال ابن عباس: علّم الله رسوله التواضع لئلاّ يزهو على خلقه، فأمره الله أن يقرّ فيقول: أنا آدميّ مثلكم إلاَّ أنّي خُصِّصْتُ بالوحي، وأكرمني الله به ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾.

قال ابن جرير[١]: فمن يخاف ربه يوم لقائه ويراقبه على معاصيه ويرجو ثوابه على طاعته ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ يقول: فليخلص له العبادة وليفرد له الربوبية.

وعن سعيد بن جبير ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ قال: ثواب ربه.

قال البغوي: فالرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ قال سفيان: لا يرائي. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه هو والذي أشرك»[٢]. رواه أحمد.

● ● ●

---

(١) انظر «جامع البيان» (١٦/٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٣٠١)، وبنحوه ومسلم (ح/٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدرس الحادي والستون بعد المائة

﴿سورة مريم عليها السلام﴾

مكية، وهي ثمان وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿كهيعص ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾، أي: سراً، وإن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾، أي: ضعف ﴿واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ قال ابن جريج يقول: قد كنت تعرّفني الإجابة فيما مضى ﴿وإني خفت الموالي من ورائي﴾ قال ابن عباس: يعني بالموالي الكلالة الأولياء أن يرثوه، فوهب الله له يحيى. قال قتادة: هم العصبة.

وقوله تعالى: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ قال مجاهد: كان وراثته علماً، وكان زكريا من ذرية يعقوب. وقال الحسن: يرث نبوّته وعلمه.

قال البغوي[1]: وقال الزجاج: والأولى أن يحمل على ميراث غير المال، والمعنى أنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه، على ما كان شاهد من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه ولداً صالحاً يأمنه على أمته ويرث نبوّته وعمله، لئلاّ يضيع الدين، وهذا معنى قول عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿واجعله رب رضياً﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/١٥٨).

قال ابن كثير[١]: أي مَرْضِيّاً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخُلُقِه.

قوله عز وجل: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾.

عن قتادة قوله: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ عبد أحياه الله للإيمان ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ قال: لم يسمّ قبله أحد بهذا الاسم. وقال ابن عباس: لم تلد العواقر مثله ولداً قط. وقال مجاهد ﴿عتياً﴾ يعني تحول[٢] العظم. وعن ابن عباس ﴿ثلاث ليال سوياً﴾ قال: اعتقل لسانه من غير مرض. قال قتادة: وإنما عوقب بذلك لأنه سأل آية بعدما شافهته الملائكة مشافهة، أخذ بلسانه حتى ما كان يفض الكلام إلاّ أومأ إيماء.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً﴾ وأنت صحيح، قال: فحبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو في ذلك يسبّح ويقرأ التوراة، ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ قال: المحراب مصلّاه ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً﴾ وهو لا يكلمهم.

قوله عز وجل: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١١١).

(٢) في (الأصل): «فحول»، وهو خطأ.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

عن مجاهد ﴿خذ الكتاب بقوة﴾ قال: بجدّ. وقال ابن زيد: القوة أن يحمل ما أمره الله به، ويجانب فيه ما نهاه الله. قال ابن جبير وقوله: ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ يقول تعالىٰ ذكره: وأعطيناه الفهم بكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجال.

وقوله: ﴿وحناناً من لدنا﴾ يقول تعالىٰ ذكره: ورحمة منا به ومحبة له ﴿آتيناه الحكم صبياً﴾. وعن ابن عباس قوله: ﴿وحناناً من لدنا﴾ يقول: ورحمة من عندنا. وقال الضحاك: رحمة من عندنا لا يملك عطاءها أحد غيرنا. وعن مجاهد قوله: ﴿وحناناً من لدنا﴾ قال: تعطّفاً من ربه عليه. وعن قتادة قوله: ﴿وزكاة﴾ قال: الزكاة العمل الصالح. وعن ابن عباس: ﴿وزكاة وكان تقياً﴾ قال: طُهِّرَ فلم يعمل بذنب. **وقال ابن عطية**: أوحش ما يكون الخَلْقُ في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر عظيم؛ قال: فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصّه بالسلام عليه فقال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾. وقال الحسن: إن عيسى ويحيى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: استغفر لي أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني، سلّمتُ على نفسي وسلّم الله عليك، فعرف والله فضلهما.

قال ابن كثير[1]: وقوله: ﴿وبَرّاً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ لما ذكر تعالىٰ طاعته لربه وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتُقى، عطف بذكر طاعته لوالديه، وبرّه بهما، ومجانبته عقوقهما، قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً، ولهذا قال: ﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾ ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١١٣).

الدرس الثاني والستون بعد المائة

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت﴾، أي: انفردت ﴿من أهلها﴾ قال السدي: خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها، وهو قوله: ﴿فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ في شرقي المحراب ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ قال وهب بن منبه: أرسل الله جبريل إلى مريم، وقال السدي: فلما طهرت من حيضها إذا هي برجل معها قالت: ﴿إني أعوذ﴾ بالله ﴿منك إن كنت تقياً﴾ قال ابن زيد: قد عَلِمَتْ أن التُّقَىٰ ذو نهية ﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾ قال جبريل: ﴿كذلك قال ربك هو عليّ هين﴾ وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال ﴿ولنجعله آية الناس﴾، أي: علامة على قدرة الله ﴿ورحمة منا﴾ للمؤمنين ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ لا يردّ ولا يبدّل. وقد قال تعالىٰ: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾[1]. قال وهب بن منبه: لما أرسل الله جبريل إلى مريم نفخ في جيب درعها، حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩١.

قوله عز وجل: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾.

عن ابن عباس ﴿فانتبذت به مكاناً قصياً﴾ قال: مكاناً نائياً. وعن قتادة ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾ قال: اضطرّها إلى جذع النخلة. وقال السدي: ﴿قالت﴾ وهي تطلق استحياء من الناس ﴿يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ قال قتادة تقول: لا أعرف ولا يدرى من أنا. وقال ابن زيد ﴿فناداها من تحتها﴾ قال: عيسى ناداها ﴿ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ قال البراء بن عازب: هو الجدول. وقال ابن عباس: وهو نهر عيسى. وقال سعيد بن جبير: هو الجدول، النهر الصغير، وهو بالنبطية سري. وعن ابن عباس ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ قال: كان جذعاً يابساً، فقال: هُزّيه ﴿تساقط عليك رطباً جنياً﴾ قال عمرو ابن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب.

وقوله تعالى: ﴿فكلي واشربي وقرّي عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ قال الضحاك: كان من بني إسرائيل من إذا اجتهد صام من الكلام كما يصوم من الطعام، إلاّ مِنْ ذِكْرِ الله.

قوله عز وجل: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَٰمُ عَلَىَّ

يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

عن قتادة ﴿لقد جئت شيئاً فرياً﴾ قال: عظيماً ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾ قال: كانت من أهل بيت يُعرفون بالصلاح ولا يُعرفون بالفساد، قال: وكان من بني إسرائيل رجل صالح يسمى هارون، فشبّهوها به يعني في الصلاح. وعن المغيرة بن شعبة قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا لي: ألستم تقرأون ﴿يا أخت هارون﴾؟ قلت: بلى، وقد علمتم ما كان بين عيسى وموسى، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»(١). رواه مسلم وغيره.

وعن وهب بن منبه ﴿فأشارت إليه﴾ يقول: أشارت إليه أن كلّموه ﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ فأجابهم عيسى عنها فقال لهم ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ الآية. وقال عكرمة ﴿آتاني الكتاب﴾ قضى أن يؤتيني الكتاب. وعن مجاهد ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ قال: مقاماً. وقال سفيان: معلّماً للغير. وقال قتادة: ذكر لنا أنه كان يقول: سلوني فإن قلبي ليّن، وإني صغير في نفسي، مما أعطاه الله من التواضع. وقال بعض السلف: لا تجد عاقاً إلاّ وجدته جباراً شقياً، ولا تجد سيِّىء المَلَكَةِ إلاّ وجدته مختالاً فخوراً.

وعن قتادة قوله ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ امترت اليهود والنصارى، فأما اليهود فزعموا أنه ساحر كذاب، وأما النصارى فزعموا أنه ابن الله، وثالث ثلاثة، وإله، وكذبوا كلهم، ولكنه عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه.

---

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢١٣٥).

قوله عز وجل: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قال قتادة: ذكر لنا أنه لما رفع ابن مريم انتخبت بنو إسرائيل أربعة من فقهائهم فقالوا للأول: ما تقول في عيسى؟ قال: هو الله هبط إلى الأرض فخلق ما خلق وأحيا ما أحيا، ثم صعد إلى السماء، فتابعه على ذلك ناس من الناس فكانت اليعقوبية من النصارى، وقال الثلاثة الآخرون: نشهد أنك كاذب؛ فقالوا للثاني: ما تقول في عيسى؟ قال: هو ابن الله، فتابعه على ذلك ناس من الناس فكانت النسطورية من النصارى، وقال الاثنان الآخران: نشهد إنك كاذب؛ فقالوا للثالث: ما تقول في عيسى؟ قال: هو إله وأمه إله والله إله، فتابعه على ذلك ناس من الناس فكانت الإسرائيلية من النصارى، فقال الرابع: أشهد أنك كاذب، ولكنه عبد الله ورسوله، هو كلمة الله وروحه، فاختتم القوم فقال المرء المسلم: أنشدكم الله ما تعلمون أن عيسى كان يَطْعَمُ الطعام، وأن الله تبارك وتعالى يُطْعِمُ الطعام؟ قالوا: اللهم نعم، قال: ما تعلمون أن عيسى كان ينام؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فخصمهم[1] المسلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾، أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة. قال قتادة: سمعوا حين لا ينفعهم السمع، وأبصروا حين لم ينفعهم البصر. وقال ابن زيد: هذا في القيامة، فأما في الدنيا فلا، كانت على أبصارهم غشاوة وفي آذانهم وقراً.

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل

(١) في (الأصل): «فحصمهم»، وهو خطأ.

الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبّون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبّون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤتى به فيُذبح، قال ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ وأشار بيده ثم قال: أهل الدنيا في غفلة الدنيا»[1]. رواه أحمد وغيره.

وكتب عمر بن عبد العزيز لبعض عماله: «أما بعد فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل في كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حفظه، أنه يرث الأرض ومن عليها وإليه ترجعون».

● ● ●

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٩ و ٥٦)، والبخاري (ح/ ٤٧٣٠)، ومسلم (ح/ ٢٨٤٩).

الدرس الثالث والستون بعد المائة

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ

غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾.

قال البغوي[1]: الصدِّيق الكثير الصدق القائم عليه وعن الحسن ﴿واهجرني ملياً﴾ قال طويلاً. قال ابن إسحاق يقول: دهراً والدهر الملي وعن ابن عباس [قوله] «إنه كان بي حفياً» يقول لطيفاً.

قال ابن جرير[2]: وقوله: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ يقول وأجتنبكم وما تدعون من دون الله من الأوثان والأصنام ﴿وأدعو ربي﴾، يقول: وأدعو ربي بإخلاص العبادة له وإفراده بالربوبية ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾، يقول: عسى أن لا أشقى بدعاء ربي، ولكن يجيب دعاء ربي، ويعطني ما أسأله.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٦٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦/ ٩٢).

عن ابن عباس قوله: ﴿وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾ يقول الثناء الحسن.

قوله عز وجل: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ ﴾.

قال البغوي: ﴿مخلصاً﴾، أي: مختاراً اختاره الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾، أي: جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة.

وعن ابن عباس ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: أُدْنِيَ حتى سمع صريف القلم ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب له نبوته.

قوله عز وجل: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ ﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ قال: لم يَعِدْ شيئاً إلاَّ وَفَى به. قال بعض السلف: إنما قيل له: صادق الوعد لأنه قال لأبيه: ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فصدق في ذلك. وقد قال النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[1].

قوله عز وجل: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ﴾.

(١) سبق تخريجه.

عن مجاهد ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: السماء الرابعة. وفي حديث المعراج في الصحيحين أنه ﷺ لما عرج به إلى السماء قال: «أتيت على إدريس في السماء الرابعة»[١]. وعن الأعمش عن إبراهيم قال: قرأ عمر بن الخطاب سورة مريم فسجد، فقال: «هذا السجود فأين البكي؟»[٢].

قوله عز وجل: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾.

عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ و ﴿على صلاتهم دائمون﴾ و ﴿على صلاتهم يحافظون﴾ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلاَّ على الترك، قال: «ذاك الكفر»[٣].

وعن مجاهد قوله: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ قال: عند قيام الساعة وذهاب صالح أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض في الأزقّة. وعن أبي عبيدة عن أبيه عبد الله أنه قال في

---

(١) سبق تخريجه في أول سورة الإسراء.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (ص ٣٠٣ و ٣٠٤)، وابن جرير (١٦/ ٩٨)، وابن أبي حاتم (كما عز له ابن كثير في تفسيره) (٣/ ١٢٧)، وسنده صحيح، وصحح ابن كثير في مسند الفاروق (٢/ ٥٩٥) إسناده.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٦/ ٩٩).

هذه الآية ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال: نهر في جهنم خبيث الطعم بعيد القعر يعذّب فيه الذين يتّبعون الشهوات»[1].

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾، يعني: أنهم لم يروها ﴿إنه كان وعده مأتيّاً﴾، أي: العباد صائرون إلى ما وعدهم الله، ووعده آت لا محالة. وعن قتادة قوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً﴾ فيها ساعتان: بكرة وعشيّ، فإن ذلك لهم لبس ثم ليل، إنما هو ضوء ونور، وقال: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء يحجب له، فأخبرهم الله أن لهم في الجنة بكرة وعشياً قدر ذلك الغداء والعشاء. وقوله تعالى: ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا ممن كان تقياً﴾ قال ابن جرير يقول: من كان بكرة وعشياً قدر ذلك الغداء والعشاء ذا اتقاء عذاب الله، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، وعن ابن عباس: «أن محمداً قال لجبرائيل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت هذه الآية ﴿وما نتنزل إلاَّ بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾. قال: هذا الجواب لمحمد ﷺ. رواه ابن جرير وغيره. وقال سعيد بن جبير ﴿له ما بين أيدينا﴾ من أمر الآخرة ﴿وما خلفنا﴾ ما مضى من الدنيا. وعن مجاهد ﴿وما كان ربك نسياً﴾ قال: ما نسيك ربك. وعن قتادة قوله: ﴿هل تعلم له سمياً﴾ لا سميّ لله ولا عدل له، كل خلقه يقوله، ويعترف: الله خالقه، ويعرف ذلك ثم يقرأ هذه الآية ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾. وعن مجاهد في هذه الآية ﴿هل تعلم له سمياً﴾ قال: هل تعلم له شبيهاً؟ هل تعلم له مثلاً تبارك وتعالى؟.

• • •

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/ ١٠٠)، والطبراني (٩/ ٢٥٩) والحاكم (٢/ ٣٧٤)، وصححه، ووافقه الذهبي!! قلت: بل سنده ضعيف، فأبو عبيدة لم يسمع من أبيه شيئاً، كما ذكر ذلك ورجحه العديد من الحفاظ، وأبو إسحاق السبيعي مدلس، وقد عنعنه.

الدرس الرابع والستون بعد المائة

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ

ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

في الصحيح عن النبـي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وآذاني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما أذاه إياي فقوله: إن بها ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[1].

وعن ابن عباس قوله: ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾، يعني: القعود، وهو مثل قوله: ﴿ترى كل أمة جاثية﴾[2]. ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ يقول: أيّهم أشد للرحمن معصية، وهي معصيته في الشرك. وقال أبو الأحوص: نبدأ بالأكبر فالأكبر جرماً.

وقوله تعالى: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾.

قال البغوي[3]: أي أحق بدخول النار، يقال: صلى يصلى[4] صليّاً إذا دخل النار وقاسى حرّها.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٩٧٤) من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٧٠).

(٤) في (الأصل): «صلى يعني صلياً»، والمثبت من تفسير البغوي، وهو الصواب.

وقال ابن كثير[١]: ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وإن منكم إلاّ واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾، يعني: البر والفاجر. وعن ابن مسعود ﴿وإن منكم إلاّ واردها﴾ قال: داخلها. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يردها الناس كلهم ثم يَصْدُرون عنها بأعمالهم»[٢]. رواه أحمد وغيره. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلاّ تَحِلَّة القَسَم»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يوضع الصراط بين ظهري جهنم، عليه حسك كحسك السعدان ثم يستجيز الناس فناجٍ مسلَّم ومجروح به، ثم ناجٍ ومحتبس ومكدس فيها، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، تفقّد المؤمنون رجالاً كانوا معهم في الدنيا، يصلّون صلاتهم ويزكّون زكاتهم، ويصومون صيامهم ويحجّون حجهم ويغزون غزوهم فيقولون: أي ربنا، من عبادك كانوا معنا في الدنيا يصلّون صلاتنا ويزكّون زكاتنا، ويصومون صومنا ويحجّون حجنا ويغزون غزونا، لا نراهم! فيقول: اذهبوا إلى النار فمن وجدتم فيها منهم فأخرجوه، فيجدونهم قد أخذتهم النار على قدر أعمالهم، فمنهم من أخذته النار إلى قدميه، ومنهم من أخذته إلى نصف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى ركبتيه، ومنهم من أخذته إلى ثدييه، ومنهم من أخذته إلى عنقه، ولم تَغْشَ الوجوه، فيستخرجونهم منها فيطرحونهم في ماء الحياة، قيل: وما ماء الحياة يا

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٣١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٥)، والترمذي (ح/ ٣١٥٩)، وحسنه، والدارمي (٢/ ٣٣٦)، والحاكم (٢/ ٣٧٥ و ٤/ ٥٨٦)، وقال صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ١٢٥١)، ومسلم (٢/ ٢٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رسول الله؟ قال: غسل أهل الجنة فينبتون كما تنبت الزرعة في غثاء السيل، ثم تُشفّع الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلاّ الله مخلصاً، فيستخرجونهم منها، ثم يتحنن الله برحمته على من فيها، فما يترك فيها عبداً في قلبه مثقال ذرة من الإيمان إلاّ أخرجه منها»[1]. رواه ابن جرير.

وعن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدراً والحديبية، قالت فقلت: أليس الله يقول: ﴿وإن منكم إلاّ واردها﴾. قالت: فسمعته يقول: ﴿ثم ننجّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ »[2]. رواه أحمد وغيره.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾.

عن ابن عباس: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا، أيّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾، قال: المقام المسكن، والنديّ المجلس والنعمة والبهجة. قال قتادة: رأوا أصحاب رسول الله ﷺ في عيشهم خشونة، وفيهم قشافة فعرض أهل الشرك بما تسمعون ﴿وكم أهلكنا قبلهم من

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١١)، وابن ماجه (ح/ ٤٢٨٠) مختصراً، وابن جرير (١٦/ ١١٣) وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٥) وبنحوه من حديث جابر رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٦)، وهو حديث صحيح وبنحوه ــ أيضاً ــ من حديث أم بشر ــ رضي الله عنها ــ : أخرجه مسلم (ح/ ٢٤٩٦)، وأحمد (٦/ ٣٩٢) (ح/ ٢٤٩٦) إلاّ أن فيه: «أصحاب الشجرة».

قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً﴾ قال: أكثر متاعاً وأحسن منزلة ومستقراً، فأهلَكَ أموالهم وأفسد صورهم عليهم، تبارك وتعالى. وقال ابن عباس: الرئيّ المنظر الحسن.

وعن مجاهد قوله: ﴿في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً﴾ فليدعه الله في طغيانه.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما﴾، أي: في الدنيا ﴿وإما الساعة﴾ فيدخلون النار ﴿فسيعلمون﴾ عند ذلك ﴿من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ أهم أم المؤمنون؟ ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾، أي: إيماناً ويقيناً على يقينهم ﴿والباقيات الصالحات﴾، أي: الأذكار وجميع الأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ﴿خير عند ربك ثواباً وخير مَرَدّاً﴾، أي: عاقبة ومرجعاً.

قوله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

في الصحيحين عن خباب بن الأرت قال: «كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه منه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تُبعث قال: فإني إذا متّ ثم بعثت جئتني ولي ثَمّ مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وولداً﴾ إلى قوله: ﴿ويأتينا فرداً﴾»[1].

وقوله تعالى: ﴿أطّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً كلا﴾.

قال البغوي: ردّ عليه، يعني لم يفعل ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٢٠٩١ و ٢٢٧٥ و ٤٧٣٢)، ومسلم (ح/ ٢٧٩٥)، والمراد بالقين أي: الحداد والصائغ.

وقال ابن كثير: وقوله: ﴿كلا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها. وعن مجاهد قوله: ﴿ونرثه ما يقول﴾ ماله وولده ﴿ويأتينا فرداً﴾ قال قتادة: لا مال له ولا ولد.

قوله عز وجل: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

قال الضحاك في قوله: ﴿ويكونون عليهم ضداً﴾ قال: أعداء. وقال مجاهد: عدنا عليهم نخاصمهم ونكذبهم.

وقوله تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً﴾ قال ابن عباس إغراء في الشرك. وقال ابن زيد: تشليهم أشلاء على معاصي الله.

وعن ابن عباس قوله: ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ يقول: أنفاسهم التي يتنفسون في الدنيا، فهي معدودة وآجالهم. وعن عليّ في قوله: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: «أما والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ولا يساق سوقاً، لكنهم يؤتون بِنُوقٍ لم ير الخلائق مثلها، عليها رحال الذهب وأزمتها الزبرجد، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة»[1].

وعن ابن عباس قوله: ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ يقول: عطاشاً ﴿لا يملكون الشفاعة إلاّ من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: العهد شهادة أن لا إله إلاّ الله، ويتبرّأ إلى الله من الحول ولا يرجو إلاّ الله. قال ابن جريج: المؤمنون يومئذ بعضهم لبعض شفعاء.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/١٢٦) بسند ضعيف، وعزاه السيوطي في «الدر» إلى ابن مردويه.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿لقد جئتم شيئاً إدّاً﴾ يقول: لقد جئتم شيئاً عظيماً، وهو المنكر من القول ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً﴾ قال: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلاّ الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحّدين؛ وقال رسول الله ﷺ: «لقّنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلاّ الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة، قالوا: يا رسول الله فمن قالها في صحته؟ قال: تلك أوجب وأوجب، ثم قال: والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرض وما فيهنّ وما بينهنّ وما تحتهنّ، فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلاّ الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن»[1].

وقوله تعالى: ﴿وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾، أي: ما يليق به اتخاذ الولد ﴿إن كل من في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمن عبداً﴾، أي: الخلق كلهم عبيده ﴿لقد أحصاهم وعدهم عدّاً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾.

قال ابن جرير[2]: يقول: وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم تقوم الساعة وحيداً لا ناصر له من الله ولا دافع عنه.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/ ١٣٠)، والطبراني (١٢/ ٢٥٤) عن علي رضي الله عنه. بسند ضعيف، ويشهد لآخره حديث البطاقة، وسيأتي تخريجه.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦/ ١٣٢).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ قال: محبة في المسلمين في الدنيا. وقال ابن عباس: يحبّهم ويحبّبهم يعني إلى المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿فإنما يسرناه﴾، أي: سهلنا القرآن ﴿بلسانك﴾ يا محمد ﴿لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدّاً﴾ قال قتادة: أي جدالاً بالباطل، ذوي لدد وخصومة.

وقوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾ قال قتادة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً؟.

● ● ●

الدرس الخامس والستون بعد المائة

﴿سورة طه﴾

مكية، وهي مائة وخمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾.

عن ابن عباس قوله تعالىٰ: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ فإن قومه قالوا: لقد شقي هذا الرجل بربه، فأنزل الله تعالى ذكره ﴿طه﴾ يعني يا رجل ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ وقال قتادة ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ لا والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة ﴿إلَّا تذكرة لمن يخشى﴾ وأن الله أنزل كتابه وبعث رسله رحمة رحم الله بها العباد، ليتذكر ذاكر وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذاكراً له، أنزل الله فيه حلاله وحرامه فقال: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى﴾.

قال ابن جرير[1]: يقول تعالىٰ ذكره: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا[2].

﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ قال

(١) انظر «جامع البيان» (١٦/١٣٨).

(٢) قلت: وفي هذه الآية إثبات استواء الله ــ عز وجل ــ علىٰ عرشه استواء حقيقياً يليق بجلاله تعالى وعظمته، وهذا هو مذهب أهل السنة، بخلاف مذهب غيرهم من الجهمية وأذنابهم من المعتزلة والأشاعرة الذين أنكروه وأولوه فراراً من التشبيه، فوقعوا في شر مما فروا منه إذ غاية مذهبهم التعطيل نعوذ بالله من أهل البدع والأهواء، ونسأل الله الثبات على الإسلام والسنّة إلى أن نلقاه.

محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة. ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ قال ابن عباس: السر ما علمته أنت، وأخفى ما قذف الله في قلبك مما لم تعلم. وفي رواية: السر ما أسرّ الإنسان في نفسه، وأخفى ما لم يعلمه الإنسان مما هو كائن.

﴿الله لا إله إلاَّ هو له الأسماء الحسنى﴾.

قال ابن كثير[1]: أي الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلاَّ هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العُلى.

قوله عز وجل: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾.

قال البغوي[2]: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾، أي: وقد أتاك، استفهام بمعنى التقرير، وقال في جامع البيان: فيه تعظيم لشأن الحديث، وتبيين على أنه إنما عرفه بالوحي.

قال ابن عباس: لما قضى موسى الأجل سار بأهله فضلّ الطريق، وكان في الشتاء ورفعت لهم نار، فلما رآها ظن أنها نار وكانت من نور الله ﴿قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى﴾ يقول: من يدلّ على الطريق. وقال وهب بن منبه: خرج موسى نحوها، فإذا هي شجر من

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (١٤٣/٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٧٨/٣).

العليق؛ وبعض أهل الكتاب يقول: في عوسجة، فلما دنا، استأخرت عنه، فلما رأى استئخارها رجع عنها، وأوجس في نفسه منها خيفة، فلما أراد الرجعة دنت منه ثم كلمه من الشجرة، فلما سمع الصوت استأنس، وقال الله تبارك وتعالىٰ له: يا موسى[1] ﴿اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾. قال قتادة: كانتا من جلد حمار، فقيل له: اخلعهما. وقال الحسن: كانتا من بقر، لكن إنما أراد الله أن يباشر بقدميه بركة الأرض، وكان قد قدّس مرتين. وقال مجاهد: طُوى اسم الوادي.

وقوله تعالىٰ: ﴿وأنا اخترتك﴾، أي: اصطفيتك ﴿فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلاَّ أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ قال مجاهد: إذا صلى ذكر ربه. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها، فيصلّها إذا ذكرها فإن الله تعالىٰ قال: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾»[2]. وعن ابن عباس قوله: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ يقول: لا أظهر عليها أحداً غيري. وفي مصحف عبد الله بن مسعود أكاد أخفيها من نفسي، فكيف يعلمها مخلوق؟ وقيل: أخفيها فلا أقول هي آتية.

﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾، أي: بما تعمل من خير وشر ﴿فلا يصدنّك عنها﴾، أي: عن التصديق بالساعة ﴿من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ فتهلك.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) قلت: وفي هذه الآية إثبات صفة الكلام لله ــ عز وجل ــ على ما يليق بجلاله تعالى، وهذا هو مذهب أهل السنة بخلاف مذهب الجهمية وأذنابهم من المعتزلة والأشاعرة.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٣١٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

قال البغوي[١]: قوله عز وجل: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾؟ سؤال تقرير، والحكمة في هذا السؤال تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا، حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ قال السدي يقول: أضرب بها الشجر للغنم فيقع الورق.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ قال: حوائج أخرى قد علمتَها ﴿قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾، أي: عصا كما كانت.

وعن مجاهد قوله: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ قال كفّه تحت عضده ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ قال: من غير برص ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ قال ابن جرير[٢]: كي نريك من أدلّتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقدرتنا.

قوله عز وجل: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿واحلل عقدة من لساني﴾ قال: لجمرة نار أدخلها في فيه عن أمر امرأة فرعون، تردّ به فرعون حين أخذ بلحيته.

وعن ابن عباس قوله: ﴿أشدد به أزري﴾ يقول: أشدد به ظهري.

وقوله: ﴿وأشركه في أمري﴾.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٨١).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦/ ١٥٨).

قال البغوي[١]: يعني في النبوة وتبليغ الرسالة ﴿كي نسبّحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً﴾ **قال ابن جرير**[٢] يقول: ﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ لا يخفى عليك من أفعالنا شيء.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

قال البغوي[٣]: ﴿إذ أوحينا إلى أمك﴾ وحي إلهام ﴿ما يوحى﴾ ما يلهم؛ ثم فسّر ذلك الإلهام وعدّد نِعَمه عليه فقال: ﴿أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ﴾ يعني نهر النيل، قال ابن إسحاق: لما ولدت موسى أمه أرضعته، حتى إذا أمر فرعون بقتل الغلمان من سنته تلك، عمدت إليه فصنعت به ما أمرها الله تعالىٰ، جعلته في تابوت صغير ومهّدت له فيه، ثم عمدت إلى النيل، فقذفته فيه، وأصبح فرعون في مجلس له، كان يجلس على شفير النيل كل غداة، فبينما هو جالس إذ مرّ النيل بالتابوت، فقذف به، وآسية ابنة مزاحم امرأته جالسة إلى جنبه، فقال: إن هذا الشيء في البحر فائتوني به، فخرج إليه أعوانه حتى جاؤوا به، ففتح التابوت فإذا فيه صبـي في مهده، فألقى الله عليه محبته وعطف عليه نفسه.

وعن قتادة قوله: ﴿ولتصنع على عيني﴾ قال: هو غذاؤه. قال ابن إسحاق ﴿قالت﴾ يعني أم موسى ﴿لأخته قُصّيه﴾ فانظري ما يفعلون به، فخرجت في ذلك

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٨٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦/ ١٦٠).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٨٢).

﴿فبصُرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ وقد احتاج إلى الرضاع والتمس الثدي، وجمعوا له المراضع حين ألقى الله محبتهم عليه، فلا يؤتى بأمراة فيقبل ثديها، فيرمضهم ذلك، فيؤتى بمرضع بعد مرضع فلا يقبل شيئاً منهم، فقالت لهم أخته حين رأت من وُجْدِهم به وحرصهم عليه ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾؟ أي لمنزلته عندكم وحرصكم على مسرة الملك؟ قالوا: هاتي، فأتت أمه فأخبرتها فانطلقت معها حتى أتتهم، فناولوها إياه فلما وضعته في حجرها أخذ ثديها، وسرّوا بذلك منه وردّه الله إلى أمه ﴿كي تقرّ عينها ولا تحزن﴾ فبلغ لطف الله لها وله أن ردّ عليها ولدها، وعطف عليها نفع فرعون وأهل بيته، مع الأمَنَة من القتل الذي يُتخوّف على غيره.

وعن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما قَتَل موسى الذي قَتَل من آل فرعون خطأ، فقال الله له ﴿وقتلت نفساً فنجيناك من الغمّ وفتنّاك فتوناً﴾»[1]. قال ابن كثير[2]: ﴿فنجيناك من الغم﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففرّ منهم هارباً حتى ورد ماء مدين.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وفتنّاك فتوناً﴾ يقول: اختبرناك اختباراً ﴿فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى﴾ قال ابن عباس يقول: لقد جئت ليمقات يا موسى. وقال قتادة: قدر الرسالة والنبوة.

قوله عز وجل: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/ ١٦٤) بسند حسن.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٤٨).

وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

قال ابن كثير[1]: وقوله: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾، أي: اصطفيتك واجتبيتك رسولاً﴿ لنفسي﴾، أي: كما أريد، وأشاء. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا تنيا في ذكري﴾ لا تبطئا. وقال مجاهد: لا تضعفا. وقال ابن زيد: الواني هو الغافل المفرط. وعن السدي ﴿فقولا له قولاً ليّناً﴾ قال: كَنِّياه.

وعن ابن عباس قوله: ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ يقول: هل يتذكر أو يخشى.

وقال ابن كثير[2]: أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ﴿أو يخشى﴾ أي يوجد طاعة من خشية ربه.

قال البغوي[3]: فإن قيل: كيف قال: ﴿لعله يتذكر﴾ وقد سبق في علمه أنه لا يتذكّر ولا يُسْلِم؟ قيل: معناه اذهبا على رجاء منكما وطمع، وقضاء الله وراء أمركما.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ قال: نخاف أن يعجل علينا إذ نبلّغه كلامك وأمرك ﴿يفرط﴾ ويعجل، وقرأ ﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾. وقال ابن جرير ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ يقول: والسلامة لمن اتبع هدى الله، وهو بيانه. وعن قتادة قوله: ﴿إن العذاب على من كذّب وتولّى﴾ عن طاعة الله.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى

(١) المصدر السابق (٣/ ١٥٣).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٥٣).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٨٤).

كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

عن ابن عباس قوله ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ يقول: خلق لكل شيء زوجه ثم هداه لمنحه ومطعمه ومشربه ومسكنه ومولده.

وقوله تعالىٰ: ﴿قال فما بال القرون الأولى﴾، أي: ما بالهم عبدوا غير الله ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى﴾ قال ابن عباس: لا يخطىء ربي ولا ينسى.

قال ابن كثير[1]: لما أخبره موسى أن ربه الذي أرسله، هو الذي خلق ورزق وقدّر فهدى، شرع يحتجّ بالقرون الأولى، أي الذين لم يعبدوا الله، أي فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم سيجزيهم بعملهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فأخرجنا به أزواجاً﴾.

قال البغوي[2]: أصنافاً ﴿من نبات شتى﴾ مختلف الألوان والطعوم والمنافع ﴿كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ لذوي العقول ﴿منها﴾ أي الأرض ﴿خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ يوم البعث.

● ● ●

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٥٥).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٨٦).

الدرس السادس والستون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا

يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿مكاناً سوى﴾ قال: منصفاً بينهم. وعن ابن عباس قوله: ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ فإنه يوم زينة يجتمع الناس إليه ويحشر الناس له.

قوله عز وجل: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ يقول: فيهلككم. وقال قتادة: يستأصلكم.

وقوله تعالى: ﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾ قال قتادة: قال السحرة بينهم: إن كان هذا ساحراً فإنا سنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر. وقال وهب بن منبه: جمع كل ساحر حباله وعصيّه، وخرج موسى معه أخوه يتكيء على عصاه، حتى أتى المجمع، وفرعون في مجلسه معه أشراف أهل مملكته قد استكف له الناس، فقال موسى للسحرة حين جاءهم ﴿ويلكم

لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾ فتراود السحرة بينهم، وقال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر.

وقال ابن كثير[1]: وقوله: ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾، أي: ويستبدّا بهذه الطريقة وهي السحر. وقال ابن عباس: يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش. وقال علي بن أبي طالب: يصرفان وجوه الناس إليهما.

قال ابن كثير[2]: وقوله: ﴿فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفّاً﴾، أي: اجتمعوا كلكم صفّاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار وتغلبوا هذا وأخاه ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ منا ومنه.

قوله عز وجل: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾.

عن السدي قال: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين قال لهم موسى ألقوا فألقوا حبالهم وعصيّهم﴾ وكانوا بضعة وثلاثين ألف رجل ليس منهم رجل إلاّ ومعه حبل وعصا. وعن وهب بن منبه قال: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا﴾ فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصيّ والحبال، فإذا هي حيّات كأمثال الحبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٥٧).
(٢) المصدر السابق (٣/ ١٥٧).

﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ لما رأى ما ألقوا من الحبال والعصي خيّل إليه أنها تسعى، فأوحى الله أن ﴿ألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ وفرح موسى فألقى عصاه من يده، فاستعرضت لما ألقوا من حبالهم وعصيّهم، وهي حيات في عين فرعون وأعين الناس تسعى، فجعلت تلقفها حية حية حتى ما يُرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجّداً قالوا: آمنا برب هارون وموسى، لو كان هذا سحراً ما غلبنا.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ لا يسعد حيث كان.

قوله عز وجل: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾.

قال وهب بن منبه: لما قالت السحرة ﴿آمنا برب هارون وموسى﴾ قال لهم فرعون وأسف ورأى الغلبة البيّنة: ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر﴾، أي: لعظيم السحّار الذي علّمكم. وعن السدي: قال فرعون: ﴿لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنّكم في جذوع النخل﴾

فقتلهم وقطّعهم، كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه حين قالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين﴾ وقال: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء.

وعن وهب بن منبه ﴿لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات والذي فطرنا﴾، أي: على الله ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ اصنع ما بدا لك ﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾، أي: ليس لك سلطان إلاّ فيها ثم لا سلطان لك بعد. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ قال: أمرهم بتعلّم السحر، قال: تركوا كتاب الله وأمروا قومهم بتعليم السحر. وعن ابن إسحاق: ﴿والله خير وأبقى﴾ خير منك ثواباً وأبقى عذاباً.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية ﴿إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ قال النبي ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها فإن النار تمسّهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضبائر فيؤتى بهم نهراً يقال له الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت العشب في حميل السيل»[1]. رواه ابن أبي حاتم. وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[2]. رواه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ــ كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٥٩)، وبنحوه أخرجه مسلم (ح/ ١٨٥)، وأحمد (٣/ ٢٥ ــ ٢٦)، والغبائر، أي: الجماعة المتفرقة. وحميل السيل، أي: ما يحمله السيل حيث انجرافه من الطين ونحوه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦ و ٣٢١)، والترمذي (ح/ ٢٥٣١)، وابن أبي شيبة (١٣/ ١٣٨)، والحاكم (١/ ٨٠) وصححه وأقره الذهبي من حديث عبادة بن الصامت، وأخرجه أحمد (٥/ ٢٤٠)، والترمذي (٢٥٣٠)، وابن ماجه (ح/ ٤٣٣١) من حديث معاذ رضي الله عنه، وهو حديث صحيح.

أحمد وغيره. وفي الصحيحين: «إن أهل علّيّين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»[1].

● ● ●

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٢٥٦)، ومسلم (ح/٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الدرس السابع والستون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن

تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿يبساً﴾ قال: يابساً. وعن ابن عباس في قوله: ﴿لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ يقول: لا تخاف من آل فرعون دركاً، ولا تخشى من البحر غرقاً.

﴿فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم وأضلّ فرعون قومه وما هدى﴾.

قال البغوي[1]: وهذا تكذيب لفرعون في قوله: ﴿وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ولا تطغوا فيه﴾ يقول: ولا تظلموا ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾، يقول: فقد شقي ﴿وإني لغفّار لمن تاب﴾ من الشرك ﴿وآمن﴾ يقول: وعد الله ﴿وعمل صالحاً﴾ يقول: أدّى فرائضي ﴿ثم اهتدى﴾ قال قتادة: ثم لزم الإسلام حتى يموت عليه.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٩٠).

قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ۝٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ۝٨٩﴾.

قال ابن إسحاق: وعد الله موسى حين أهلك فرعون وقومه، ونجّاه وقومه ﴿ثلاثين ليلة ثم أتممناها بعشر فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة﴾ تلقّاه فيها بما شاء، فاستخلف موسى هارون في بني إسرائيل ومعه السامريّ يسير بهم على أثر موسى ليلحقهم به، فلما كلّم الله موسى قال له: ﴿ما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾. قال ابن عباس يقول: حزيناً.

﴿قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾.

قال البغوي[1]: صدقاً، أن يعطيكم التوراة ﴿أفطال عليكم العهد﴾ مدة مفارقتي إيّاكم ﴿أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي قالوا ما أخلفنا موعدك بمَلْكِنا﴾ قال ابن كثير[2]: أي عن قدرتنا واختيارنا.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٩١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٦٢).

﴿ولكنّا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري﴾. وعن ابن عباس: ﴿ولكنا حمّلنا أوزاراً من زينة القوم﴾، فهو ما كان مع بني إسرائيل من حليّ آل فرعون، يقول: خطؤنا مما أصبنا من حليّ عدوّنا، وقال قتادة: كان الله وقّت لموسى ثلاثين ليلة ثم أتّمها بعشر، فلما مضت الثلاثون قال عدو الله السامريّ: إنما أصابكم الذي أصابكم عقوبة بالحليّ الذي كان معكم، فهلّموا، وكانت حليّاً استعاروها من آل فرعون، فساروا وهي معهم فقذفوها إليه فصوّرها صورة بقرة، وكان قد صرّ في عمامته أو في ثوبه قبضة من أثر فرس جبرائيل، فقذفها مع الحليّ والصورة.

﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار﴾ فجعل يخور خوار البقرة فقال: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾. وفي رواية: ﴿قالوا هذا إلهكم وإله موسى﴾ ولكن موسى نسي ربه عندكم، قال الله: ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم﴾ ذلك العجل الذي اتخذوه ﴿قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾؟

قال ابن كثير[1]: وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورّعوا عن زينة القوم، فألقوها وعبدوا العجل، فتورّعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما قال ابن عمر: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ وهم يسألون عن دم البعوضة.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٦٢).

قال ابن عباس: لما قال القوم: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ أقام هارون فيمن تبعه من المسلمين ممن لم يفتتن، وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل، وتخوّف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى: ﴿فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ وكان له هائباً مطيعاً.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿فما خطبك يا سامري﴾ قال: ما أمرك؟ ما شأنك؟ ما هذا الذي أدخلك فيما دخلت فيه؟ ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾. قال قتادة: يعني فرس جبريل ﷺ ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سوّلت لي نفسي﴾. قال ابن زيد: كذلك حدثتني نفسي. وقال قتادة: كان واللهِ السامريُّ عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة، ولكنّ عدو الله نافق بعدما قطع البحر مع بني إسرائيل.

وقال ابن كثير[1]: ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أي حَسَّنَتْهُ وأعجبها إذ ذاك ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسّه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا ﴿أن تقول لا مساس﴾، أي: لا تماسّ الناس ولا يمسّونك ﴿وإن لك موعداً﴾ أي: يوم القيامة ﴿لن تخلفه﴾ أي: لا يحيد لك عنه.

(١) المصدر السابق (٣/ ١٦٤).

وقوله: ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرّقنه ثم لننسفنّه في اليّم نسفاً﴾. قال ابن عباس: فحرّقه ثم ذرّاه في اليمّ.

وقال ابن جرير[1]: وقوله: ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلاَّ هو وسع كل شيء علماً﴾، يقول: ما لكم أيها القوم معبود إلاَّ الذي له عبادة جميع الخلق، لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي أن تكون إلاَّ له ﴿وسع كل شيء علماً﴾ يقول: احتاط بكل شيء علماً وعلمه، فلا يخفى عليه شيء ولا يضيق عليه علم جميع ذلك.

• • •

(١) انظر «جامع البيان» (١٦/ ٢٠٤).

الدرس الثامن والستون بعد المائة

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى كذلك نقصّ عليك من الأخبار الماضية كما وقعت ﴿وقد آتيناك من لدنا﴾ من عندنا ﴿ذكراً﴾ وهو القرآن ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ قال مجاهد: إثماً ﴿خالدين فيه﴾، أي: مقيمين في عذاب الوزر ﴿وساء لهم يوم القيامة حِمْلاً﴾، أي: بئسما حملوا على أنفسهم من الإثم.

﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً يتخافتون بينهم إن لبثتم إلاّ عشراً﴾ قال ابن عباس: ﴿يتخافتون﴾ يتساررون ﴿نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلاّ يوماً﴾، أي: في الدنيا قاله ابن جرير.

قال البغوي[1]: قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة؛ وقيل: نسوا مقدار لبثهم لشدّة ما أهمّهم.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٩٤).

وعن شعبة في قوله: ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة﴾ يقول: أعلمهم في أنفسهم ﴿إن لبثتم إلاَّ يوماً﴾، وقيل: المراد مدّة مكثهم في القبور.

قوله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿قاعاً صفصفاً﴾ يقول: مستوياً لا نبات فيه ﴿لا ترى فيها عِوجاً ولا أمْتاً﴾ يقول: وادياً ﴿ولا أمتاً﴾ يقول: رابية.

﴿يومئذٍ يتّبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن﴾ يقول: سكنت ﴿فلا تسمع إلاَّ همساً﴾ قال: وطء الأقدام.

﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلاَّ من أذن له الرحمن﴾ أن يشفع ﴿ورضي له قولاً يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً﴾ قال قتادة: ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ من أمر الساعة ﴿وما خلفهم﴾ من أمر الدنيا.

﴿وعنت الوجوه للحيّ القيّوم﴾ قال ابن عباس: ذلّت ﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾ قال: خسر من أشرك بالله. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٤٤٧)، ومسلم (ح/٢٥٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهم.

وقوله تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ قال قتادة: ﴿ظلماً﴾ أن يزاد في سيّئاته ولا يهضم من حسناته. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مدِّ البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كَتَبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أَفَلَكَ عذر؟ قال: لا يا رب، فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجّلات؟ فيقول: إنك لا تُظلم. قال: فتوضع السجلاّت في كفّة والبطاقة في كفّة فطاشت السجلاّت وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء»[1]. رواه الترمذي وابن ماجه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم فيقولون: اشفع إلى ربك ــ وفي رواية ــ قال: يجلس المؤمنون يوم القيامة حتى يهمّوا بذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس، خلقك الله بيده وأسكنك جنّته وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب: أكله من الشجرة وقد نُهي عنها، ولكن ائتوا نوحاً أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، قال: فيأتون إبراهيم فيقول: إني لست هناكم، ويذكر

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢١٣ و ٢٢١)، والترمذي (ح/٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (ح/٤٣٠٠)، والحاكم (١/٦ و ٥٢٩)، وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٥/١٣٣ و ١٣٤)، وهو حديث صحيح.

ثلاث كذبات كذبهنّ، ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكّلمه وقرّبه نجيّاً، قال: فيأتون موسى فيقول: إني لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب: قتله النفس، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته، قال: فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، قال: فيأتوني فأستأذن على ربّي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع محمد، وقل تُسمع واشفع تُشَفّع وسل تعطه. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربّي بثناء وتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فَيُحَدُّ لي حَدّاً، فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود الثانية فأستأذن على ربّي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع محمد وقل تُسمع، واشفع تُشَفّع وسل تعطه. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناه وتحميد يعلّمنيه ثم أشفع فيحدّ لي حدّاً، فأخرج فأُخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، حتى ما يبقى في النار إلاّ من قد حبسه القرآن، أي: وجب عليه الخلود، ثم تلا هذه الآية: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال: وهذا المقام المحمود الذي وُعده نبيّكم»[1]. متفق عليه. وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار قوم بالشفاعة كأنهم الثعارير قلنا: ما الثعارير؟ قال: إنه الضغابيس»[2]. متفق عليه. وعن عثمان بن عفان رضي الله

---

(١) وهم المؤلف ـــ رحمه الله ـــ فجعل هذا الحديث مما اتفق عليه البخاري ومسلم بهذا اللفظ!! مع أنه ليس في البخاري ومسلم بهذا اللفظ، فضلاً عن القول بأنهم قد اتفقا عليه، والذي عندهما بنحوه البخاري (ح/ ٧٥١٠ و ٦٥٦٥)، ومسلم (١/ ١٨٢ ـــ ١٨٣)، والحديث بهذا السياق أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٤)، وابن أبي عاصم في «السنّة» (ح/ ٨٠٤ و ٨٠٥)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري بلفظه (ح/ ٦٥٥٨)، ومسلم (١/ ١٧٨) مختصراً جداً، الثعارير: القثاء الصغار، شبهوا بها لأن القثاء ينمي سريعاً (النهاية ١/ ٢١٢)، الضغابيس: صغار القثاء (النهاية ٣/ ٨٩).

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[١]. رواه ابن ماجه.

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

قال البغوي[٢]: ﴿وكذلك﴾، أي: كما بيّنّا في هذه السورة﴿ أنزلناه﴾، يعني: أنزلنا هذا الكتاب ﴿قرآناً عربياً﴾، أي: بلسان العرب ﴿وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يحدث لهم ذكراً﴾ عبرة وعظة. قال قتادة: ﴿لعلهم يتقون﴾ ما حذروا به من أمر الله وعقابه ووقائعه بالأمم قبلهم ﴿أو يحدث لهم﴾ القرآن ﴿ذكراً﴾، أي: حذّاً وورعاً.

وقوله تعالى: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾، أي: عما يصفه به المشركون. ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ قال مجاهد: لا تَتْلُه على أحد حتى نبيّنه لك ﴿وقل رب زدني علماً﴾.

قال ابن جرير[٣]: يقول تعالى ذكره: ﴿وقل﴾ يا محمد ﴿رب زدني علماً﴾ صحيحاً إلى ما علّمتني أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم. قال ابن عيينة: ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفّاه الله عز وجل. وفي الحديث الذي رواه الترمذي وغيره أنه ﷺ كان يقول: «اللهم انفعني بما علّمتني، وعلّمني ما ينفعني، وارزقني

---

(١) أخرجه ابن ماجه (ح/٤٣١٣)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٣/ ٣٦٧) وابن عبد البر في «جامع البيان» (١/ ٣٠) بسند موضوع، فيه عبد الرحمن بن عنبسة القرشي، رُمي بالوضع.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٩٥).

(٣) انظر «جامع البيان» (١٦/ ٢١٩).

علماً ينفعني، وزدني علماً الحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار»[1].

• • •

(١) أخرجه الترمذي (ح/ ٣٥٩٩)، وابن ماجه (ح/ ٢٥١)، والطبراني في «الدعاء» (ح/ ١٤٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي سنده موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، وللحديث شاهد بنحوه من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أخرجه الحاكم (١٠/ ١٨١) وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه ـ أيضاً ـ الطبراني في المصدر السابق (ح/ ١٤٠٥).

الدرس التاسع والستون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ

وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي﴾ يقول: فترك ﴿ولم نجد له عزماً﴾ يقول: حفظاً. قال ابن زيد: العزم المحافظة على ما أمره الله تبارك وتعالىٰ بحفظه والتمسك به، قال له: ﴿يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنّة فتشقى﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ وقرأ حتى بلغ ﴿وملك لا يبلى﴾ قال: فنسي ما عهد إليه في ذلك قال: وهذا عهد الله إليه، قال: ولو كان له عزم ما أطاع عدوّه الذي حسده وأبـى أن يسجد له، وعصى الله الذي كرّمه وشرّفه وأمر ملائكته فسجدوا له. وعن ابن عباس قال: إنما سمّي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي. وعن سعيد بن جبير قال: أُهبط إلى آدم ثور أحمر، فكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه، فهو الذي قال الله ﴿فلا يخرجنكما من الجنّة فتشقى﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ قال ابن عباس يقول: لا يصيبك فيها عطش ولا حر.

﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد﴾.

قال البغوي[1]: يعني على شجرة إن أكلت منها بقيت مخلداً؟ ﴿وملك لا يبلى﴾ لا يبيد ولا يفنى؟ ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة﴾ قال السدي: أقبلا يغطّيان عليهما بورق التين ﴿وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ وفّقه للتوبة.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

عن ابن عباس قال: تضمّن الله لمن قرأ القرآن واتّبع ما فيه أن لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا هذه الآية ﴿فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾ يقول: الشقاء. وعن الضحاك ﴿فإن له معيشة ضنكاً﴾ قال: الكسب الخبيث. وقال سعيد بن جبير: يسلبه القناعة حتى لا يشبع. وعن ابن عباس قال: كل مال أعطي العبد قلّ أو كثر، فلم يتّق فيه، فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة، وإن أقواماً أعرضوا عن الحق وكانوا أُولي سعة من الدنيا مكثرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، وذلك أنهم يرون أن الله ليس بمخلفٍ لهم معايشهم، من سوء ظنّهم بالله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ قال ابن عباس: أعمى البصر ﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى﴾ قال مجاهد في قوله: ﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾ قال: فتركتها

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٩٧).

﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ وكذلك اليوم تُترك في النار. قال قتادة: نُسُوا من الخير ولم يُنْسَوا من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه﴾.

قال البغوي[1] أي: وكما جزينا من أعرض عن القرآن ﴿كذلك نجزي من أسرف﴾ أشرك ﴿ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد﴾ مما نعذّبهم به في الدنيا والقبر ﴿وأبقى﴾ وأدوم.

قوله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

يقول تعالىٰ: ﴿أفلم يهد لهم﴾ يبيّن لهم القرآن ﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ كديار عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وغيرهم ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهي﴾ لذوي العقول. قال ابن عباس: ﴿لذوي النهي﴾ يقول: التقى.

وعن مجاهد قوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى﴾ الأجل المسمى: الدنيا.

قال ابن جرير[2]: ومعنى الكلام: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً.

قال البغوي[3]: والكلمة الحكم بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة ﴿لكان لزاماً﴾، أي: لكان لازماً لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٩٨).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٦/ ٢٣٢).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٩٨).

﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ قال ابن عباس: الصلاة المكتوبة. قال البغوي ﴿ومن آناء الليل﴾ ساعاته ﴿فسبّح﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء. قال ابن عباس: يريد أول الليل ﴿وأطراف النهار﴾ يعني صلاة الظهر، وسمّي وقت الظهر أطراف النهار لأنه وقته عند الزوال، وهو طرف النصف الأول انتهاء، وطرف النصف الآخر ابتداء. انتهى.

وقيل: التسبيح ههنا محمول على التنويه والإجلال، والصواب أن الآية عامة لصلاة المكتوبة وصلاة التطوع، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

وقوله تعالىٰ: ﴿لعلك ترضى﴾ قال ابن زيد: ترضى ما يثيبك الله على ذلك. وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ هذه الآية»[1].

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾، أي: زينة الحياة الدنيا ﴿لنفتنهم فيه﴾ قال: لنبتليهم فيه ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾ مما متّعنا به هؤلاء من هذه الدنيا. وكان هشام بن عروة إذا رأى ما عند السلاطين دخل داره فقال: ﴿ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ ثم ينادي: الصلاة الصلاة يرحمكم الله. وعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٥٥٤ و ٥٧٣ و ٤٨٥١)، ومسلم (ح/ ٦٣٣).

يقول: «من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، لم يأته من الدنيا إلاَّ ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»(١). رواه ابن ماجه.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالىٰ: ﴿وقالوا﴾ يعني المشركين ﴿لولا يأتينا بآية من ربه﴾، أي: بآية يقترحونها ﴿أو لم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى﴾ يعني بيان ما فيها وهو القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾(٢).

﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى﴾، أي: قالوا ذلك حين رأوا العذاب يوم القيامة. وعن أبـي سعيد الخدري عن النبـي ﷺ قال: «يحتجّ على الله يوم القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة، والمغلوب على عقله، والصبـي الصغير، فيقول المغلوب على عقله: لم تجعل لي عقلاً انتفع به، ويقول الهالك في الفترة: لم يأتني رسول ولا نبـي ولو أتاني لك رسول أو نبـي لكنت أطوع خلقك لك وقرأ ﴿لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾، ويقول الصبـي الصغير: كنت صغيراً لا أعقل. قال: فترفع لهم نار، ويقال لهم: رِدُوها قال: فَيَرِدُها من كان في علم الله أنه سعيد، وتلكّأ عنها من كان

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣)، وابن ماجه (ح/ ٤١٠٥) بسند صحيح.

(٢) سورة الملك: الآية ٢٦.

في علم الله، أنه شقي، فيقول: إياي عصيتم فكيف برسلي لو أتتكم؟»[(١)] رواه ابن جرير.

وقوله تعالىٰ: ﴿قل كل متربّص﴾ وذلك أن المشركين قالوا: نتربص بمحمد حوادث الدهر، فقال الله سبحانه ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿كل متربّص﴾ منا ومنكم ﴿فتربّصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السويّ﴾، أي: الطريق المستقيم نحن أم أنتم ﴿ومن اهتدى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، كما قال تعالىٰ: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلاً﴾.

● ● ●

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/٢٣٨)، والبغوي في «مسند ابن الجعد» (ح/٢٠٣٨)، وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٧/٢١٩) إلى البزار وفي سنده العوفي، وهو ضعيف، لكن للحديث شواهد عديدة من حديث أبـي هريرة، والأسود بن سريع ومعاذ، وأنس رضي الله عنهم، فالحديث بشواهده يرتقي إلى درجة الحسن، وقد سبق تخريجه من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

الدرس السبعون بعد المائة

﴿سـورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام﴾

مكية، وهي مائة واثنتا عشرة آية

عن عبد الله بن مسعود قال: «بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هنّ من العتاق الأول، وهنّ من تلادي»[1] رواه البخاري.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٣٩) موقوفاً.

ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ۞.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «﴿وهم في غفلة وهم معرضون﴾ قال: في الدنيا»[1].

وقوله تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدَث إلاَّ استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم﴾، أي: غافلة.

قال ابن جرير[2]: يقول تعالى ذكره: ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس ويذكّرهم به ويعظهم ﴿إلاَّ استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم﴾. وعن قتادة قوله: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَث﴾ الآية، يقول: ما ينزل عليهم من شيء من القرآن ﴿إلاَّ استمعوه وهم يلعبون﴾. وقال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم، وقد حرّفوه وبدّلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يُشَبْ؟!

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/٤٠٧) بسند صحيح، وأخرجه ابن جرير (١٧/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بسندٍ صحيح أيضاً، وعزاه السيوطي في «الدر» (٤/٥٦٣) إلى ابن مردويه.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٧/٢).

وقوله تعالى: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلاَّ بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ قال ابن زيد: قاله أهل الكفر لنبيّهم لما جاء به من عند الله، زعموا أنه ساحر وأن ما جاء به من سحر قالوا: أتأتون السحر وأنتم تبصرون؟ ﴿قال﴾، أي: محمد، وفي قراءة: ﴿قل ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾ لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن ﴿وهو السميع﴾ لأقوال الخلق ﴿العليم﴾ بأحوالهم.

﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ عن ابن عباس قوله: ﴿أضغاث أحلام﴾ قال: مشتبهة. وعن قتادة قوله: ﴿أضغاث أحلام﴾، أي: فعل حالم، إنما هي رؤيا رآها ﴿بل افتراه بل هو شاعر﴾ كل هذا قد كان منهم.

قال البغوي[1]: يعني أن المشركين اقتسموا القول فيه وفيما يقوله فقال بعضهم: أضغاث أحلام، وقال بعضهم: بل هو فرية، وقال بعضهم: بل محمد شاعر وما جاءكم به شعر، فليأتنا بآية إن كان صادقاً كما أرسل الأولون؛ قال الله تعالى مجيباً لهم ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم﴾ الرسل إذا جاؤوا قومهم بالبّينات فلم يؤمنوا لم يُنظروا.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ يقول: فاسألوا أهل التوراة والإنجيل.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٠١).

قال ابن جرير[1]: أراه أنا يقول: يخبروكم أن الرسل كانوا رجالاً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

وقال الضحاك في قوله: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ يقول: لم أجعلهم جسداً لا يأكلون الطعام.

قال ابن كثير[2]: أي قد كانوا بشراً من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس. وعن قتادة قوله ﴿وما كانوا خالدين﴾، أي: لا بدّ لهم من الموت. ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ بإنجاء المؤمنين وإهلاك المكذّبين ﴿فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين﴾.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم﴾ يقول: شرفكم ﴿أفلا تعقلون﴾؟ ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة﴾ قال مجاهد: أهلكناها ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾.

﴿لا تركضوا﴾ لا تفرّوا ﴿وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه﴾ قال قتادة يقول: ارجعوا إلى دنياكم التي أترفتم فيها ﴿لعلكم تسألون﴾ من دنياكم شيئاً، استهزاء بهم ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً

---

(١) انظر «جامع البيان» (١٧/ ٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٧٤).

خامدين﴾ قال قتادة: فلما رأوا العذاب وعاينوه لم يكن لهم مجير إلاَّ قولهم: يا ويلنا إنا كنا ظالمين، حتى دمّر الله عليهم وأهلكهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ يقول: ما خلقناهما عبثاً ولا باطلاً. وعن مجاهد في قوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ قال: زوجة ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ من عندنا، وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً. وعن قتادة قوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ الآية، أي: أن ذلك لا يكون ولا ينبغي. وقوله: ﴿إن كنا فاعلين﴾ يقول: ما كنا فاعلين، وقيل: إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا، ولكنا لم نفعله لأنه لا يليق بالربوبية.

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾، أي: فبطل كذبهم بما نبيّن من الحق؛ ثم أوعدهم فقال: ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ الله بما لا يليق به من الصاحبة والولد والشريك.

﴿وله من في السموات والأرض﴾ خَلْقاً وملكاً وعبيداً ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ قال قتادة: لا يعيون. وقال ابن زيد: لا يملّون ﴿يسبّحون الليل والنهار لا يفترون﴾ قال قتادة: يقول: الملائكة الذين هم عند الرحمن لا يستكبرون عن عبادته ولا يسأمون فيها؛ وذكر لنا «أن نبي الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه إذ قال: تسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء يا

نبي الله. قال: إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، وليس فيها موضع راحة إلاَّ وفيه مَلَكٌ ساجد أو قائم»[١].

قوله عز وجل: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنْشِرُون﴾ يقول: أفي آلهتهم أحد يُحْيِي؟ ﴿لو كان فيهما آلهة إلاَّ الله لفسدتا﴾، كما قال تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾[٢].

وقال الضحاك في قوله: ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ لا يُسأل الخالق عما يقضي في خلقه، والخلق مسؤولون عن أعمالهم.

وقال البغوي[٣]: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة﴾ استفهام إنكار وتوبيخ.

﴿قل هاتوا برهانكم هذا ذكر مَنْ معي وذكر مَنْ قبلي﴾ قال ابن جريج:

---

(١) روي مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه الطحاوي في المشكل، وابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (ح/ ٢٥٠)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٢٤ ــ ٢٢٥) من حديث حكيم بن حزام، وهو حديث صحيح، وله شاهد من حديث أنس عند أبي نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٦٩)، وفيه ضعف، وشاهد آخر من حديث جابر عند الطبراني (٢/ ٢٠٠)، وفيه ضعف أيضاً، وشاهد من حديث العلاء بن سعد عند ابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (ح/ ٢٥٥)، وشاهد من حديث أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ وسبق تخريجه.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٩١.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٠٣).

حديث مَنْ معي وحديث مَنْ قبلي. وعن قتادة قوله: ﴿هذا ذكر من معي﴾ يقول: هذا القرآن فيه ذكر الحلال والحرام ﴿وذكر من قبلي﴾ يقول: ذكر أعمال الأمم السالفة، وما صنع الله بهم وإلى ما صاروا، ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون﴾ عن كتاب الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنه لا إله إلاَّ أنا فاعبدون﴾ به أرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾.

قال البغوي[1]: نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله.

وقوله تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلاَّ لمن ارتضى﴾ قال مجاهد: لمن رضي الله عنه. وقال ابن عباس: الذي ارتضى لهم شهادة أن لا إله إلاَّ الله.

وقوله تعالى: ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾، أي: خائفون أن يعصوه ويخالفوا أمره فيعذّبهم، ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾.

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٠٤).

قال ابن جرير[(١)]: يقول تعالى ذكره: ﴿ومن يقل﴾ من الملائكة ﴿إني إله من دونه فذلك﴾ الذي يقول ذلك منهم ﴿نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾.

قال البغوي[(٢)]: الواضعين الإلهية والعبادة في غير موضعهما. وقال ابن كثير[(٣)]: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه﴾، أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله ﴿فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾، أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾[(٤)]، وقوله: ﴿لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين﴾[(٥)].

• • •

(١) انظر «جامع البيان» (١٧/١٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٠٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٧٦).

(٤) سورة الزخرف: الآية ٨١.

(٥) سورة الزمر: الآية ٦٥.

الدرس الواحد والسبعون بعد المائة

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا
وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ
بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا
مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ
الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا
الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ
الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ
وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً
فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ
قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَنْ
يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ
مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ

عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً﴾ يقول: ملتصقتين ﴿ففتقناهما﴾ فرفع السماء ووضع الأرض. وقال مجاهد: ففتقهنّ سبع سموات بعضهنّ فوق بعض، وسبع أرضين بعضهنّ تحت بعض. وقال عطية: كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات، وجعل من الماء كل شيء حيّ ﴿أفلا يؤمنون﴾ قال قتادة: كل شيء حي خلق من الماء.

قال ابن جرير[1] وقوله: ﴿أفلا يؤمنون﴾ يقول: أفلا يصدقون بذلك ويقرّون بألوهة من فعل ذلك، ويفردونه بالعبادة؟

وقوله تعالىٰ: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾، أي: جبالاً ﴿أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ بين الجبال ﴿لعلّهم يهتدون﴾.

قال ابن جرير[2]: يقول تعالى ذكره: جعلنا هذه الفجاج في الأرض ليهتدوا إلى السير فيها.

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ قال قتادة: سقفاً مرفوعاً

---

(١) انظر «جامع البيان» (١٧/ ٢٠).

(٢) المصدر السابق.

وموجاً مكفوفاً ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾. قال مجاهد: الشمس والقمر والنجوم آيات السماء ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ قال مجاهد: فلك كهيئة حديدة الرحى ﴿يسبحون﴾ يَجْرُون.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قال ابن جرير[1]: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وما خلّدنا أحداً من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلّدك فيها، ولا بدّ لك من أن تموت كما مات من قبلك ﴿أفإن متّ فهم الخالدون﴾؟ يقول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك؟ لا ما ذلك، قيل: نزلت هذه الآية حين قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، وفي هذه الآية دلالة ظاهرة على أن الخضر عليه السلام ميت، لأن الله لم يجعل الخلد في الدنيا لأحد من بني آدم.

﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ قال ابن عباس يقول: نبتليكم بالشدّة والرخاء والسقم والغنى والفقر، والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلال. وقال ابن زيد: نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون، نختبرهم بذلك، لننظر كيف شكرهم فيما يحبون، وكيف صبرهم فيما يكرهون.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

(١) انظر «جامع البيان» (١٧/ ٢٤).

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وإذا رآك﴾ يا محمد هؤلاء المشركون ﴿إن يتخذونك إلاَّ هزواً﴾ سخرياً يقول بعضهم لبعض ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ يعيبها؟ ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾، كما قال تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ قال سعيد بن جبير: لما دخلت الروح في رأس آدم وعينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قائماً قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عَجِلاً إلى ثمار الجنة فوقع. ﴿سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾.

قال البغوي[2]: هذا خطاب للمشركين، كانوا يستعجلون بالعذاب.

﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قال الله تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفّون﴾ لا يدفعون ﴿عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون﴾ يُمنعون من العذاب، أي: لو علموا لما أقاموا عن كفّهم ولما استعجلوا ﴿بل تأتيهم﴾، أي: النار ﴿بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردّها ولا هم ينظرون﴾ يمهلون ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾ فاصبر كما صبروا ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾، أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه.

---

(١) سورة الرعد: الآية ٣٠.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٠٦).

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ قال: يحرسكم ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون﴾ يجارون، أي: الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم فكيف ينصرون عابديهم.

﴿بل متّعنا هؤلاء﴾ في الدنيا ﴿وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾ فاغترّوا ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قال ابن عباس: تخرب القرية حتى يكون العمران في ناحية ﴿أفهم الغالبون﴾ أم نحن؟

وعن قتادة قوله: ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾، أي: بهذا القرآن ﴿ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذَرون﴾ يقول: إن الكافر قد صمّ عن كتاب الله لا يسمعه ولا يشفع به ولا يعقله ﴿ولئن مسّتهم نفحة من عذاب ربك﴾ يقول: عقوبة ﴿ليقولّن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ ندموا حين لا ينفعهم الندم.

قوله عز وجل: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

عن عائشة رضي الله عنها «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: يحسب ما خانوك وما عصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل الذي بقي قِبَلَكَ، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: ما له لا يقرأ كتاب الله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ولا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾؟ فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء، يعني عبيده، إني أشهدك أنهم أحرار كلهم»[1]. رواه أحمد.

● ● ●

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٠)، والترمذي (ح/ ٣١٦٥) وهو حديث صحيح.

الدرس الثاني والسبعون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ

ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ
ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ
فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ
فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾ التوراة حلالها وحرامها، فرّق الله بين الحق والباطل. وقال ابن زيد: الفرقان الحق، آتاه الله موسى وهارون فرّق بينهما وبين فرعون، وقضى بينهم بالحق، وقرأ: ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾ قال: يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وضياء وذكراً للمتقين﴾، أي: تذكيراً لهم وعظة؛ ثم وصفهم فقال: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾، أي: يخافونه ولم يروه ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾، أي: خائفون وجلون، ﴿وهذا﴾، يعني: القرآن ﴿ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾ وهو في غاية الجلاء والظهور؟

قال البغوي[1]: وهذا استفهام توبيخ وتعيير.

قوله عز وجل: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٠٨).

عن مجاهد قوله: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾ قال: هديناه صغيراً.

وقوله تعالى: ﴿وكنا به عالمين﴾، أي: أنه أهل للهداية والنبوة ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل﴾، يعني: الأصنام ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾، أي: على عبادتها مقيمون؟ ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ فاقتدينا بهم ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ بعبادتكم إياها ﴿قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾ يعنون: أجادّ أنت فيما تقول أم لاعب؟ ﴿قال بل ربكم السموات والأرض الذي فطرهنّ﴾ خلقهنّ ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ أنه لا إله إلاّ الله الذي لا يستحق العبادة غيره.

﴿وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين﴾ قال مجاهد: إنما قال إبراهيم هذا سرّاً من قومه، ولم يسمع ذلك إلاّ رجل واحد فأفشاه عليه.

قوله عز وجل: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قال السدي: إن إبراهيم قال له أبوه: يا إبراهيم إن لنا عيداً، لو قد خرجت معنا إليه قد أعجبك ديننا، فلما كان يوم العيد فخرجوا إليه، خرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه ﴿وقال إني سقيم﴾ يقول: أشتكي رجلي، فلما مضوا نادى في آخرهم، وقد بقي ضعفاء الناس ﴿تالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن

تولوا مدبرين﴾ فسمعوها منه، ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة، فإذا هنّ في بهو عظيم، مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى بعض، كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين أيدي الآلهة، قالوا: إذا كان حين نرجع رجعنا وقد برّكت الآلهة في طعامنا فأكلنا، فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿ألا تأكلون﴾؟ فلما لم تجبه قال: ﴿ما لكم لا تنطقون﴾؟ ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ فأخذ فأس حديد فنقر كل صنم في حافتيه ثم علّق الفأس في عنق الصنم الأكبر ثم خرج، فلما جاء القوم إلى طعامهم نظروا إلى آلهتهم ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ وعن قتادة: ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ قال: كادهم بذلك لعلهم يتذكّرون أو يبصرون.

وعن ابن إسحاق قوله: ﴿سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ سمعناه يسبّها ويعيبها ويستهزىء بها، لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره، وهو الذي نظن أنه صنع هذا بها ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون﴾ قال ابن إسحاق: بَلَغَ ما فعل إبراهيم بآلهة قومه نمرود وأشراف قومه، فقالوا: ﴿فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون﴾، أي: ما يُصنع به، ولما أتي به واجتمع له قومه عند ملكهم نمرود ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ غضب من أن يعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر فكسرهنّ. وعن قتادة قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ وهي هذه الخطة التي كادهم بها.

قال ابن إسحاق: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ قال: ارعووا ورجعوا عنه فيما ادعوا عليه من كسرهنّ إلى أنفسهم فيما بينهم، فقالوا: لقد ظلمناه وما نراه إلاّ كما قال، ثم قالوا: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾، أي: لا تتكلّم فتخبرنا من صنع هذا بها وما تبطش بالأيدي فنصدقك، يقول الله: ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ في الحجّة عليهم لإبراهيم حين جادلهم، فقال عند ذلك

إبراهيم ــ حين ظهرت الحجّة عليهم بقولهم: ﴿لقد علمت ماهؤلاء ينطقون﴾ ــ ﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾؟.

قوله عز وجل: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

قال ابن إسحاق: أجمع نمرود وقومه في إبراهيم ﴿فقالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾، أي: لا تنصروها منه إلاَّ بالتحريق بالنار إن كنتم ناصريها. وعن السدي قال قالوا: ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم، فحبسوه في بيت وجمعوا له حطباً، حتى إن كان الطير لتمرّ بها فتحترق من شدّة وهجها، فعمدوا إليه فرفعوه على رأس البنيان، فرفع إبراهيم ﷺ رأسه إلى السماء وقال: اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري[1]، حسبي الله ونعم الوكيل. فقذفوه في النار فقال: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾. قال أبو العالية: السلام لا يؤذيه بردها، ولولا أنه قال ﴿وسلاماً﴾ لكان البرد أشدّ عليه من الحر. وقال كعب الأحبار: ما أحرقت النار من إبراهيم إلاَّ وثاقه. وعن أبي هريرة قال: إن أحسن شيء قاله أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار، وجده ترشح جبينه فقال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم.

قال ابن يسار: فقال نمرود لإبراهيم: إني مقرّب إلى إلهك قرباناً، لِمَا رأيت من قدرته وعزّته فيما صنع بك، حيث أبيت إلاَّ عبادته وتوحيده، إنّي مقرّب له أربعة آلاف بقرة. فقال له إبراهيم: إذاً لا يقبلها منك ما كنت على دينك حتى

(١) روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك». وسنده ضعيف.

تفارقه إلى ديني، فقال: لا أستطيع ترك ملّتي وملكي، ولكن سوف أذبحها، فذبحها له نمرود ثم كفّ عن إبراهيم ومنعه الله منه.

قوله عز وجل: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

عن قتادة ﴿ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ كانا بأرض العراق فأُنجيا إلى أرض الشام، وكان يقال للشام عماد دار الهجرة وما نقص من الأرض زيد في الشام وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وبها يهلك الله شيخ الضلالة الكذاب الدجال.

وعن عطاء في قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ قال عطية: ﴿وكلاّ جعلنا صالحين﴾.

قال ابن كثير[1]، أي: الجميع أهل خير وصلاح. وقال ابن عباس: ﴿ووهبنا له إسحاق﴾ ولداً ﴿ويعقوب﴾ ابن ابن ﴿نافلة﴾.

قال ابن كثير[2]: يعني أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ جعلهم الله أئمة يُقتدى بهم في أمر الله ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٨٥).

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٨٥).

قال ابن كثير[(١)]: أي فاعلين لما يأمرون الناس به.

قوله عز وجل: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

قال البغوي[(٢)]: ﴿ولوطاً آتيناه حكماً﴾، يعني: الفصل بين الخصوم بالحق ﴿وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث﴾، يعني: سدوماً وكان أهلها يأتون الذكران في أدبارهم ﴿إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

قال البغوي[(٣)]: ﴿ونوحاً إذا نادى﴾ دعا ﴿من قبل﴾، يعني: من قبل إبراهيم ولوط ﴿فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ قال ابن عباس: من الغرق وتكذيب قومه؛ وقيل: لأنه كان أطول الأنبياء عمراً وأشدّهم بلاء، والكرب أشد الغم ﴿ونصرناه﴾ منعناه ﴿من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ أن يصلوا إليه بسوء. وقال أبو عبيدة: يعني على القوم ﴿إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾.

● ● ●

(١) المصدر السابق (٣/ ١٨٥).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢١٣).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٢١٣).

الدرس الثالث والسبعون بعد المائة

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا

فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

عن مجاهد في قول الله ﴿إذ نفشت فيه غنم القوم﴾ قال: أعطاهم داود رقاب الغنم بالحرث، وحكم سليمان بجزة الغنم وألبانها لأهل الحرث، وعليهم رعايتها على أهل الحرث، ويحرث لهم أهل الغنم حتى يكون لهم الحرث، كهيئة يوم أُكل ثم يدفعونه إلى أهله ويأخذون غنمهم. وقال شريح: كان النفش ليلاً[1].

وقال الحسن: كان الحكم بما قضى به سليمان، ولم يعنّف الله داود في حكمه. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»[2].

وقوله تعالى: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير﴾ قال وهب: كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير. ﴿وكنا فاعلين﴾، أي: ما ذكرهنّ: التفهيم وإيتاء الحكم والتسخير.

وقوله تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾، أي: الدروع قال قتادة: كانت قبل داود صفائح، وكان أول من صنع الحِلَق وسرد داود.

---

(١) والنفش: هو الرعي بالليل.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٧٣٥٢)، ومسلم (ح/ ١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

قوله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

قال قتادة: ورّث الله سليمان داود، فورّثه نبوته وملكه، وزاده على ذلك أن سخّر له الريح والشياطين. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره﴾ قال: عاصفةً شديدةً ﴿تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ قال: الشام. قال البغوي[1]: وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه حيث شاء سليمان، ثم يعود إلى منزله بالشام.

قوله عز وجل: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

قال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد، قال: أحمدك رب الأرباب الذي أحسنت إليّ أعطيتني المال والولد، فلم يبق من قلبي شعبة إلاّ قد دخله ذلك، فأخذتَ ذلك كله مني وفرّغت قلبي، فليس يحول بيني وبينك شيء، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني.

وقال الحسن: قال إبليس: يا رب سلّطني على جسده، فإن أصابه الضر فيه أطاعني وعصاك، قال: تسلّط على جسده، فأتاه فنفخ فيه نفخة فرح من لدن قرنه إلى قدمه، قال: فأصابه البلاء بعد البلاء حتى حُمل فوُضع على مزبلة كناسة لبني إسرائيل، فلم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقْرَبُه غير زوجته، صبرت معه بصدق وكانت تأتيه بطعام، وتحمد الله معه إذا حمد، وأيوب على ذلك لا يفتر عن ذكر الله والتحميد والثناء على الله، والصبر على ما ابتلاه الله؛ قال: ومرّ به

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢١٥).

رجلان، ولا والله ما على ظهر الأرض يومئذ أكرم على الله من أيوب، فقال أحد الرجلين لصاحبه: لو كان لله في هذا حاجة ما بلغ به هذا، فلم يسمع أيوب شيئاً كان أشدّ عليه من هذه الكلمة.

وقال ابن عباس: لما مسّه الشيطان بنُصْبٍ وعذاب، أنساه الله الدعاء أن يدعوه فيكشف ما به من ضرّ، غير أنه كان يذكر الله كثيراً، ولا يزيده البلاء في الله إلاَّ رغبة وحسن إيمان، فلما انتهى الأجل وقضى الله أنه كاشف ما به من ضرّ، أذن له في الدعاء ويسّره له، وكان قبل ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لا ينبغي لعبدي أيوب أن يدعوني ثم لا أستجيب له﴾، فلما دعا استجيب له وأَبْدَلَه بكل شيء ذهب له ضعفين، ردّ إليه أهله ومثلهم معهم، وأثنى عليه فقال: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾[1].

وفي خبر وهب بن منبه[2]: فركض برجله وانفجرت له عين، فدخل فيها فاغتسل، فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء، ثم خرج فجلس وأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه فلم تجده، فقامت كالوالهة متلدّدة، ثم قالت: يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان ههنا؟ قال: لا، ثم تبسّم فعرفته بمضحكه فاعتنقته. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه فقيل له: يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك؟»[3].

وعن مجاهد في قوله ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قال قيل له: إن شئت

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٧٢) بسند ضعيف.

(٢) وذلك عند قوله تعالى: ﴿أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ (سورة ص: الآية ٤٢).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٨٢) وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي وزاد أيضاً على شرط مسلم وعزاه ابن كثير (٣/ ١٨٩) لابن أبي حاتم، والحديث أصله في الصحيحين كما ذكره ذلك ابن كثير رحمه الله.

أحييناهم لك وإن شئت كانوا لك في الآخرة وتعطى مثلهم في الدنيا، فاختار أن يكونوا في الآخرة ومثلهم في الدنيا. وعن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ قال: أيّما مؤمن أصابه بلاء فذكر ما أصاب أيوب فليقل: قد أصاب من هو خير منا، نبياً من الأنبياء.

قوله عز وجل: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿وذا الكفل﴾ قال: رجل صالح غير نبي تكفّل لنبيّ قومه أن يكفيه أمر قومه، ويقيمه لهم ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك فسمّي ذا الكفل.

قوله عز وجل: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

قال وهب بن منبه: إن يونس بن متى كان عبداً صالحاً، وكان في خُلُقه ضيق، فلما حملت عليه أثقال النبوة، ولها أثقال لا يحملها إلاّ قليل، تفسَّخ تحتها تفسُّخ الربع تحت الحمل، فقذفها بين يديه وخرج هارباً منها، يقول الله لنبيه ﷺ ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾[1] ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت﴾[2].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: بعثه الله ــ يعني يونس ــ إلى أهل

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

(٢) سورة القلم: الآية ٤٨.

قريته، فردّوا عليه ما جاءهم به وامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه: إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فاخرج من بين أظهرهم، فأعلم قومه الذي وعده الله من عذابه إياهم فقالوا: ارمقوه فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم، فلما كانت اللية التي وُعدوا بالعذاب في صبحها أدلج، ورآه القوم فخرجوا من القرية إلى بَراز من أرضهم، وفرّقوا بين كل دابة وولدها، ثم عجّوا إلى الله فاستقالوه فأقالهم، وانتظر يونس الخبر عن القرية وأهلها حتى مرّ به مارٌّ فقال: ما فعل أهل القرية؟ قال: فعلوا أن نبيّهم خرج من بين أظهرهم، عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرّقوا بين كل ذات ولد وولدها، وعجّوا إلى الله وتابوا إليه فقبل منهم وأخّر عنهم العذاب، قال: فقال يونس عند ذلك ــ وغضب ــ والله لا أرجع إليهم كذّاباً أبداً، وعدتهم العذاب في يوم ثم رُدّ عنهم، ومضى على وجهه مغاضباً.

وفي رواية: فخرج يونس لينتظر العذاب فلم ير شيئاً، قال: جرَّبوا عليّ كذباً، فذهب مغاضباً لربه حتى أتى البحر.

وعن ابن عباس: ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ يقول: ظن أن لن نقضي عليه عقوبة ولا بلاءً وعقوبته أخذ النون إياه. قال الحسن: وكان له سلف من عبادة وتسبيح، فتداركه الله بها فلم يدعه للشيطان. وعن قتادة ﴿فنادى في الظلمات﴾ قال: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وقال ابن عباس: ﴿نادى في الظلمات أن لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ معترفاً بذنبه من خطيئته. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى، قال فقلت: يا رسول الله هي ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دَعوا بها، ألم تسمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين

واستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾[1] رواه ابن جرير. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»[2].

قوله عز وجل: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ كانت عاقراً فجعلها الله ولوداً. ﴿ووهبنا له﴾ منها ﴿يحيى﴾. وقال عطاء: كان في خُلُقِها شيء فأصلحها الله. وعن ابن جريج أنهم ﴿كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ قال: رغباً في رحمة الله ﴿ورهباً﴾ من عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾، أي: متواضعين. قال قتادة: ذللاً لأمر الله. وقال مجاهد: الخشوع هو الخوف اللازم في القلب. وقوله تعالى: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعاملين﴾ يعني مريم عليها السلام، حفظت فرجها من الحرام، وأمر الله جبريل فنفخ في جيب درعها

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٨٢) بسند ضعيف؛ لكن جاء الحديث بلفظ آخر عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، مرفوعاً: «دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: «لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت لم الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلاّ استجاب الله له»، أخرجه أحمد (١/ ١٧٠) مطولاً، والترمذي (ح/ ٣٥٠٥)، والنسائي في «اليوم والليلة» (ح/ ٦٥٧)، والحاكم (١/ ٥٠٥ و ٢/ ٣٨٢ و ٥٨٣) وصححه، وأقره الذهبي، قلت: وسنده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٦٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فدخلت في فرجها فحملت بعيسى، فكان من أم بلا أب ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿أمتكم أمة واحدة﴾ يقول: دينكم دين واحد. وقوله تعالى: ﴿وتقطّعوا أمرهم بينهم﴾ قال البغوي[1]، أي: اختلفوا في الدين فصاروا فرقاً وأحزاباً ﴿كل إلينا راجعون﴾ فنجزيهم بأعمالهم ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾، أي: لعمله حافظون.

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٢٥).

الدرس الرابع والسبعون بعد المائة

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ قال: لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة.

وعن ابن جريج قوله: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ قال: أمّتان من وراء ردم ذي القرنين. وقال عمرو البكالي: إن الله جزّأ الأنفس عشرة أجزاء: فتسعة منهم يأجوج ومأجوج، وسائر الإِنس جزء. وقال ابن زيد في قوله: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ قال: هذا مبتدأ يوم القيامة ﴿واقترب الوعد الحق﴾ قال: اقترب يوم القيامة منهم ﴿فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم يقولون ﴿يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾.

وعن النواس بن سمعان الكلابـي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات يوم فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في ناحية النخل فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه شاب جعد قطط، عينه طافية، وإنه يخرج خَلّة بين الشام والعراق فعاث يميناً وشمالاً، يا عباد اثبتوا»، قلنا: يا رسول الله ما لُبْثُه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»، قلنا: يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره»، قلنا: يا رسول الله فما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث اشتدّت به الريح، قال: فيمرّ بالحيّ فيدعوهم

فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى وأمدّه خواصر وأسبغه ضروعاً، ويمرّ بالحيّ فيدعوهم فيردّون عليه قوله، فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء، ويمرّ بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل قال: ويأمر برجل فيُقتل فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل إليه، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً يديه على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لدّ الشرقي، قال: فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: إني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطور، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾.

فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلاّ قد ملأه زَهَمُهُمْ ونَتَنُهُمْ، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، قال: ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً، فيغسل به الأرض حتى يتركها كالزلقة، ويقال للأرض: أنبتي ثمرك ورُدّي بركتك. قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة فيستظلّون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيّبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم ــ أو قال: مؤمن ــ ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحُمُر وعليهم تقوم الساعة»[1] رواه مسلم وغيره.

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢١٣٧).

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليحجّن هذا البيت وليعتمرنّ بعد خروج يأجوج ومأجوج»[1]. رواه البخاري وغيره.

وقال كعب الأحبار: فبينما الناس كذلك ــ يعني بعد هلك يأجوج ومأجوج، إذ أتاهم الصريخ أنّ ذا السويقتين يريده، قال: فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحاً يمانيّة طيّبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عجاج الناس فيتسافدون كما تتسافد البهائم، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه متى تضع.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

عن ابن عباس: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ يقول: وقودها. وقال الضحاك: يُرمى بهم فيها. وقال ابن زيد في قوله: ﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون﴾ قال: العابد والمعبود. وقال الحسن البصري: ثم استثنى فقال: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ فقد عُبدت الملائكة من دون الله، وعزير وعيسى من دون الله. وقال ابن إسحاق: جلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة، فجاء النضر بن الحارث

(١) أخرجه البخاري (ح/١٥٩٣).

حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلّم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، وكلّمه رسول الله ﷺ حتى ألجمه ثم تلا عليه وعليهم ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون﴾ إلى قوله: ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾، ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعريّ حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعريّ: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم، أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعريّ: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكل من عُبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم، فعجب الوليد بن المغيرة ومن كان في المجلس من قول عبد الله بن الزبعريّ، ورأوا أنه قاتد خاصم واحتجّ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزبعريّ فقال رسول الله ﷺ: «نعم كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرهم بعبادتهم؟» فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ إلى ﴿خالدون﴾، أي: عيسى ابن مريم وعزير، ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم مَنْ بَعْدَهُمْ من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، فأنزل الله فيما ذكروا أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إنّي إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿يوم نطوي السماء كطيّ السجل للكتب﴾ قال ابن عباس يقول: كطيّ الصحف. وروى البخاري وغيره عن النبي ﷺ: «يقبض الله الأرض

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٩٦ ــ ٩٧)، وبنحوه عن ابن عباس: أخرجه الطبراني (١٢/ ١٥٣)

ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»[1] وقد قال الله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[2].

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿الزبور﴾ قال: الكتاب ﴿من بعد الذكر﴾ قال: أمّ الكتاب عند الله. وقال ابن زيد: الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء، والذكر أمّ الكتاب الذي تكتب فيه الأشياء قبل ذلك ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ قال: الجنة، وقرأ قول الله جلّ ثناؤه ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾ قال: تمّت الرحمة لمن آمن به في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن به عوفي مما أصاب الأمم قبل.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

عن ابن جريج ﴿وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون﴾ قال: الأجل. وعن

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨١٢ و ٦٥١٩)، ومسلم (ح/ ٢٧٨٧).

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٧.

ابن عباس: ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ يقول: لعلّ ما أقرب لكم من العذاب والساعة أن يؤخر عنكم لمدتكم ﴿ومتاع إلى حين﴾ فيصير قولي ذلك لكم فتنة. ﴿قال رب احكم بالحق﴾ قال: لا يحكم بالحق إلاَّ الله، ولكن إنما استعجل بذلك في الدنيا يسأل ربّه على قومه.

وقال ابن كثير[١] **وقوله**: ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾، أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب. وقال البغوي: فإن قيل: كيف قال: ﴿احكم بالحق﴾ والله لا يحكم إلاَّ بالحق؟! قيل: الحق ههنا بمعنى العذاب، لأنه استعجل العذاب لقومه فعُذّبوا يوم بدر، نظيره قوله تعالى: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾[٢].

● ● ●

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٠٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٩.

الدرس الخامس والسبعون بعد المائة

﴿سورة الحج﴾

مكية، وقيل مدنية، وهي ثمان وسبعون آية

قال البغوي[(١)]: سورة الحج مكية، إلاَّ ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ الآيتين، أو إلا ﴿هذان خصمان﴾ الستّ آيات، فمدنيّات.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٖ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٖ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلٗا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٖ شَيْـٔٗاۚ وَتَرَى

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٣٠).

ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

روى ابن جرير وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال أبو هريرة: يا رسول الله وما الصور؟ قال: قرن. قال: فكيف هو؟ قال: قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين؛ يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلاّ من شاء الله، ويأمره فيمدّها ويطوّلها ولا يفتر، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿ما ينظر هؤلاء إلاّ صيحة واحدة ما لها من فواق﴾[1] فتسير الجبال فتكون سراباً، وترجّ الأرض رجّاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة﴾[2] فتكون الأرض كالسفينة الموثقة في البحر تضربها الأمواج تكفأ بأهلها، وكالقنديل المعلّق بالعرش ترجحه الأرواح فتميد الناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقّاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يوم التناد يوم تولّون مدبرين ما لكم

---

(١) سورة ص: الآية ١٥.

(٢) سورة النازعات: الآية ٥.

من الله من عاصم﴾ فبينما هم على ذلك إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خسف شمسها وقمرها وانتثرت نجومها، ثم كُشطت عنهم؛ قال رسول الله ﷺ: والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك ــ قال أبو هريرة ــ : فمن استثنى الله حين يقول: ﴿ففزع من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله﴾[(١)]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، ووقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ »[(٢)]. وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً: يا آدم إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يا رب مَنْ هم؟ فيقال له من كل مائة تسعة وتسعون، فقال رجل من القوم: من هذا الناجي منا بعد هذا يا رسول الله؟ قال: هل تدرون؟ ما أنتم في الناس إلاّ كالشامة في صدر البعير»[(٣)]. رواه أحمد.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيّك ربنا وسعديك، فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف ــ أراه قال ــ تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ فشقّ ذلك على الناس حتى تغيّرت وجوههم، قال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج

(١) سورة النمل: الآية ٨٧.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧/ ١١٠) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٨)، وفي سنده ضعف، لكن يغني عنه الحديث الذي بعده.

تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبّرنا ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبّرنا ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبّرنا»[1].

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

قال مجاهد: ﴿تولّاه﴾ اتّبعه. وعن قتادة ﴿كتب عليه أنه من تولّاه﴾ قال: كتب على الشيطان أنه من اتّبع الشيطان مِنْ خَلْقِ الله.

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

عن قتادة في قول الله ﴿مخلّقة وغير مخلّقة﴾ قال: تامّة وغير تامّة. قال ابن جرير: المخلّقة المصوّرة خلقاً تاماً، وغير المخلّقة أسقط قبل تمام خلقه. وقال

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٣٤٨ و ٤٧٤١)، ومسلم (ح/٢٢٢).

ابن زيد في قوله: ﴿ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ قال: الأجل المسمى إقامته في الرحم حتى يخرج.

وعن ابن جريج في قوله: ﴿وترى الأرض هامدة﴾ قال: لا نبات فيها ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت﴾ قال قتادة: حسنت وعرف الغيث في ربوها ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ قال: حسن. وقال ابن جرير ﴿في كل زوج﴾ من كل نوع. **قال ابن كثير**[1]: ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾، أي: حسن المنظر طيّب الريح **قال البغوي**[2]: فهذا دليل آخر على البعث. ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾، أي: لتعلموا أن الله هو الحق ﴿وأنه يحيـي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾.

قال البغوي[3]: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانيَ عِطْفِهِ﴾ متبختراً لتكبّره، **وقال ابن كثير**[4]: لما ذكر تعالى حال الضلّال الجهّال المقلّدين في قوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾، أي: بلا عقل صحيح ولا نقل صريح، بل بمجرّد الهوى ﴿ثانيَ عِطْفِه ليضل عن سبيل الله له في

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٠٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٣٢).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٣٣).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٨٣).

الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ وقال ابن زيد ﴿ثاني عطفه ليضلّ عن سبيل الله﴾ قال: لاوياً رأسه معرضاً مولّياً لا يريد أن يسمع ما قيل له، وقرأ ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون﴾[١] ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبرا﴾[٢].

• • •

(١) سورة المنافقون: الآية ٥.

(٢) سورة لقمان: الآية ٧.

الدرس السادس والسبعون بعد المائة

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ (١٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

عن مجاهد قوله ﴿على حرف﴾ قال: على شك ﴿فإن أصابه خير﴾ رخاء وعافية استقرّ ﴿وإن أصابته فتنة﴾ عذاب ومصيبة ﴿انقلب﴾ ارتد ﴿على وجهه﴾ كافراً. وقال ابن زيد: هذا المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيّرت انقلب، ولا يقيم على العبادة إلاَّ لما صلح من دنياه، وإذا أصابته شدّة أو فتنة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر.

وقال قتادة: ﴿فإن أصابه خير﴾ يقول: كثر ماله وكثرت ماشيته ﴿اطمأن﴾ وقال: لم يصبني في ديني هذا منذ دخلته إلاَّ خير ﴿وإن أصابته فتنة﴾ يقول: وإن ذهب ماله وذهبت ماشيته ﴿انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة﴾.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ يكفر بعد إيمانه ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾. ﴿يدعو لمن ضره﴾، أي: في الدنيا ﴿أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ قال ابن زيد: العشير هو المعاشر الصاحب. وقال مجاهد: هو الوثن. قال ابن كثير[1]: يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى يعني وليّاً وناصراً ﴿ولبئس العشير﴾ وهو المخالط والمعاشر.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢١٠).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

قال قتادة: من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه ﷺ ﴿فليمدد بسبب﴾ يقول: بحبل إلى سماء البيت ﴿ثم ليقطع﴾ يقول: ثم ليختنق ﴿فلينظر هل يُذهبنّ كيده ما يَغيظ﴾؟

وقال البغوي[1]: ﴿وكذلك﴾، أي: مثل ذلك يعني ما تقدّم من آيات القرآن ﴿أنزلناه﴾ يعني القرآن ﴿آيات بينات وإن الله يهدي من يريد﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم، إنه يحكم بينهم بالعدل فيدخل الجنة من آمن به وأطاعه، ويدخل النار من كفر به وعصاه. قال قتادة: الصابئون قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ﴿والذين أشركوا﴾ يعبدون الأوثان؛ والأديان ستة: خمسة للشيطان، وواحد للرحمن.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٣٥).

وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

هذه الآية كقوله تعالى ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيّئوا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون﴾[1]. وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلاّ يقع ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له. وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت»[2].

وقوله تعالى: ﴿وكثير من الناس﴾ قال مجاهد: المؤمنون ﴿وكثير حقّ عليه العذاب﴾ قال البغوي: وهم الكفار لكفرهم وتركهم السجود، وهم مع كفرهم يسجد ظالمهم لله عز وجل: ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم﴾، أي: من يذلّه الله فلا يكرمه أحد ﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٨.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٣١٩٩ و ٤٨٠٢ و ٤٨٠٣)، ومسلم (١/ ١٣٩).

قال عطاء: نزلت هؤلاء الآيات ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ في الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة وعليّ وعبيدة[١] بن الحارث وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، إلى قوله ﴿وهُدُوا إلى صراط الحميد﴾[٢].

وقال مجاهد: هم الكافرون والمؤمنون اختصموا في ربهم ﴿فالذين كفروا قُطّعت لهم ثياب من نار﴾ قال: الكافر قُطّعت له ثياب من نار، والمؤمن يدخله الله جنّات تجري من تحتها الأنهار. وروى ابن جرير وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الجحيم يصبّ على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصَّهر، ثم يعاد كما كان»[٣]. وروى ابن جرير عن أبي ظبيان قال: النار سوداء مظلمة لا يضيء لهيبها ولا جمرها، ثم قرأ ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ وقد ذكر أنهم يحاولون الخروج من النار حين تجيش جهنم فتلقي من فيها إلى أعلى أبوابها، فيريدون الخروج فتعيدهم الخزان فيها بالمقامع، ويقولون لهم إذا ضربوهم ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾.

ولما ذكر تعالى حال أعدائه في النار، ذكر حال أوليائه في الجنة فقال: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا جنات تجري من تحتها الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾. وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[٤]. وورد في الحديث الآخر: «الذهب والحرير

---

(١) في (الأصل): «وعبيدة»، وهو خطأ.

(٢) وروي مثله عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أخرجه البخاري (ح/٣٩٦٦ و ٣٩٦٨ و ٣٩٦٩)، ومسلم (ح/٣٠٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٤)، والترمذي (ح/٢٥٨٢) وصححه، وابن جرير (١٧/ ١٣٤)، والحاكم (٢/ ٣٨٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٤٢) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

حرام على ذكور أمّتي حلّ لإناثهم»[١].

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وهُدُوا إلى الطيّب من القول﴾ قال: هُدُوا إلى الكلام الطيّب: لا إله إلاَّ الله والله أكبر والحمد لله. قال الله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه وهُدوا إلى صراط الحميد﴾[٢] قال البغوي[٣]: إلى دين الله وهو الإسلام.

● ● ●

(١) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٢٥١)، والطبراني في الكبير (٥/ ٢١١)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ١٧٤) من حديث زيد بن أرقم، وسنده ضعيف، لكن قال العقيلي بعدما ساقه سنداً ومتناً: «ويروي بغير هذا الإسناد بأسانيد صالحة». قلت: وله شاهد من حديث علي رضي الله عنه بنحوه أخرجه أحمد (١/ ٩٦ و ١١٥)، وأبو داود (ح/ ٤٠٥٧)، والنسائي (٨/ ١٦٠ ــ ١٦١)، وابن ماجه (ح/ ٣٥٩٥)، وشاهد من حديث واثلة بن الأسقع ــ رضي الله عنه ــ أخرجه الطبراني (٢٢/ ٩٧)، وبهما يتقوى الحديث.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٣٧).

الدرس السابع والسبعون بعد المائة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ يقول: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وعن مجاهد وعطاء ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ هما في حرمته سواء. وعن مجاهد: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ قال: يعمل فيه عملاً سيئاً ﴿نذقه من عذاب أليم﴾ قال الضحاك: إن الرجل ليهمّ بالخطيئة بمكة وهو في بلد آخر، ولم يعملها فتكتب عليه.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

قال البغوي[١]: قوله تعالى: ﴿وإذا بوّأنا لإبراهيم مكان البيت﴾، أي: وطّأنا. قال ابن عباس: جعلنا، وقيل: بيّنّا.

وعن مجاهد في قوله: ﴿وطهّر بيتي﴾ قال: من الشرك. وعن عطاء في قوله: ﴿وطهّر بيتي للطائفين والقائمين﴾ قال: القائمون في الصلاة. وقال ابن زيد: القائم الراكع والساجد هو المصلّي، والطائف هو الذي يطوف به. قال ابن كثير[٢]: هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به، في البقعة التي أسّست من أوّل يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٣٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢١٥).

قوله عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

قال ابن عباس: «لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له ﴿أذِّن في الناس بالحجّ﴾ قال: يا رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذّن وعليّ البلاغ، فنادى إبراهيم: أيها الناس كُتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فحُجّوا. قال: فسمعه ما بين السماء والأرض، أفلا ترى الناس يجيئون من أقصى الأرض يُلَبّون»[(١)]؟ وفي رواية: «فأسمع مَنّ في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من آمن ممن سبق في علم الله أن يحجّ إلى يوم القيامة: لبيّك اللهمّ لبيّك»[(٢)].

﴿يأتوك رجالاً﴾ قال: على أرجلهم ﴿وعلى كل ضامر﴾ قال: الإبل ﴿يأتين من كلّ فجّ عميق﴾ قال: بعيد ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ قال: هي الأسواق. وقال مجاهد: التجارة، وما يرضي الله من أمر الدنيا والآخرة ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ قال ابن عباس: يعني أيام التشريق ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ قال الضحاك: يعني البُدْنَ ﴿فكلوا منها﴾ قال مجاهد: هي رخصة، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل ﴿وأطعموا البائس الفقير﴾ قال ابن عباس: يعني الزَّمِنَ الفقير.

﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ قال ابن عمر: التفث المناسك كلّها. وقال ابن عباس:

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/ ١٤٤)، والحاكم (٢/ ٣٨٨) ومن طريقه البيهقي في الكبرى (٥/ ٢٧٦) قال الحاكم: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. قلت: وفيه قابوس بن أبي ظبيان. وفيه ضعف.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧/ ١٤٤) بسند ضعيف.

التفث حلق الرأس وأخذ من الشاربين، ونتف الإبط وحلق العانة، وقص الأظفار والأخذ من العارضين، ورمي الجمار والموقف بعرفة والمزدلفة ﴿وليوفوا نذورهم﴾ قال: نحو ما نذروا من البُدْنِ. وقال مجاهد: نذر الحجّ والهدي، وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحجّ ﴿وليطّوّفوا بالبيت العتيق﴾ قال قتادة: عتق من الجبابرة. وقال ابن زيد: العتيق القديم. وعن عطاء في قوله: ﴿وليطّوّفوا بالبيت العتيق﴾ قال: طواف يوم النحر.

قوله عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿ذلك ومن يعظّم حرمات الله﴾ قال: الحرمة مكّة والحجّ والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلّها.

وقوله تعالى: ﴿وأحلّت لكم الأنعام إلاّ ما يُتلى عليكم﴾ قال قتادة: إلاّ الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ قال ابن عباس: يقول تعالى ذكره: واجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان. وعن مجاهد قوله: ﴿قول الزور﴾ قال: الكذب. وعن ابن عباس قوله: ﴿واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾، يعني: الافتراء على الله والتكذيب. وعن ابن مسعود قال: تعدل شهادة الزور بالشرك، وقرأ ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾[1]. وعن قتادة: ﴿فكأنّما خرّ من

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/١٥٤)، والطبراني (٩/١١٤) بسند حسن، وروي مرفوعاً من حديث خريم بن فاتك الأسدي: أخرجه أحمد (٤/٣٢١ و ٣٢٢)، وأبو داود (ح/٣٥٩٩)، =

السماء﴾ قال: هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بُعده من الهدى وهلاكه ﴿فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ قال مجاهد: بعيد.

قوله عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

قال محمد بن أبي موسى: الوقوف بعرفة من شعائر الله، والجمع من شعائر الله، ورمي الجمار من شعائر الله والبُدن من شعائر الله، ومن يعظّمها فإنها من شعائر الله.

في قوله: ﴿ومن يعظّم شعائر الله﴾ فمن يعظّمها ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ قال: استعظامها واستحسانها واستمساكها ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ قال: ما لم يُسَمَّ بُدْناً. وعن عطاء ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ قال: هو ركوب البُدن وشرب لبنها إن احتاج ﴿ثم مَحِلُّها إلى البيت العتيق﴾ إلى مكة. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: «اركبها، قال: إنها بدنة، قال: اركبها ويحك، في الثانية أو في الثالثة»[1]. وفي حديث آخر عند مسلم «قال: اركبها بالمعروف إذا أُلجِئْتَ إليها»[2].

قوله عز وجل: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾

= وابن ماجه (ح/ ٢٣٧٢)، والطبراني (٤/ ٢٠٩) بسند ضعيف، وأيضاً روي مرفوعاً من حديث أيمن بن خريم: أخرجه أحمد (٤/ ١٧٨)، والترمذي (ح/ ٢٢٩٩) وابن جرير (١٧/ ١٥٤)، بسند ضعيف.

(١) أخرجه البخاري (ح/ ١٦٨٩ ١٧٠٦)، ومسلم (ح/ ٣٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ١٣٢٤) من حديث جابر عبد الله رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

عن مجاهد ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ قال: إهراق الدماء ﴿ليذكروا اسم الله﴾ عليها ﴿فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشّر المخبتين﴾ المطمئنّين إلى الله.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قال: لا تقسوا قلوبهم ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ من شدّة في أمر الله ونالهم من مكروه في جنبه ﴿والمقيمي الصلاة﴾ المفروضة ﴿ومما رزقناهم﴾ من الأموال ﴿ينفقون﴾ في الواجب عليهم إنفاقها فيه، في زكاة ونفقة عيال، ومن وجبت عليه نفقته، وفي سبيل الله.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال عطاء: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ قال: البقرة والبعير. وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل، ويشهد له قوله ﷺ: «من اغتسل يوم الجمعة ثم راح في الساعة الأولى، فكأنّما قرّب بدنة ومن راح في الساعة الثانية، فكأنّما قرّب بقرة»[1] الحديث.

وعن مجاهد في قول الله ﴿لكم فيها خير﴾ قال: أجر ومنافع في البُدن. وعن ابن عباس في قوله: ﴿فاذكروا اسم الله عليها صوافّ﴾ قال: الله أكبر الله أكبر، اللهم منك ولك قيامها على ثلاث أرجل، فقيل لابن عباس: ما نصنع بجلودها؟

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٨٨١)، ومسلم (ح/ ٨٥٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: تصدّقوا بها واستمتعوا بها. وعن مجاهد ﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ سقطت إلى الأرض ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ﴾ قال ابن عباس يقول: يأكل منها ويطعِم. وقال الحسن: القانع الذي يقنع إليك ويسألك، والمعترّ الذي يتعرّض لك ولا يسألك. وقال زيد بن أسلم: القانع المسكين الذي يطوف، والمعترّ الصديق والضعيف الذي يزور. وقال ابنه: القانع المسكين الذي يعترّ للقوم للحمهم وليس بمسكين، ولا تكون له ذبيحة، يجيء إلى القوم من أجل لحمهم، والبائس الفقير: هو القانع. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إني كنت نهيتكم عن ادّخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادّخروا ما بدا لكم». وفي رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدّقوا»[1].

وعن إبراهيم في قول الله: ﴿لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ قال: ما أُريدَ به وجهُ الله. قال البغوي[2]: وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطّخوا الكعبة بدمائها قربةً إلى الله فأنزل الله هذه الآية ﴿لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخّرها لكم لتكبّروا الله على ما هداكم﴾ أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجّه ﴿وبشّر المحسنين﴾.

● ● ●

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧٦)، وأبو داود (ح/ ٢٨١٣) من حديث نبيشة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح وبنحوه من حديث عبد الله بن واقد رضي الله عنه أخرجه مسلم (ح/ ١٩٧١)، وبنحوه ـ أيضاً ـ من حديث جابر رضي الله عنه أخرجه ومسلم (ح/ ١٩٧٢)، وبنحوه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجه مسلم (ح/ ١٩٧٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٤٤).

الدرس الثامن والسبعون بعد المائة

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ
فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾
لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ
يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾
۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ
وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ
ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ».

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾.

قال ابن عباس: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيّهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكنّ، قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. رواه ابن جرير وغيره؛ زاد أحمد: قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال»[1].

وروى ابن جريج أيضاً عن ابن عباس قوله: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾، يعني: محمداً وأصحابه إذ أخرجوا من مكة إلى المدينة، يقول الله: ﴿فإن الله على نصرهم لقدير﴾ وقد فعل.

وعن ابن جريج قوله: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ دفع المشركين بالمسلمين. وقال ابن زيد: لولا القتال والجهاد لهدّمت صوامع قال مجاهد:

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٦/١)، والترمذي (ح/٣١٧١) وحسنه، وابن جرير (١٧٢/١٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٦٦/٢ و ٢٤٦ و ٣٩٠) و (٧/٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٢٩٤/٢)، وهو صحيح.

صوامع الرهبان ﴿وبِيَعٌ﴾ قال: وكنائس. وقال الضحاك: البِيَعُ بِيَعُ النصارى. وعن قتادة ﴿وصلوات﴾ كنائس اليهود ﴿ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ قال: المساجد مساجد المسلمين ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾.

قال البغوي(١): ومعنى الآية ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدّم في شريعة كل نبـيّ مكان صلاتهم، لهدّم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى البِيَع والصوامع وفي زمن محمد ﷺ المساجد. ﴿ولينصرنّ الله من ينصره﴾، يعني: ينصر دينه ونبيّه ﴿إن الله لقويّ عزيز﴾.

وعن أبـي العالية في قوله: ﴿الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ قال: كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده لا شريك له، ونهيهم عن المنكر أنهم نهوا عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان. وقال زيد بن أسلم ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا. وقال عمر بن عبد العزيز: ألا أنبّئكم بما لكم على الوالي، وبما للوالي عليكم؟ إن لكم على الوالي أن يأخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم الطاعة غير المبزوزة ولا المستكثر بها ولا المخالف سرّها علانيتها.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٤٤).

قال البغوي[(١)]: ﴿فكيف كان نكير﴾، يعني: إنكاري، أي: كيف أنكرت عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك، يخوّف به من يخالف النبي ﷺ ويكذّبه.

وقوله تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها﴾ قال الضحاك: خواؤها خرابها و ﴿عروشها﴾ سقوفها ﴿وبئر معطّلة﴾ قال: لا أهل لها. وقال قتادة: عطّلها أهلها، تركوها. وعن عكرمة في قوله: ﴿وقصر مَشيد﴾ قال: مجصّص. وقال قتادة: كان أهله سدّوه وحصّنوه فهلكوا وتركوه.

وقوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾ فيعتبرون ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ قال قتادة: البصر الظاهر بُلْغَةٌ ومُتْعَةٌ، وبصر القلب هو البصر النافع، وما أحسن ما قاله بعض الشعراء:

يا من يُصيخ إلى داعي الشقاء وقد ... نادى به الناعيان: الشَيْبُ والكِبَرُ
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ترى ... في رأسك الواعيان: السمع والبصرُ
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل ... لم يَهْدِهِ الهاديان: العين والأثرُ
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفَلَكُ ... الأعلى ولا النيِّرَانِ: الشمس والقمرُ
ليرحلنّ عن الدنيا وإن كَرِهَا ... فراقها الثاويان: البدو والحضرُ

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

قال ابن عباس: مقدار الحساب يوم القيامة ألف سنة. وعن أبي هريرة أن

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٤٥).

رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام»[(١)]. رواه ابن أبي حاتم وغيره.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾.

قال ابن جريج قوله: ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم﴾ قال: الجنة. وعن ابن عباس ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ قال: مشاقين. وقال مجاهد: يثبّطون الناس عن متابعة النبي ﷺ. وقال قتادة: كذّبوا بآيات الله فظنّوا أنهم يعجزون الله، ولن يعجزوه ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾.

عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس قالا: جلس رسول الله ﷺ في نادٍ من أندية قريش كثير أهله، تمنّى يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥١٣ و ٥١٩)، والترمذي (ح/ ٢٣٥٣ و ٢٣٥٤)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤١٢)، وابن ماجه (ح/ ٤١٢٢)، وابن جرير (١٧/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم ــ كما عزاه له ابن كثير في تفسيره ــ (٣/ ٢٢٨)، وهو حديث صحيح وفي الباب عن أبي سعيد، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم.

فأنزل الله عليه ﴿والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى﴾ فقرأها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى عليها الشيطان كلمتين: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى؛ فتكلّم بها ثم مضى فقرأ السورة كلّها، فسجد في آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه، ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه، وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود، فرضوا بما تكلَّم به وقالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت، وهو الذي يخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك، قالا: فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين اللتين ألقى الشيطان عليه قال: ما جئتك بهاتين، فقال رسول الله ﷺ: «أَفْتَرَيْتُ على الله وقلتُ على الله ما لم يَقُلْ»؟ فأوحى الله إليه ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره﴾ إلى قوله: ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ قال: فسمع من كان من المهاجرين بأرض الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، فرجعوا إلى عشائرهم وقالوا: هم أحبّ إلينا، فوجدوا القوم قد ارتكسوا حين نسخ الله ما ألقى الشيطان»[1] رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/١٨٦ ــ ١٨٧) مرسل، وروي بنحوه مرسلاً عن الضحاك، وسعيد بن جبير، وعبد الرحمن بن الحارث، وأبـي العالية، وقتادة، وعكرمة، وهذه القصة هي قصة الغرانيق، وقد ألف بعض المتأخرين كتاباً في تضعيف هذه القصة واسماه: «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق»، والقصة ضعفها كثير من المشتغلين بالعلم كابن العربـي، وعياض، والرازي، والقرطبـي، والعيني والشوكاني، والألوسي، وصديق حسن خان، والألباني، فالقصة غير ثابتة بسند صحيح مرفوعاً.

بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

عن سعيد بن جبير ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ من قوله: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن ترتجى. وعن ابن جريج ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ قال: من القرآن ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ قال مجاهد: يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿الملك يومئذ﴾ قال البغوي[1]: يعني يوم القيامة ﴿لله﴾ من غير منازع ﴿يحكم بينهم﴾، ثم بيّن الحكم فقال تعالى: ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

عن ابن جريج ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾ قال: هم المشركون بغوا على رسول الله ﷺ، فوعده الله أن ينصره، وقال: في القصاص أيضاً. قال

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/٢٤٨).

البغوي[١]: والعقاب الأوّل بمعنى الجزاء. ﴿إن الله لعفوّ غفور﴾ عفا عن مساوىء المؤمنين وغفر لهم ذنوبهم.

﴿ذلك﴾، يعني: ذلك النصر ﴿بأن الله﴾ القادر على ما يشاء، فمن قدرته أنه ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي﴾ العالي على كل شيء ﴿الكبير﴾ العظيم الذي كل شيء دونه. **قال ابن كثير**[٢]: فكلّ شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلاَّ هو ولا ربّ سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العليّ الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدّس وتنزّه عزّ وجلّ عما يقول الظالمون المعتدون علوّاً كبيراً.

• • •

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٤٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٣٢).

الدرس التاسع والسبعون بعد المائة

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ

عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا
جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ
وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

في هذه الآيات الدالة الواضحة على قدرته وعظيم سلطانه، وإنه لا يستحق العبادة سواه، قال ابن كثير[1]: وقوله ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور﴾، كقوله ﴿وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾[2] ومعنى الكلام: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقلّ بالخلق والرزق والتصرّف؟

قوله عز وجل: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ولكل أمة جعلنا مَنْسَكاً هم ناسكوه﴾ يقول: عيداً. وقال مجاهد: إهراق دم الهدي. وقال البغوي[3]: ﴿فلا ينازِعنّك في الأمر﴾ يعني

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٣٣).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٥٠).

في أمر الذبائح؛ نزلت في بديل بن ورقاء، وبشر بن سفيان[١]، ويزيد بن خنيس، قالوا لأصحاب النبي ﷺ: ما لكم تأكلون مما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون مما قتله الله؟

وقال ابن كثير[٢]: وقوله ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾، كقوله ﴿وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

قال عبدة بن أبي لبابة: علم الله ما هو خالق وما الخلق عاملون، ثم كتبه.

قوله عز وجل: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله ﴿يكادون يسطون﴾ يقول: يبطشون.

وقوله تعالى: ﴿قل أفأنبئكم بشرّ من ذلكم النار﴾ قال البغوي[٣]: يعني بشرّ لكم، وأكره إليكم من هذا القرآن الذي تسمعون؟ النار، يعني هي ﴿النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾. وقال ابن كثير، أي: النار وعذابها ونكالها، أشدّ

(١) في (الأصل): «بشير بن سفيان»، والمثبت من تفسير البغوي.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٣٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٥٠).

وأشقى وأطمّ وأعظم مما تخوّفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـًٔا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾.

قال ابن زيد: هذا مثل ضربه الله لآلهتهم وقرأ ﴿ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره﴾ حين يعبدون من دون الله ما لا ينتصف من الذباب ولا يمتنع منه. وقال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب، وقال: كانوا يطلون الأصنام بالزعفران، فإذا جفّ جاء الذباب فاستلب منه.

قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: ﴿الله يصطفي﴾ يعني يختار ﴿من الملائكة رسلاً﴾ وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم ﴿ومن الناس﴾ يعني يختار من الناس رسلاً، مثل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، نزلت حين قال المشركون: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾؟ فأخبر أن الاختيار إليه يختار من يشاء من خلقه.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٥١).

قال البغوي[١]: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعو واسجدوا﴾ يعني صلّوا لأن الصلاة لا تكون إلاَّ بالركوع والسجود ﴿واعبدوا ربكم﴾، أي: وحّدوه ﴿وافعلوا الخير﴾ قال ابن عباس: صلة الرحم ومكارم الأخلاق ﴿لعلكم تفلحون﴾ لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة. وروى أبو داود عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال: «فضّلت سورة الحجّ على سائر القرآن بسجدتين»[٢]. وعن أبي الجهم أن عمر سجد سجدتين في الحجّ وهو بالجابية وقال: «إن هذه فضّلت بسجدتين».

قوله عز وجل: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾.

قال ابن عباس في قوله: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ لا تخافوا في الله لومة لائم. وقال ابن زيد في قوله: ﴿هو اجتباكم﴾ قال: هداكم. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ قال: الحرج الضيق، فجعل الله الكفّارات مخرجاً من ذلك. وقال مقاتل: يعني الرخص عند الضرورات: كقصر

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٥٢).

(٢) غاب عن المؤلف ـ رحمه الله ـ كون الحديث ورد مرفوعاً من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٤/ ١٥١ و١٥٥)، وأبو داود (ح/ ١٤٠٢)، والترمذي (ح/ ٥٧٨)، والطبراني (١٧/ ٣٠٧)، والدارقطني (١/ ٤٠٨)، والحاكم (١/ ٢٢١ و٢/ ٣٩٠)، وصححه، قلت: وفيه ابن لهيعة ومشرح وكلاهما ضعيف؛ لكن للحديث شاهد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وأثار عن بعض الصحابة كعمر، وعبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وأبي موسى، وأبي الدرداء، وعمار أخرجها الحاكم، وبها يتقوى الحديث، وأقل أحواله أنه حسن إن شاء الله تعالى.

الصلاة في السفر، والتيمم عند فقد الماء، وأكل الميتة عند الضرورة، والإفطار بالسفر والمرض، والصلاة قاعداً عند العجز عن القيام؛ وقال ﷺ: «بعثت بالحنيفيّة السمحة»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ملّة أبيكم إبراهيم﴾، أي: اتّبعوا ملّة أبيكم إبراهيم، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾ قال مجاهد: الله سمّاكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدّمة ﴿وفي هذا﴾ يعني القرآن. وعن قتادة ﴿هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾ قال: الله سمّاكم المسلمين من قبل. ﴿وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾ بأنه بلّغكم ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ أن رسلهم قد بلّغتهم ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله﴾، أي: استعينوا به وتوكّلوا عليه ﴿هو مولاكم﴾ يحفظكم وينصركم ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾. قال وهيب بن الورد: ويقول الله تعالى «ابن آدم اذكرني إذا غضبتَ أذكرك إذا غضبتُ، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظُلِمْتَ فاصبر وارض بنصرتي فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك»[(٣)] رواه ابن أبي حاتم. والله أعلم وهو المستعان.

• • •

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٦٦)، والطبراني (٨/٢٥٧)، من حديث أبي أمامة بسند ضعيف. وروي أيضاً من حديث جابر رضي الله عنه أخرجه الخطيب في تاريخه (٧/٢٠٩) بسند ضعيف أيضاً.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٣/٢٣٧).

الدرس الثمانون بعد المائة

﴿سورة المؤمنون﴾

وهي مائة وثمان عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قد أفلح المؤمنون ﴿١﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴿٢﴾ والذين هم عن اللغو معرضون ﴿٣﴾ والذين هم للزكاة فاعلون ﴿٤﴾ والذين هم لفروجهم حافظون ﴿٥﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴿٦﴾ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴿٧﴾ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴿٨﴾ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴿٩﴾ أولئك هم الوارثون ﴿١٠﴾ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿١١﴾ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴿١٢﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴿١٣﴾ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿١٤﴾ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴿١٥﴾ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴿١٦﴾ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴿١٧﴾ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ﴿١٨﴾ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴿١٩﴾ وشجرة

تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾.

سئلت عائشة رضي الله عنها: كيف كان خُلُقُ رسول الله ﷺ؟ قالت: «كان خُلُقُ رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى انتهت إلى ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قالت: هكذا كان خُلُقُ رسول الله ﷺ»[(١)]. رواه النسائي. وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً قال: «خلق الله الجنة لبنةً من ذهب ولبنة من فضّة وغرسها، وقال لها: تكلّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك منزل الملوك»[(٢)].

وعن الحسن في قوله: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضّوا بذلك البصر، وخفضوا به الجَنَاح. وعن ابن عباس قوله: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ يقول: الباطل.

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (ح/٣٠٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٤١٢)، والحاكم (٢/٣٩٢)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٣٠٩) وهو حديث حسن، وأوله: «كان خلقه القرآن» عند مسلم (ح/٧٤٦) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البزار كما في «كشف الأستار» (ح/٣٥٠٧)، ومجمع الزوائد (١٠/٣٩٧)، ومختصر زوائد البزار (ح/٢٢٥٤)، والطبراني في الأوسط كما في «مجمع البحرين» (٨/١٤٦)، ومجمع الزوائد (١٠/٣٩٧)، بسند ضعيف جداً.

وقوله تعالى: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ قال البغوي: أي للزكاة الواجبة مؤدّون. وعن ابن عباس قوله: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلاَّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ يقول: رضي الله لهم إتيانهم أزواجهم وما ملكت أيمانهم ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ قال ابن زيد: الذين يتعدّون الحلال إلى الحرام.

وقوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ حافظون. قال البغوي[1]: أي يحفظون ما أؤتمنوا عليه، والعقود التي عاقدوا الناس عليها، يقومون بالوفاء بها؛ والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العباد، كالصلاة والصيام والعبادات التي أوجبها الله عليه، وتكون من العبيد كالودائع والصنائع، فعلى العبد الوفاء بجميعها. وعن مسروق ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قال: على ميقاتها. وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلاَّ مؤمن»[2]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاَّ وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أولئك هم الوارثون﴾»[3] رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ قال قتادة: قتل

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧ و ٢٨٢)، وابن ماجه (ح/ ٢٧٧)، والدارمي (١/ ١٣٣)، والطبراني (٢/ ١٠١)، وابن حبان ــ الإحسان ــ (٢/ ١٨٧)، والحاكم (١/ ١٣٠)، وصححه، ووافقه الذهبي من حديث ثوبان رضي الله عنه، وللحديث شاهد من حديث عبد الله بن عمرو، وأبي أمامة وسلمة بن الأكوع، رضي الله عنهم، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن ماجه (ح/ ٤٣٤١) وابن جرير (١٨/ ٦) بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حارثة بن سراقة يوم بدر فقالت أمه: يا رسول الله إن كان ابني من أهل الجنة لم أبك عليه، وإن كان من أهل النار بالغت في البكاء، قال: «يا أم حارثة إنها جنات في عدن، وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى من الجنة»[1].

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿من سلالة من طين﴾ قال: استُلّ آدم من طين، وخُلقت ذريته من ماء مهين؛ وقال النبي ﷺ: «إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يرسَل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقيّ أو سعيد»[2]. الحديث متفق عليه.

وعن أبي العالية: ﴿ثم أنشاناه خلقاً آخر﴾ قال: نفخ الروح فيها ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ قال مجاهد: يصنعون ويصنع الله، والله خير الصانعين. وعن ابن عباس: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني ننقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شابّاً، ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرماً.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/١٨) مرسلاً، وروي بنحوه مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه: أخرجه البخاري (ح/ ٢٨٠٩ و ٣٩٨٢ و ٦٥٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٣٣٣٢)، ومسلم (ح/ ٢٦٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن زيد في قول الله: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ قال: الطرائق السموات. وقد قال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلاَّ هو رابعهم ولا خمسة إلاَّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاَّ هو معهم أينما كانوا ثم ينبّئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾[١].

وقال تعالى: ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وما من دابّة في الأرض إلاَّ على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ في كتاب مبين﴾[٣].

قوله عز وجل: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿من طور سَيْنَاء﴾ قال: الجبل الذي نودي منه موسى ﷺ ﴿تنبت بالدهن﴾ يقول: هو الزيت يؤكل ويدّهن به. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وصبغ للآكلين﴾ قال: هذا الزيتون صبغ للآكلين يأتدمون به ويصطبغون به. **قال ابن كثير**[٤]: وطور سَيْنَاء هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلّم الله عليه

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٧.

(٢) سورة سبأ: الآية ٢.

(٣) سورة هود: الآية ٦، قلت: وفي هذه الآيات إثبات معية الله لخلقه بالعلم والإحاطة، كما فسرها بذلك السلف والخلف من أهل السنة، وسيأتي بيانها عند تفسير هذه الآيات في مواضعها إن شاء الله تعالى.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٤٣).

موسى بن عمران عليه السلام، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قال ابن كثير[١]: يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من لُحْمَانِها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويُحَمِّلونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم؛ كما قال تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاَّ بِشِقِّ الأنفُس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾[٢].

• • •

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٤٣).

(٢) سورة النحل: الآية ٧.

الدرس الحادي والثمانون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده ﴿ما لكم من إله غيره﴾ معبود سواه ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره؟

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلاَّ بشر مثلكم يريد أن يتفضّل عليكم﴾، يعني: يتشرّف بأن يكون له الفضل عليكم فيصير متبوعاً وأنتم له تبع ﴿ولو شاء الله﴾ أن لا يُعبد سواه ﴿لأنزل ملائكة﴾، يعني: بإبلاغ الوحي ﴿ما سمعنا بهذا﴾ الذي يدعونا إليه نوحُ ﴿في آبائنا الأوّلين﴾ وقيل ﴿ما سمعنا بهذا﴾، أي: بإرسال بشر رسولاً ﴿إن هو إلاَّ رجل به جِنّة﴾، يعني: جنون ﴿فتربّصوا به حتى حين﴾، يعني: إلى أن يموت فتستريحوا منه.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٥٩).

ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿منزلاً مباركاً﴾ قال لنوح حين نزل من السفينة.

قال ابن كثير[1]: وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات﴾، أي: أن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ﴿لآيات﴾، أي: لحجج ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، قادر على كل شيء، عليم بكل شيء. وقوله: ﴿وإن كنا لمبتلين﴾، أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿هيهات هيهات﴾ يقول: بعيد بعيد.

قال ابن جرير[2]: وهذا خبر من الله جلّ ثناؤه عن قول الملأ من ثمود أنهم قالوا: ﴿هيهات هيهات﴾، أي: بعيد ﴿ما توعدون﴾ أيها القوم من أنكم بعد موتكم ومصيركم تراباً وعظاماً مخرَجون أحياء من قبوركم، يقولون: ذلك غير كائن.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٤٤).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٨/ ٢٠).

وقال ابن زيد في قوله: ﴿إن هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ قال يقول: ليس آخرة ولا بعث، يكفرون بالبعث يقولون: إنما هي حياتنا هذه ثم نموت ولا نحيا، يموت هؤلاء ويحيا هؤلاء، يقولون: إنما الناس كالزرع يُحصد هذا وينبت هذا، يقولون: يموت هؤلاء ويأتي آخرون ﴿وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبّئكم إذا مُزِّقْتُم كلَّ مُمَزَّقٍ إنكم لفي خلق جديد﴾[1]، ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربـي لتبعثُنّ ثم لتنبؤُنّ بما عملتم وذلك على الله يسير﴾[2].

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

قال ابن عباس يقول: جُعِلوا كالشيء الميت البالي من الشجر. وقال مجاهد: غثاء كالرميم الهامد الذي يحتمل السيل، أولئك ثمود.

قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تَتْرَا﴾ يقول: يتبع بعضها بعضاً.

وقوله تعالى: ﴿كلّما جاء أمة رسولها كذّبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾، أي: أهلكناهم ﴿وجعلناهم أحاديث﴾، أي: قصصاً يتحدّث بهم من بعدهم ﴿فبعداً لقوم لا يؤمنون﴾، أي: فأبعد الله قوماً لا يؤمنون بالله ولا يصدّقون رسله.

● ● ●

---

(١) سورة سبأ: الآية ٧.

(٢) سورة التغابن: الآية ٧.

الدرس الثاني والثمانون بعد المائة

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ

جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

قال البغوي[1]: ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾ يعني بحجّة بيّنة من اليد والعصا وغيرهما ﴿إلى فرعون وملئه فاستكبروا﴾ تعظّموا عن الإيمان ﴿وكانوا قوماً عالين﴾ متكبّرين قاهرين غيرهم بالظلم.

﴿فقالوا﴾ يعني فرعون وقومه ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ يعني موسى وهارون ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ مطيعون متذلّلون ﴿فكذّبوهما فكانوا من المهلَكين﴾ بالغرق. وقال ابن زيد: قال فرعون ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ نذهب نرفعهم فوقنا ونكون تحتهم، ونحن اليوم فوقهم وهم تحتنا، كيف نصنع ذلك؟ وذلك حين أتوهم بالرسالة، وقرأ ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾ قال: العلوّ في الأرض.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

عن قتادة في قوله ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ قال: ولدته من غير أب هو له، ولذلك وجدت الآية، وقد ذكر مريم وابنها. وقوله تعالى: ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومَعين﴾ قال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع، وهو أحسن ما يكون فيه النبات.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

وقوله: ﴿ذات قرار﴾ يقول: ذات خصب ﴿ومَعين﴾ يعني ماء ظاهراً. وقال الضحاك وقتادة ﴿إلى ربوة ذات قرار ومَعين﴾ هو بيت المقدس.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

قال الضحاك: ﴿كلوا من الطيبات﴾ يعني الحلال. وعن ابن جريج ﴿وأن هذه أمّتكم أمة واحدة﴾ قال: الملّة والدين.

قوله عز وجل: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

عن مجاهد ﴿فتقطّعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ قال: كتبهم فرّقوها قطعاً. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فتقطّعوا أمرهم بينهم زبراً كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾ قال: هذا ما اختلفوا فيه من الأديان والكتب، كلٌّ معجبون برأيهم، ليس أهل هوى إلاّ وهم معجبون برأيهم وهواهم، وصاحبهم الذي اخترق ذلك لهم. وعن مجاهد ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾ قال: في ضلالهم.

وقوله تعالى: ﴿حتى حين﴾ قال البغوي[1]: إلى أن يموتوا. ﴿أيحسبون أنما نمدّهم به من مال وبنين﴾ ما نعطيهم ونجعله مدداً لهم من المال والبنين في الدنيا ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾، أي: نعجّل لهم في الخيرات ونقدّمها ثواباً لأعمالهم لمرضاتنا عنهم ﴿بل لا يشعرون﴾ أن ذلك استدراج لهم.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٢).

وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

عن الحسن أنه كان يقول: إن المؤمن جَمَعَ إحساناً وشفقة، وإن المنافق جَمَعَ إساءة وأمناً، ثم تلا ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ إلى ﴿وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾. وعن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «لا يا ابنة أبي بكر، ولكن الرجل يصوم ويصلّي ويتصدّق ويخاف أن لا يُقبل منه»[١]. رواه ابن جرير وغيره.

وقوله تعالى: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾، أي: يبادرون إلى الأعمال الصالحات ﴿وهم لها﴾، أي: إليها ﴿سابقون﴾ قال ابن عباس: سبقت لهم من الله السعادة.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قال ابن كثير[٢]: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ يعني كتاب الأعمال ﴿وهم لا يُظلمون بل قلوبهم في غمرة من هذا﴾ قال مجاهد: في عمى من هذا القرآن ﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ قال: الخطايا.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩ و ٢٠٥)، والترمذي (ح/ ٣١٧٥)، وابن ماجه (ح/ ٤١٩٨)، وابن جرير (١٨/ ٣٣)، والحاكم (٢/ ٣٩٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، جميعهم عن عبد الرحمن بن سعيد الهمداني عن عائشة رضي الله عنها قلت: وفيه انقطاع فعبد الرحمن لم يدرك عائشة رضي الله عنها، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه ابن جرير (١٨/ ٣٣)، وفي سنده ضعف، وعزاه السيوطي في «الدر» (٥/ ٢١) إلى ابن أبي الدنيا، وابن الأنباري، وابن مردويه.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٤٩).

قوله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

قال ابن زيد: المترفون العظماء. ﴿إذا هم يجأرون﴾ يقول: فإذا أخذناهم بالعذاب جأروا، يقول ضجّوا واستغاثوا مما حلّ بهم من عذابنا ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ قال الربيع: لا تجزعوا الآن حين حلّ بكم العذاب إنه لا ينفعكم، فلو كان هذا الجزع قَبْل نَفَعَكُمْ.

﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ قال ابن عباس يقول: تُدْبِرون ﴿مستكبرين به﴾ يقول: مستكبرين بحرم البيت أنه لا يظهر علينا فيه أحد ﴿سامراً﴾ يقول: يسمرون حول البيت ﴿تهجرون﴾ قال: يهجرون ذكر الله والحق. وقال ابن زيد: كانوا يسمرون ليلهم ويلعبون، ويتكلّمون بالشعر والكهانة وبما لا يدرون. وعن مجاهد ﴿تهجرون﴾ قال: بالقول السيِّىء في القرآن.

قوله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: ﴿أفلم يدّبـروا﴾ يعني يتدّبـروا ﴿القـول﴾ يعني ما جاءهم من القول وهو القرآن، فيعرفوا ما فيه من الدلالات على صدق محمد ﷺ ﴿أم جـاءهم ما لم يـأت آباءهم الأوليـن﴾؟ فأنكروا، يريـد: أنا قـد بعثنا من قبلهم رسـلاً إلـى قومهـم، كذلـك بعثنـا محمـداً إليهـم؛ وقيـل: «أم» بمعنـى «بـل»

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٤).

يعني: بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، فلذلك أنكروا.

﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ محمداً ﷺ ﴿فهم له منكرون﴾ قال ابن عباس: أليس قد عرفوا محمداً ﷺ صغيراً وكبيراً، وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود؟ وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه، بعدما عرفوه بالصدق والأمانة.

﴿أم يقولون به جِنّة﴾؟ جنون، وليس كذلك ﴿بل جاءهم بالحق﴾ يعني بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ﴾ قال مجاهد وغيره: الحق هو الله. **قال ابن كثير**[1]: والمراد، لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ﴾، أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم ﴿لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ ثم قال ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾[2] وقال تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ قال ابن عباس، أي: بما فيه فخرهم وشرفهم يعني القرآن ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾.

وقوله تعالى: ﴿أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين﴾ كقوله تعالى: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلاّ على الله﴾[4].

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٥٠).

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣١.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٠٠.

(٤) سورة سبأ: الآية ٤٧.

وقوله تعالى: ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مَغْرَم مثقلون﴾. قال البغوي[١]: ﴿أم تسألهم﴾ على ما جئتَهم به ﴿خرجاً﴾ أجراً وجُعْلاً ﴿فخَرَاج ربك خير﴾ يعني ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير ﴿وهو خير الرازقين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ يقول: عن الحق عادلون. وعن ابن جريج في قوله ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرّ﴾ قال: الجوع. ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ قال: الجوع والجدب ﴿فما استكانوا لربّهم وما يتضرّعون﴾ قال الحسن: إذا أصاب الناس من قِبَلِ الشيطان بلاء، فإنما هي نقمة فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية، ولكن استقبلوها بالاستغفار وتضرّعوا إلى الله.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾ قال ابن كثير[٢]: أي، حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أُبْلِسُوا من كل خير، وأيسوا من كل رحمة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

● ● ●

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٥٢).

الدرس الثالث والثمانون بعد المائة

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ
وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا
وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ
ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ
تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا
كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ
ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل
رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا
عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا
يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن
يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا
فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا

نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قال البغوي[1]: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع﴾، أي: أنشأ لكم الأسماع ﴿والأبصار والأفئدة﴾: لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ﴿قليلاً ما تشكرون﴾، أي: لم تشكروا هذه النعم. ﴿وهو الذي ذرأكم﴾ خلقكم ﴿في الأرض وإليه تحشرون﴾ تبعثون ﴿وهو الذي يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار﴾، أي: تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان. قال الفرّاء: جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض ﴿أفلا تعقلون﴾ ما ترون من صنعه فتعتبرون؟

﴿بل قالوا مثل ما قال الأوّلون﴾، أي: كذّبوا كما كذّب الأوّلون ﴿قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ لمحشورون؟ قالوا ذلك على طريق الإنكار والتعجّب. ﴿لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا﴾ الوعد ﴿من قبل﴾، أي: وَعَدَ آباءنا قوم زعموا أنهم رسل الله، فلم نر له حقيقة ﴿إن هذا إلاَّ أساطير الأولين﴾ أكاذيب الأولين.

قوله عز وجل: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٦).

ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ .

قال البغوي[١]: ﴿قل﴾ يا محمد مجيباً لهم ﴿لمن الأرض ومن فيها﴾ من الخلق ﴿إن كنتم تعلمون﴾ خالقها ومالكها﴿سيقولون لله﴾ ولا بدّ لهم من ذلك، لأنهم يقرّون أنها مخلوقة، فقل لهم إذا أقرّوا بذلك ﴿أفلا تذكّرون﴾؟ فتعلمون أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت؟

﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾؟ قال ابن كثير[٢]: أي إذا كنتم تعرفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ قال البغوي[٣]: الملكوت الملك، والتاء فيه للمبالغة. ﴿وهو يجير﴾، أي يؤمّن من يشاء ﴿ولا يجار عليه﴾؟، أي: لا يؤمّن عليه.

﴿إن كنتم تعلمون سيقولون لله﴾ قال ابن كثير[٤]: فأي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قل فأنى

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٦٦).
(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٥٣).
(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٦).
(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٥٣).

تسحرون﴾؟ أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره، مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟

ثم قال تعالى: ﴿بل أتيناهم بالحق﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلاَّ الله، وأقمنا الأدلّة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿وإنهم لكاذبون﴾، أي: في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق﴾، أي: تفرّد بما خلقه فلم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره، ومنع الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾، أي: طلب بعضهم مغالبة بعض، كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم؛ ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾.

قوله عزم وجل: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: قوله تعالى: ﴿قل رب إما تريني﴾، أي: إن أريتني ﴿ما يوعدون﴾، أي: ما أوعدتهم من العذاب، أي: يا ربّ ﴿فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾، أي: لا تهلكني بهلاكهم ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم﴾ من العذاب لهم ﴿لقادرون﴾. وعن مجاهد في قوله: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ قال:

---

(١) «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٧).

أعرض عن أذاهم إيّاك. قال الحسن: والله لا يصيبها صاحبها حتى يكظم غيظاً، ويصفح عما يكره.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ خَنْقُهُمُ الناس فذلك همزاتهم ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ في شيء من أمري. وقال ابن عباس: همزات الشياطين نزعاتهم.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ قال قتادة: ما تمنّى أن يرجع إلى أهله وعشيرته، ولا ليجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنّى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فَرَحِمَ الله امرءاً عمل فيما يتمنّاه الكافر إذا رأى العذاب.

وقوله تعالى: ﴿كلاّ إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾. قال البغوي[1]: ﴿كلاّ﴾ كلمة ردع وزجر، أي: لا يرجع إليها ﴿إنها﴾، يعني: سؤاله الرجعة ﴿كلمة هو قائلها﴾ ولا ينالها ﴿ومن ورائهم برزخ﴾، أي: أمامهم وبين أيديهم حاجز ﴿إلى يوم يبعثون﴾. وقال الضحاك: البرزخ ما بين الموت إلى البعث.

قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٨).

يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقّه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته، وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾[1] رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن عباس: «إن للقيامة أحوالاً ومواطن، ففي مواطن يشتدّ عليهم الخوف فيشغلهم عظم الأمر عن التساؤل فلا يتساءلون، وفي مواطن يفيقون إفاقة فيتساءلون».

وقوله تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾ قال ابن عباس يقول: عابسون. وقال ابن مسعود: ألم تر إلى الرأس المشيط بالنار وقد قلصت شفتاه وبدت أسنانه؟

وقوله تعالى: ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذّبون قالوا ربنا غلبت علينا شِقوتنا وكنا قوماً ضالّين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ قال ابن جريج: بلغنا أن أهل النار نادوا خزنة جهنم: ﴿أن ادعوا ربكم يخفّف عنا يوماً من العذاب﴾، فلم يجيبوهم ما شاء الله، فلما أجابوهم بعد حين قالوا: ﴿ادعوا وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾، قال: ثم نادوا: ﴿يا مالك ليقض علينا ربك﴾، فسكت عنهم مالك خازن جهنم أربعين سنة، ثم أجابهم فقال: ﴿إنكم ماكثون﴾، ثم نادى الأشقياء ربهم فقالوا: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالّين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ فسكت عنهم مثل مقدار الدنيا، ثم أجابهم بعد

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٥٤).

ذلك تبارك وتعالى ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلّمون﴾[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ كقوله تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا: إنّ هؤلاء لضالّون وما أرسلوا عليهم حافظين فاليوم الذين آمنوا من الكفّار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثُوِّبَ الكفار ما كانوا يفعلون﴾[(٢)].

قوله عز وجل: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.

قال البغوي[(٣)]: ﴿قال كم لبثتم في الأرض﴾، أي: في الدنيا وفي القبور ﴿عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ نسوا مدة لبثهم في الدنيا لِعِظَمِ ما هم بصدده من العذاب ﴿فاسأل العادّين﴾ الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحصونها عليهم ﴿قال إن لبثتم﴾، أي: ما لبثتم في الدنيا ﴿إلاّ قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾، أي: لعباً وباطلاً لا لحكمة ﴿وأنكم إلينا

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٥٧)، وبنحوه مرفوعاً من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أخرجه الترمذي (ح/٢٥٨٦)، وابن جرير (١٨/ ٥٩)، بسند ضعيف. قال الترمذي: «إنما نعرف هذا الحديث عن الأعمش عن شمر بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء قوله وليس بمرفوع...». قلت: وأخرجه موقوفاً ابن جرير ــ أيضاً ــ (١٨/ ٥٩).

(٢) سورة المصطفين: الآيات ٢٩ ــ ٣٦.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٧٠).

لا ترجعون﴾ في الآخرة للجزاء؟ كما قال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾[١]؟ ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ **قال ابن كثير**[٢]: أي تقدّس أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحقّ المنزّه عن ذلك ﴿لا إله إلاّ هو رب العرش الكريم﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم: أي حسن المنظر بهيّ الشكل.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

قال البغوي[٣]: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾، أي: لا حجّة له به ولا بينة، لأنه لا حجّة في دعوى الشرك ﴿فإنما حسابه﴾ جزاؤه ﴿عند ربه﴾ يجازيه بعمله، كما قال تعالى: ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ لا يسعد من جحد وكذب ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾.

● ● ●

(١) سورة القيامة: الآية ٣٦.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٥٩).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٧١).

الدرس الرابع والثمانون بعد المائة

﴿سورة النور﴾

مدنية، وهي أربع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: يقول تعالى: هذه ﴿سورة أنزلناها﴾ وفيه تنبيه على الاعتناء بها. وعن ابن عباس في قوله ﴿وفرضناها﴾ يقول: بيّناها. وعن ابن جريج ﴿وأنزلنا فيها آيات بيّنات﴾ قال: الحلال والحرام والحدود ﴿لعلّكم تذكّرون الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ قال عطاء: يقام حمداً لله ولا يعطّل وليس بالقتل. وقال عمران: قلت لأبي مجلز ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما﴾ إلى ﴿واليوم الآخر﴾ إنا لنرحمهم أن يجلد الرجل حدّاً أو تقطع يده، قال: إنما ذاك أنه ليس للسلطان إذا رفعوا إليه أن يدعهم رحمة لهم حتى يقيم الحدّ.

وقوله تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ قال الزهري: الطائفة الثلاثة فصاعداً. وعن ابن عباس: أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلّوا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٦٠).

بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حقّ على من زنى إذا أُحْصِنَ من الرجال والنساء إذا قامت البيّنة أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف»[١]. متفق عليه. وفي الصحيحين أيضاً في حديث العسيفي، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لأقضينّ بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رَدٌّ عليك، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فرجمها»[٢]. وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنا نقرأ: «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»[٣]. رواه النسائي وغيره. **قال ابن كثير**[٤]: آية الرجم كانت مكتوبة، فنسخ تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلاَّ زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلاَّ زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين﴾ قال عبد الله بن عمرو: كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوّجها، فأنزل الله عز وجل: ﴿الزاني لا ينكح إلاَّ زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلاَّ زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين﴾[٥] رواه النسائي. وفي رواية الإمام أحمد: فاستأذن رسول الله ﷺ فقرأ ﴿الزاني لا ينكح إلاَّ زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلاَّ زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين﴾. وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حرّم الله عليهم الجنّة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والذي يقرّ في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (ح/ ١٦٩١).

(٢) العسيفي، أي: الأمير، أخرجه البخاري (ح/ ٢٦٩٥ و ٢٧٢٤ و ٢٧٢٥)، ومسلم (ح/ ١٦٩٧ و ١٦٩٨) من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٢٧١).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٦٠).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ١٥٩ و ٢٢٥)، وابن جرير (١٨/ ٧١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٥)، والحاكم (٢/ ١٩٣ ــ ١٩٤) وصححه، ووافقه الذهبي، قلت: وسنده لا بأس به.

أهله الخبث»[١]. رواه أحمد. وفي رواية: «والديّوث».

قوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾.

قال ابن كثير[٢]: المحصنة هي الحرّة البالغة العفيفة. وقال الشعبي في القاذف إذا تاب وعلم منه خير: أن شهادته جائزة، وإن لم يتب فهو خليع لا تجوز شهادته، وتوبتُه إكذابُه نفسَه. وقال الضحاك: إذا تاب وأصلح قبلت شهادته.

قوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾.

قوله: ﴿ويدرأ عنها العذاب أن تشهد﴾، أي: ويدفع عنها الحدّ شهادتها. وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيّد الأنصار رضي الله عنه: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيّدكم؟» فقالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوّج امرأة قطّ إلّا بكراً، وما طلّق امرأة قطّ فاجترأ رجل منا أن

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٦٩ و ١٢٨) بسند ضعيف، وبنحوه ــ أيضاً ــ عن ابن عمر رضي الله عنه أخرجه أحمد (٢/ ١٣٤)، والطبراني (١٢/ ٣٠٢)، بسند فيه ضعف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٦٥).

يتزوّجها من شدّة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها لحقّ وأنها من الله، ولكني قد تعجّبت، إني لو وجدت لكاعاً قد تفخّذها رجل لم يكن لي أن أهيّجه ولا أحرّكه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته!

قال: فما لبثوا إلاّ يسيراً حتى جاء هلال بن أمية، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عِشاء فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه وسمع بأذنيه فلم يهيّجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عِشاء فوجدت عندها رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتدّ عليه واجتمعت الأنصار وقالوا: قد ابتُلينا بما قال سعد بن عبادة، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً، وقال هلال: يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتدّ عليك مما جئت به، والله يعلم إني لصادق، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربّد وجهه، يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلاّ أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾ الآية، فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ فقال: «أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً»، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل، فقال رسول الله ﷺ: «أرسلوا إليها»، فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهما، فذكّرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليهما، فقالت: كذب، فقال رسول الله ﷺ: «لاعِنُوا بينهما»، فقيل لهلال: اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كانت الخامسة قيل له: يا هلال اتّق الله، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجِبة التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذّبني الله

عليها كما لم يجلدني عليها، فشهد في الخامسة أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين؛ ثم قيل للمرأة: اشهدي، فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتّق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجِبة التي توجب عليك العذاب، فتلكّأت ساعة وهمّت بالاعتراف ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ففرّق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى أن لا يُدْعَى ولدها لأب ولا يُرْمَى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحدّ، وقضى أن لا بيت عليه ولا قوت لها، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفّى عنها، وقال: «إن جاءت به أصيهب أو حمش الساقين فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين فهو للذي رُميت به، فجاءت به أورق جعداً خدلج الساقين سابغ الأليتين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن»[1]. قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يدعى لأمّه ولا يدعى لأب. رواه أحمد وغيره.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قال: يا رسول الله مالي؟ قال: «لا مال لك إن كنت صدقت عليها، فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها»[2].

وقوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾ قال البغوي[3]: جواب «لولا» محذوف، يعني لعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨/١)، وأبو داود (ح/٢٢٥٥)، والطيالسي (ح/٢٦٦٧)، وابن جرير (٨٢/١٨)، والبيهقي (٣٩٤/٧ ـ ٣٩٥)، بسند ضعيف، والحديث بنحوه عند البخاري (ح/٤٧٤٥ و ٤٧٤٦ و ٥٣٠٩)، ومسلم (ح/١٤٩٢)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وبنحوه أيضاً من حديث ابن عباس أخرجه البخاري (ح/٤٧٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٣١١ و ٥٣١٢ و ٥٣٤٩)، ومسلم (١١٣٠/٢).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٢٧٨/٣).

ورفع عنكم الحدّ باللعان ﴿وأن الله تواب﴾ يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة ﴿حكيم﴾ فيما فرض من الحدود.

وقال ابن كثير[1]: ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدّة ما يكون بهم من الضيق، فقال تعالى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾، أي: لخرجتم ولشقّ عليكم كثير من أموركم ﴿وأن الله تواب﴾، أي: على عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلّظة ﴿حكيم﴾ فيما يشرّعه ويأمر به وفيما ينهى عنه.

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٧٤).

الدرس الخامس والثمانون بعد المائة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ

ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيّب وعروة بن الزبير وعلقمة بن أبـي وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة زوج النبـي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرّأها الله تعالى وكلهم قد حدّثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدّثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدّق بعضاً؛ ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبـي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أُحْمَلُ في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عقدٌ بها من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين يرحّلونني فاحتملوا هودجي فرحّلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهنّ اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفّة الهودج حين رفعوه وحملوه،

وكنت جارية حديثة السنّ، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيمّمت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إليّ فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطّل السلمّي ثم الذكوانيّ قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان قد رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلّمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حين أناخ راحلته فوطيء على يدها فركبتها، فانطلق يقود بـي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نمر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولّى كبره عبد الله بن أبـيّ ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، ويريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلّم ثم يقول: «كيف تيكم»؟ فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت مع أم مسطح قِبَلَ المناصع وهو متبرّزنا، ولا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأُوَل في التنزّه في البريّة، وكنا نتأذى بالكنف أن نتّخذها في بيوتنا، وانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبـي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبـي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبـي رهم أم مسطح قِبَلَ بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، تسبّين رجلاً شهد بدراً؟! فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: ماذا؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ فسلّم ثم قال: «كيف تيكم»؟ فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقّن الخبر من قِبَلِهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت

أبويّ فقلت لأمي: يا أمّتاه ماذا يتحدّث الناس به؟ فقالت: أي بنيّة هوِّني عليك، فوالله لقلّما كانت امرأة قطّ وضيئة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها، قالت فقلت: سبحان الله، وقد تحدّث الناس بها؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي، قالت: فدعا رسول الله ﷺ عليّ ابن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودّ، فقال أسامة: يا رسول الله أَهْلُك ولا نعلم إلاَّ خيراً، وأما عليّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أيْ بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟» فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قطّ أغمصه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أُبـيّ ابن سلول. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلاَّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاَّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاَّ معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحميّة فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل؛ فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، لنقتلنّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحيّان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفّضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي

ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنّان أن البكاء فالِقٌ كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرّئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبـي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه»، قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبـي: أجب عنّي رسول الله ﷺ، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبـي رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: والله لقد علمتُ، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقرّ في أنفسكم وصدّقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة لا تصدّقوني، ولئن اعترفت بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لتصدّقُنّي، فوالله ما أجد لي ولكم مَثَلاً إلاّ كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾، قالت: ثم تحوّلت فاضطجعت على فراشي: قالت: وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة وأن الله تعالى مبرّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يُتلى، ولَشَأني كان أحقر في نفسي من أن يُتكلّم فيّ بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرّئني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله تعالى على نبيّه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى أنه ليتحدّر منه مثل الجُمان من العرق، وهو في يوم شاتٍ من ثِقَلِ القول الذي أنزل عليه، قالت: فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلّم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله عزّ وجل فقد برّأك، قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلاّ الله عزّ وجل، هو الذي أنزل براءتي،

وأنزل الله عزّ وجل: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه ــ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره ــ: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى﴾ إلى قوله: ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: «يا زينب ما علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله احمني سمعي وبصري، والله ما علمت إلاّ خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك». متفق عليه. وعند أهل السنن قالت: «لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضُربوا حدّهم»[١].

وعند أبي داود: «حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش»[٢].

وقوله تعالى: ﴿والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم﴾، أي: النار في الآخرة. قال ابن عباس: «الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبيّ وهو الذي تولّى كبره، وحسان ومسطح وحمنة بنت جحش»[٣]. وقال ابن زيد: أما الذي تولى كبره فعبد الله بن أبيّ ابن سلول الخبيث، هو الذي ابتدأ هذا الكلام وقال: امرأة نبيكم

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٢٦٣٧ و ٢٦٦١ و ٢٨٧٩ و ٤٠٢٥ و ٤١٤١ و ٤٦٩٠)، ومسلم (ح/ ٢٧٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٧٥) عن محمد بن إسحاق، وبنحوه من حديث أبي هريرة ولفظه: «فحد رسول الله ﷺ مسطحاً وصحنة وحسان، أخرجه البزار كما في «مختصر زوائد البزار» (٥/ ٢٠٠)، وإسناده حسن كما قال الهيثمي.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٨٧)، وفيه انقطاع.

باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها. وعن محمد بن إسحاق عن أبيه عن بعض رجال لبني النجار: أن أبا أيوب خالد بن زيد قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك. قال: فلما أنزل الله القرآن ذكر الله من قال الفاحشة ما قال من أهل الإفك ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ وذلك من حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا، ثم قال: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ كما قال أبو أيوب وصاحبته»[1]. رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء﴾ قال ابن كثير: ﴿لولا﴾، أي: هلاّ ﴿جاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون على صحة ما جاءوا به فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾، أي: في حكم الله كاذبون فاجرون.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ هذا للذين تكلّموا فتشهروا ذلك الكلام ﴿لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾. وعن مجاهد ﴿إذ تلقّونه بألسنتكم﴾ قال: تروونه بعضكم عن بعض.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/٩٦) بسند ضعيف.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ يقول: ما اهتدى منكم من الخلائق لشيء من الخير ينفع به نفسه، ولم يتّق شيئاً من الشر يدفعه عن نفسه. قال ابن زيد: كل شيء في القرآن من زكى أو تزكّى فهو الإسلام؛ وقال مقاتل: ﴿ما زكى﴾ ما صلح؛ وقال ابن قتيبة: ما طهر.

قال البغوي[1]: والآية على العموم عند بعض المفسرين. قالوا: أخبر الله أنه لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح مسلم.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة﴾ إلى آخر الآية قال: كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبيح وأفشوا ذلك وتكلّموا به، فأقسم ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر أن لا يتصدّق على رجل تكلّم بشيء من هذا ولا يصله، فقال: لا يقسم أولوا الفضل منكم والسعة أن يصلوا أرحامهم وأن يعطوهم من أموالهم، كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك، فأمر الله أن يغفر لهم وأن يعفو عنهم[2].

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٨/ ١٠٢) بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾.

قال ابن جرير[1] **في قوله تعالى:** ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات﴾ يقول تعالى ذكره: إن الذين يرمون بالفاحشة ﴿المحصنات﴾، يعني: العفيفات ﴿الغافلات﴾ عن الفواحش ﴿المؤمنات﴾ بالله ورسوله وما جاء به من عند الله ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ يقول: أُبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ وذلك عذاب جهنم. وعن جعفر بن برقان قال: سألت ميموناً قلت: الذي ذكر الله: ﴿الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾، إلى قوله: ﴿إلاَّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ فجعله في هذه الآية توبة، وقال في الأخرى ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات﴾ إلى قوله: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ قال ميمون: أما الأولى فعسى أن تكون قد قارفت، وأما هذه فهي التي لم تقارف شيئاً من ذلك. وقال ابن زيد: هذا في عائشة، ومن صنع اليوم في المسلمات فله ما قال الله.

وقوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ قال قتادة: ابنَ آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متّهمة من بدنك، فراقبهم واتّق الله في سرّك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسرّ عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حَسَنُ الظنّ فليفعل، ولا قوة إلاَّ بالله.

(١) انظر «جامع البيان» (١٨/١٠٣).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿يومئذ يوفّيهم الله دينهم الحق﴾ يقول: حسابهم.

وقال البغوي[1]: جزاؤهم الواجب، وقيل: حسابهم العدل ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ يبيّن لهم حقيقة ما كان بَعدهم في الدنيا. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: وذلك أن عبد الله بن أبيّ كان يشكّ في الدين، فيعلم يوم القيامة أن الله هو الحق المبين.

وعن ابن عباس قوله: ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾ يقول: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول. **وقوله**: ﴿والطيّبات للطيّبين﴾ يقول: «الطيّبات من القول للطيّبين من الرجال، والطيّبون من الرجال للطيّبات من القول. نزلت في الذين قالوا في زوجة النبي ﷺ ما قالوا من البهتان»[2]. وقال ابن زيد: نزلت في عائشة حين رماها المنافق بالبهتان والفرية، فبرّأها الله من ذلك؛ وكان عبد الله بن أبيّ هو خبيثاً، وكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة ويكون لها، وكان رسول الله ﷺ طيّباً، وكان أولى أن تكون له الطيّبة، وكانت عائشة الطيّبة، وكان أولى أن يكون لها الطيّب ﴿أولئك مبرّؤون مما يقولون﴾ قال ههنا: بُرّئت عائشة ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾.

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٨/ ١٠٦) بسند ضعيف.

الدرس السادس والثمانون بعد المائة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا

تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها﴾ قال: الاستئناس الاستئذان. وعن قتادة: ﴿حتى تستأنسوا وتسلّموا﴾ وعن أبـي موسى قال: سمعت النبـي ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف»[1]. رواه البخاري. وعن جابر قال: «أتيت النبـي ﷺ في دَيْنٍ كان على أبـي، فدققت الباب فقال: من ذا؟ فقلت: أنا، قال: أنا أنا! كأنه كرهه»[2]. رواه الجماعة. **قال ابن كثير**[3]: وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرف صاحبها حتى يفصح باسمه[4].

وعن عديّ بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، قال: فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٢٤٥)، ومسلم (ح/ ٢١٥٣)، من حديث أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٦٢٥٠)، ومسلم (ح/ ٢١٥٥).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٧٩).

(٤) وقيل: لأن جابراً رضي الله عنه لم يستأذن بلفظ اللام، وقيل غير ذلك.

لا تدخلوا بيوتاً﴾ »[١] الآية. رواه ابن جرير. وقال ابن مسعود: وعليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم. وعن زينب امرأة ابن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجته فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق، كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه.

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ قال مجاهد: هي البيوت التي ينزلها السفر لا يسكنها أحد. **قال ابن جرير**[٢]: إن الله عمّ بقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾ كل بيت لا ساكن به لنا فيه متاع، ندخله بغير إذن.

قوله عز وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿يغضوا أبصارهم﴾ عما يكره الله. وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري[٣]. رواه مسلم. وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عليّ لا تُتْبِعِ النظرة بالنظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»[٤]. رواه أبو داود وغيره. وقال النبي ﷺ: «من يكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»[٥]. رواه البخاري. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ١١٠ ـ ١١١) بسند ضعيف.

(٢) انظر «جامع البيان» (١٨/ ١١٦).

(٣) أخرجه مسلم (ح/ ٢١٥٩).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥١ و ٣٥٣ و ٣٥٧)، وأبو داود (ح/ ٢١٤٩)، والترمذي (ح/ ٢٧٧٨)، وقال: «حديث حسن غريب»، والحاكم (٢/ ١٩٤)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، قلت: وفي سنده ضعف من جهة شريك القاضي، فهو ضعيف. لكن للحديث شاهد من حديث علي رضي الله عنه، أخرجه أحمد (١/ ١٥٩)، والدارمي (٢/ ٢٩٨) وفيه ابن إسحاق وهو مدلس، والحديث بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى.

(٥) أخرجه البخاري (ح/ ٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

«لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد»[١]. رواه البغوي.

وقوله تعالى: ﴿ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون﴾ في بعض الآثار: «إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، يقول الله تعالى: من تركها مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه»[٢].

قوله عز وجل: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

عن ابن مسعود: ﴿ولا يبدين زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها﴾ قال: الثياب. وقال ابن عباس: الكحل والخاتم. وقال عطاء: الكفّان والوجه. وقال الحسن: الوجه والثياب. **قال البغوي**[٣]: فما كان من الزينة الظاهرة جاز للرجل الأجنبي النظر إليه إذا لم يخف فتنة. وعن عائشة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿وليضربن بخمرهنّ

---

(١) أخرجه مسلم (ح/٣٣٨).

(٢) روي مرفوعاً بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنه، أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٠١) بسند ضعيف جداً.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٨٧).

على جيوبهنّ﴾ شققن البرد مما يلي الحواشي فاختمرن به. رواه ابن جرير وغيره. وقال سعيد بن جبير: ﴿وليضربن﴾ وليشددن ﴿بخمرهنّ على جيوبهنّ﴾ يعني على النحر والصدر فلا يرى منه شيء. وعن ابن عباس: ﴿ولا يبدين زينتهنّ إلاَّ لبعولتهنّ﴾ إلى قوله ﴿عورات النساء﴾ قال: الزينة التي يبدينها لهؤلاء: قرطاها وقلادتها وسوارها، فأما خلخالاها ومعضداها ونحراها وشعرها فإنه لا تبديه إلاَّ لزوجها. وقال قتادة: تبدي لهؤلاء الرأس. قال بعض السلف: لم يذكر العم والخال وهما من محارمهنّ لئلاّ يصفوهن لبنيهم. وقال الحسن البصري: إنهما كسائر المحارم في جواز النظر، وقد يُذكر البعض لينبّه على الجملة. وهذا أظهر.

وعن ابن عباس: ﴿أو نسائهنّ﴾ قال: هن المسلمات، لا تبديه ليهودية ولا نصرانية، وهو النحر والقرط والوشاح، وما لا يحلّ أن يراه إلاَّ محرم. وعن ابن جريج قوله: ﴿أو نسائهنّ﴾ قال: بلغني أن نساء المسلمين لا يحلّ لمسلمة أن ترى مشركة عريتها إلاَّ أن تكون أمة لها، فذلك قوله ﴿ أو ما ملكت أيمانهن﴾. قال ابن كثير[١]: وقال الأَكثرون: بل يجوز أن تظهر زينتها على رقيقها من الرجال والنساء، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود عن أنس أن النبـي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطّت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبـي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك»[٢].

وقال البغوي[٣]: قوله تعالى: ﴿وما ملكت أيمانهنّ﴾ اختلفوا فيها فقال قوم: عبد المرأة محرم لها فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفاً، وينظر إلى بدن مولاته إلاَّ ما بين السرة والركبة كالمحارم، وهو ظاهر القرآن.

وعن ابن عباس قوله: ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ قال: كان

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (ح/ ٤١٠٦) من حديث أنس رضي الله عنه بسند حسن.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٨٨).

الرجل يتبع الرجل في الزمان الأول ولا يغار عليه، ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده، وهو الأحمق الذي لا حاجة له في النساء.

وقوله تعالى: ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ قال مجاهد: لم يدروا ما تم من الصغر قبل الحلم.

وقوله تعالى: ﴿ولا يضربن بأرجلهنّ ليُعلم ما يخفين من زينتهنّ﴾ قال ابن عباس: هو أن تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال ويكون في رجليها خلاخل، فتحركهنّ عند الرجال، فنهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك، لأنه من عمل الشيطان.

قال ابن كثير[1]: وقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾، أي: افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهيا عنه. والله تعالى هو المستعان.

قوله عز وجل: ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ قال: أيامى النساء اللاتي ليس لهن أزواج. وعن ابن عباس قوله: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٨٦).

عبادكم وإمائكم﴾ قال: أمر الله سبحانه بالنكاح ورغّبهم فيه وأمرهم أن يزوّجوا أحرارهم وعبيدهم، ووعدهم في ذلك الغنى فقال: ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾.

قال ابن كثير[1] **وقوله**: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفّف عن الحرام.

وقوله تعالى: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ قال البغوي[2]: سبب نزول هذه الآية ما روي أن غلاماً لحويطب بن عبد العزّى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، فأنزل الله هذه الآية. فكاتبه حويطب على مائة دينار، ووهب له منها عشرين ديناراً.

وعن ابن عباس قوله: ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ يقول: إن علمتم لهم حيلة ولا تلقون مؤونتهم على المسلمين. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حقّ على الله عونهم: المكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله»[3]. رواه البغوي.

وقوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصّناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم﴾ **قال ابن كثير**[4]: كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٨٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي (ح/ ١٦٥٥) وحسنه، والنسائي (٦/ ٦١)، وابن ماجه (ح/ ٢٥١٨)، والحاكم (٢/ ١٦٠) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٨٨)، والبغوي في شرح السنة (٩/ ٧)، وهو حديث صحيح.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٨٨).

هذه الآية الكريمة فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف، في شأن عبد الله بن أبيّ ابن سلول، فإنه كان له إماء فكان يكرههنّ على البغاء طلباً لخراجهنّ ورغبة في أولادهنّ ورياسة منه فيما يزعم. قال: وقوله تعالى: ﴿إن أردن تحصّناً﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له.

وقوله تعالى: ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم﴾، أي: لهنّ. قال ابن عباس فإن فعلتم ﴿فإن الله﴾ لهنّ ﴿غفور رحيم﴾ وإثمهنّ على من أكرههنّ. قال ابن كثير[1]: ولما فصّل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبيّنها، قال تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات﴾ يعني القرآن فيه آيات واضحات مفسّرات ﴿ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ أي خبراً عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾[2] أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿وموعظة للمتّقين﴾ أي لمن اتقى الله وخافه. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن: «فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله»[3].

● ● ●

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٨٩).

(٢) سورة الزخرف: الآية ٥٦.

(٣) سبق تخريجه.

الدرس السابع والثمانون بعد المائة

﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾.

عن ابن عباس قوله ﴿الله نور السموات والأرض﴾ يقول: الله سبحانه هادي أهل السموات والأرض(١) ﴿مثل نوره﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿كمشكاة﴾ قال: المشكاة كوّة البيت ﴿فيها مصباح﴾ قال السدي: هو السراج، وقال أبيّ بن كعب: المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره ﴿المصباح في زجاجة﴾ وهي نظير قلب المؤمن ﴿الزجاجة كأنها كوكب درّيّ﴾ مضيء ﴿يوقد من

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ١٣٥)، وابن أبي حاتم (٤/ب/ ٤٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ١٤٣) بسند ضعيف. قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ (الفتاوى ٦/ ٣٩١): «فقول من قال: (نور السموات والأرض) هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح، فإن من معاني كونه نور السموات والأرض أن يكون هادياً لهم، أما أنهم نفوا ما سوى ذلك فهذا غير معلوم...». اهـ. وراجع الفتاوى (٦/ ٣٧٤ ـ ٣٩٦) ففيها زيادة تفصيل حول هذه المسألة.

قلت: وفي هذه الآية إثبات صفة «النور» لله تعالى على ما يليق به، وكذلك هو من أسماءه تعالى. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «الجيوش» (ص ٤٤ ـ ٥٣): «والله سبحانه وتعالى سمى نفسه نوراً، وجعل كتابه نوراً، ورسوله ﷺ نوراً، ودينه نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نوراً تتلألأ... وقد فسّر: «نور السموات والأرض...» بكونه نور السموات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلاّ فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى»، إلى أن قال: «وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده، وواهبه إياه، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله، فيضاف إلى الفاعل والقابل...» وقد تكلم رحمه الله عن تفسير هذه الآية، ولولا خشية الإطالة لنقلته ههنا، فليراجع لزاماً.

شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ قال ابن عباس: هي شجرة وسط الشجر ليست من الشرق ولا من الغرب. وقال عكرمة لا يسترها من الشمس جبل ولا واد إذا طلعت وإذا غربت. وقال مجاهد: إذا طلعت الشمس أصابتها، وإذا غربت أصابتها.

﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ **قال البغوي**[1]: ﴿يكاد زيتها﴾ دهنها ﴿يضيء﴾ من صفائه ﴿ولو لم تمسسه نار﴾، أي: قبل أن تصيبه النار. ﴿نور على نور﴾ يعني نور المصباح على نور الزجاجة. قال أبـيّ بن كعب: هذا مثل المؤمن، فالمشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح ما جعل الله في قلبه من الإيمان والقرآن ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ وهي الإخلاص لله وحده.

وقال السدي في قوله تعالى: ﴿نور على نور﴾ قال: نور النار ونور الزيت، حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا، فلا يكون واحد منهما إلاَّ بصاحبه.

﴿يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ قال ابن كثير[2]، أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال. وعن أبـي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفّح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نور. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عَرَفَ ثم أنكر، وأما القلب المصفّح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيّب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها الدم والقيح، فأي المَدَّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»[3]. رواه أحمد.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١٩٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٩١).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٧)، والطبراني في الصغير (ح/ ١٠٤٨) بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع﴾ قال: مساجد تبنى. وقال ابن عباس في قوله ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع﴾ وهي المساجد، كره ونهى عن اللغو فيها، ثم قال: ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ يقول: يُتلى فيها كتابه. وعن الحسن في هذه الآية ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار﴾ قال: هم قوم في تجارتهم وبيوعهم لا تلهيهم تجاراتهم ولا بيوعهم عن ذكر الله.

وقوله تعالى: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ روى النسائي عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يُسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون وهم قليل، ثم يحاسَب سائر الخلائق»[1].

قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/أ/٥٤ ــ ٤/ب/٥٤)، والبيهقي بسند ضعيف، ووهم المؤلف ــ رحمه الله ــ فقال: رواه النسائي» وليس كما قال.

فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قال ابن كثير(١): هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين ناريّاً ومائيّاً، وكما ضرب لما يقرّ في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين مائيّاً وناريّاً؛ فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركّب، فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الأغشام المقلِّدون لأئمة الكفر، الصمّ البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى: ﴿أو كظلمات في بحر لجّيّ﴾. انتهى ملخصاً.

وقال أبيّ بن كعب: ثم ضرب الله مثلاً آخر فقال: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾ قال: وكذلك الكافر يجيء يوم القيامة وهو يحسب أن له عند الله خيراً، فلا يجد فيدخله النار. وعن ابن عباس قوله ﴿أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ إلى قوله: ﴿من نور﴾ قال: يعني بالظلمات الأعمال، وبالبحر اللجّيّ قلب الإنسان، قال: ﴿يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ قال: ﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾ يعني بذلك: الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهو كقوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾(٢). وعن أبيّ بن كعب في قوله ﴿أو كظلمات في بحر لجّيّ يغشاه موج﴾ الآية قال: ضرب مثلاً آخر للكافر، فهو يتقلّب في خمس من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة إلى النار.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٩٦).

(٢) سورة البقرة: الآية ٧.

وقوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ كقوله تعالى: ﴿من يضلل الله فلا هادي وله ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾[1].

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

قال ابن كثير[2]: يخبر تعالى أنه ﴿يسبّح له من في السموات والأرض﴾، أي: من الملائكة والأناسيّ والجانّ والحيوان حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿والطير صافّات﴾، أي: في حال طيرانها تسبّح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال تعالى: ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾، أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل؛ ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾.

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض فهو الحاكم المتصرّف، الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلاّ له، ولا معقّب لحكمه ﴿وإلى الله المصير﴾، أي: يوم القيامة، فيحكم فيه بما شاء، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فهو الخالق المالك الإله الحكم في الدنيا والآخرة، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

● ● ●

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٦.

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٩٧).

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

الدرس الثامن والثمانون بعد المائة

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)﴾.

قال ابن كثير[(١)]: يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو الإزجاء ﴿ثم يؤلّف بينه﴾، أي: يجمعه بعد تفرّقه ﴿ثم يجعله ركاماً﴾، أي: متراكماً يركب بعضه بعضاً ﴿فترى الودق﴾، أي: المطر ﴿يخرج من خلاله﴾، أي: من خلله. قال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المثيرة فتقمّ الأرض قمّاً، ثم يبعث الله الناشئة فتنشىء السحاب، ثم يبعث الله المؤلّفة فتؤلّف بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتلقّح السحاب. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ قال: الودق القطر.

وقوله تعالى: ﴿وينزّل من السماء من جبال فيها من بَرَدٍ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء﴾ قال ابن عباس: أخبر الله تعالى أن في السماء جبالاً من بَرَدٍ ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ قال: ضوء برقه يذهب بالأبصار.

وقوله تعالى: ﴿يقلّب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ كقوله تعالى: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلّب الليل والنهار»[(٢)]. رواه البغوي وغيره.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦)، وأبعد المؤلف النجعة فقال: «رواه البغوي».

قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: يذكّر تعالى قدرته التامة، وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماء واحد، فمنهم من يمشي على بطنه كالحية وما شاكلها، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطير، ومنهم من يمشي على أربع كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا قال: ﴿يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾. قال البغوي[2]: ولم يذكر من يمشي على أكثر من أربع مثل حشرات الأرض لأنها في الصورة كالتي على الأربع، وقيل: إن في قوله تعالى: ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ تنبيهاً على سائر الأقسام.

وقوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا آيات مبيّنات﴾، أي: واضحات تدلّ على طريق الحقّ ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٩٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٩٨).

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يُظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم: آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴿ثم يتولّى فريق منهم من بعد ذلك﴾، أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾، أي: إذا طُلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً﴾[2]. وفي الطبراني عن سمرة مرفوعاً: «من دُعِيَ إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حقّ له»[3].

وقوله تعالى: ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾، أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين، وإذا كانت عليهم أعرضوا، ولهذا قال تعالى: ﴿أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾. قال قتادة: ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقبياً بدرياً أحد نقباء الأنصار، أنه لما حضره الموت قال

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٢٩٨).

(٢) سورة النساء: الآية ٦١.

(٣) أخرجه الطبراني (٧/ ٢٢٥) بسند ضعيف.

لابن أخيه جنادة بن أبي أميّة: ألا أنبّئك بماذا عليك وبماذا لك؟ قال: بلى قال: فإن عليك السمع والطاعة، في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وأن لا تنازع الأمر أهله، إلاَّ أن يأمروك بمعصية الله بواحاً، فما أُمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله»[1].

وقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتَّقْهِ فأولئك هم الفائزون﴾. قال قتادة: يطيع الله ورسوله فيما أمراه به، ويترك ما نهياه عنه، ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه، ويتَّقْهِ فيما يستقبل.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

قال البغوي[2] قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم﴾ جَهْدُ اليمين أن يحلف بالله، ولا حلف فوق الحلف بالله ﴿لئن أمرتهم ليخرجنّ﴾ وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أينما كنت نكن معك، لئن خرجت خرجنا وإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، فقال تعالى: ﴿قل﴾ لهم ﴿لا تقسموا﴾ لا تحلفوا، وقد تمّ الكلام؛ ثم قال: ﴿طاعة معروفة﴾، يعني: هذه طاعة بالقول وباللسان دون الاعتقاد، وهي معروفة: يعني أمرٌ عرف منكم أنكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون، هذا معنى قول مجاهد ﴿إن الله خبير بما تعملون قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولّوا﴾، يعني: تولّوا عن طاعة الله ورسوله

---

(١) قلت: روي مرفوعاً بنحو عن عبادة بن الصامت ــ رضي الله عنه ــ أخرجه البخاري (ح/٧٠٥٦)، ومسلم (٣/ ١٤٧٠).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٢٩٩).

﴿فإنما عليه ما حُمِّل﴾، يعني: على الرسول ما كُلِّف وأمر به من تبليغ الرسالة ﴿وعليكم ما حُمِّلْتُم﴾ من الإجابة والطاعة ﴿وإن تطيعوه﴾ تهتدوا وما على الرسول إلاَّ البلاغ المبين.

قوله عز وجل: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

عن أبي العالية قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ الآية. قال: مكث النبي ﷺ عشر سنين خائفاً يدعو إلى الله سرّاً وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، فمكث بها هو وأصحابه خائفين يصبحون في السلاح ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال النبي ﷺ: «لا تصبرون إلاَّ يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس فيه حديدة»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾ إلى قوله: ﴿فمن كفر بعد ذلك﴾ قال: يقول: من كفر بهذه النعمة ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ وليس يعني الكفر بالله؛ قال: فأظهره الله على جزيرة العرب فآمنوا ثم تجبّروا فغيّر الله ما بهم، وكفروا بهذه النعمة فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفعه عنهم»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ١٥٩ ــ ١٦٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٠٠).

النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيّدهم تأييداً عظيماً، وحكموا في سائر البلاد والعباد، ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر، نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة»[1]. وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[2].

• • •

(١) أخرجه مسلم (ح/ ١٩٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه، وأيضاً (ح/١٩٢٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٩) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

الدرس التاسع والثمانون بعد المائة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ

يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ يقول: إذا خلا الرجل بأهله بعد صلاة العشاء فلا يدخل عليه خادم ولا صبي إلاّ بإذن، حتى يصلّي الغداة، فإذا خلا بأهله عند صلاة الظهر فمثل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهنّ﴾، أي: بعد هذه الأحوال الثلاث ﴿طوّافون﴾.

قال في جامع البيان: أي هم طوّافون، ﴿عليكم﴾ استئناف يبيّن العذر في ترك الاستئذان ﴿بعضكم﴾ طائف ﴿على بعض﴾ أو تقديره: يطوف بعضكم على بعض، أو فيكثرون التردّد لحوائجكم، فيفتقر فيهم ما لا يفتقر في غيرهم، ﴿كذلك﴾ مَثَلُ ذلك التبيين ﴿يبيّن الله لكم الآيات والله عليم﴾ بأحوالكم ﴿حكيم﴾ فيما أمركم.

وقال البغوي[1]: قوله تعالى: ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم﴾، أي: الاحتلام، يريد الأحرار البالغين ﴿فليستأذنوا﴾، أي: يستأذنون في جميع الأوقات في الدخول عليكم ﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾ من الأحرار والكبار ﴿كذلك

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٠٢).

يبيّن الله لكم آياته﴾ ﴿والله عليم﴾ بأمور خلقه ﴿حكيم﴾ فيما دبرّ لهم. قال: وسئل حذيفة: أيستأذن الرجل على والدته؟ قال: نعم، إن لم يفعل رأى منها ما يكره.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

قال البغوي[1]: قوله تعالى: ﴿والقواعد﴾ يعني اللاتي قعدن عن الولد والحيض من الكِبَر ﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾، أي: لا يردن الرجال لكِبَرِهنّ ﴿فليس عليهنّ جناح أن يضعن ثيابهن﴾ عندالرجال: يعني: يضعن بعض ثيابهنّ، وهي الجلباب والرداء الذي فوق الثياب والقناع الذي فوق الخمار، والتبرّج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ما ينبغي لها أن تستره. وعن الشعبي: ﴿وأن يستعففن خير لهنّ﴾ قال: تَرْكُ ذلك، يعني: ترك وضع الثياب.

قوله عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٠٣).

قال مجاهد: كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه، أو بعض من سمّى الله في هذه الآية، فكان الزمنى يتحرّجون من ذلك يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم[1].

قال ابن كثير[2]: وقوله تعالى: ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم، ليعطف عليه غيره في اللفظ، وليساوي به ما بعده في الحكم، وتضمّن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينصّ عليه، ولهذا استدلّ به من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنت ومالك لأبيك»[3].

وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ قال ابن عباس: «كانوا يأنفون ويتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخّص الله لهم فقال ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾. **قال ابن كثير**[4]: فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل، كما رواه الإمام أحمد أن رجلاً قال

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ١٦٩)، وقيل: لأنهم كانوا يتحرجون الأكل مع الأعمى؛ لأنه لا يرى الطعام، والأعرج لأنه لا يقدر على الجلوس، والمريض لأنه لا يقدر أن يستوفي الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فأنزل الله هذه الآية، وهذا هو قول سعيد بن جبير ومقسم، وقيل: لأنهم كانوا يتحرجون الأكل مع هؤلاء تقذراً وتعزراً ولئلا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية، وهذا القول الضحاك، وهناك أقوال أُخر ذكرها ابن جرير في تفسيره فراجعها إن شئت.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٠٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (ح/ ٢٢٩١) من حديث جابر رضي الله عنه، والطبراني (١٠/ ٩٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والطبراني (٧/ ٢٣٠) من حديث سمرة رضي الله عنه وأحمد (٢/ ١٧٨ و ١٧٩ و ٢٠٤ و ٢١٤)، وأبو داود (ح/ ٣٥٣٠)؛ وابن ماجه (ح/ ٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه بنحوه، وهو حديث صحيح.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٠٥).

للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع! قال: «لعلكم تأكلون متفرّقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارَكْ لكم فيه»[١].

وقوله تعالى: ﴿وإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم تحيّة من عند الله مباركة طيّبة كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلّكم تعقلون﴾. قال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسلّم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر[٢] بذلك، وحُدّثنا أن الملائكة تردّ عليه.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

قال ابن زيد: الأمر الجامع حين يكونون معه في جماعة الحرب أو جمعة، قال: والجمعة من الأمر الجامع، لا ينبغي لأحد أن يخرج إذا قعد الإمام على المنبر يوم الجمعة، إلاّ بإذن سلطان، إذا كان حيث يراه أو يقدر عليه، ولا يخرج إلاّ بإذن، وإذا كان حيث لا يراه ولا يقدر عليه ولا يصل إليه، فالله أولى بالعذر.
وروى أبو داود وغيره عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلّم، فإذا أراد أن يقوم فليسلّم، فليست الأولى بأحقّ من الآخرة»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠١)، وأبو داود (ح/ ٣٧٦٤)، وابن ماجه (ح/ ٣٢٨٦) من حديث وحشي بن حرب رضي الله عنه، بسند ضعيف.

(٢) في (الأصل): «يؤموا» وهو خطأ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٠ و ٢٨٧ و ٤٣٩)، وأبو داود (ح/ ٥٢٠٨)، والترمذي (ح/ ٢٧٠٧)، وحسنه، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢/ ٤٦٥ و ٤٦٦)، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ١٣٩)، وهو حديث صحيح.

قوله عز وجل: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظاماً لنبيّه، قال فقولوا: يا نبيّ الله يا رسول الله. وقال قتادة في قوله: ﴿قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لِواذاً﴾، يعني: لِواذاً عن نبيّ الله وعن كتابه[1].

وقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة﴾ قال ابن كثير: أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾، أي: في الدنيا بقتل أو حدّ أو حبس أو نحو ذلك.

قوله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

قال ابن كثير[2]: «قد» للتحقيق، كما قال قبلها ﴿قد يعلم الله الذين يتسلّلون منكم لِواذاً﴾ **قال ابن جرير**[3]: ﴿ويوم يرجعون إليه﴾ يقول: ويوم يرجع إلى الله الذين يخالفون عن أمره ﴿فينبّئهم﴾ يقول: فيخبرهم حينئذ ﴿بما عملوا﴾ في الدنيا ثم يجازيهم على ما أسلفوا فيها من خلافهم ﴿والله بكل شيء عليم﴾.

• • •

---

(١) واللواذ هو: الروغان بخفية.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٠٧).

(٣) انظر «جامع البيان» (١٨/ ١٧٩).

الدرس التسعون بعد المائة

﴿سورة الفرقان﴾

مكية، وهي سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا (١) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (٢) وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ

قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ قال: النبي النذير، وقرأ: ﴿وإن من أمة إلاَّ خلا فيها نذير﴾[١] وقرأ: ﴿وما أهلكنا من قرية إلاَّ لها منذرون﴾[٢]. قال: رسل، قال: المنذرون الرسل، قال: وكان نذيراً واحداً بلغ ما بين المشرق والمغرب، ذو القرنين، ثم بلغ السدّين، وكان نذيراً ولم أسمع أحداً بحق أنه كان نبياً. ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾[٣] قال: من بلغه القرآن من الخلق فرسول الله نذيره، وقرأ: ﴿يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[٤] وقال: لم يرسل الله رسولاً إلى الناس عامة إلاَّ نوحاً بدأ به، فكان رسول أهل الأرض كلهم، ومحمد ﷺ ختم به.

قال البغوي[٥]: ﴿تبارك﴾ تفاعل، من البركة ﴿الذي نزّل الفرقان﴾ أي القرآن ﴿على عبده﴾ محمد ﷺ ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي الجنّ والإنس ﴿الذي له ملك السموات والأرض ولم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٤.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٨.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٩.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.
(٥) انظر «معالم التنزيل» (٣/٣٠٦).

شيء﴾ مما يطلق عليه صفة المخلوق ﴿فقدّره تقديرا﴾ فسوّاه وهيّأه لما يصلح له، لا خلال فيه ولا تفاوت. ﴿واتخذوا﴾ يعني عبدة الأوثان ﴿من دونه آلهة﴾ يعني الأصنام ﴿لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً﴾ أي دفع ضرّ ولا جلب نفع ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة﴾ أي إماتة وإحياء ﴿ولا نشورا﴾ أي بعثاً بعد الموت.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾.

عن ابن جريج ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ قال: ما يُسرُّ أهل الأرض وأهل السماء.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: ﴿انظر﴾ يا محمد ﴿كيف ضربوا لك الأمثال﴾ يعني الأشباه فقالوا: مسحور محتاج وغيره ﴿فضلّوا﴾ عن الحق ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ إلى الهدى ومخرجاً عن الضلالة. وعن مجاهد قوله: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك

(١) المصدر السابق (٣/٣٠٧).

خيراً﴾ مما قالوا ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾ قال: بيوتاً مبنيّة مشيّدة. وروى البغوي وغيره عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرّعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»[(١)].

قوله عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

قال الضحاك: الثُبور الهلاك. وعن ابن عباس في قوله: ﴿لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾ قال: فسألوا الذي وعدهم وتنجزوه. قال البغوي[(٢)]: وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا: ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، يقول: كان أعطى الله المؤمنين جنة الخلد وعداً وعدهم على طاعتهم إياه في الدنيا ومسألتهم إياه.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٤)، والترمذي (ح/ ٢٣٤٧)، والطبراني (٨/ ٢٤٥)، والبغوي في تفسيره (٣/ ٣٠٨)، بسند ضعيف جداً.

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٠٩).

ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء﴾؟ قال: عيسى وعزير والملائكة. وعن ابن عباس قوله: ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ يقول: هلكى. وقال الحسن: لا خير فيهم.

وعن مجاهد: فقد كذّبوكم بما تقولون﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة يكذّبون المشركين ﴿فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ قال: المشركون. قال ابن جريج: لا يستطيعون صرف العذاب عنهم، ولا نصر أنفسهم ﴿ومن يظلم منكم﴾ قال: يشرك ﴿نذقه عذاباً كبيراً﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ورُدّوا إلى الله مولاهم الحق وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾[1].

قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

(١) سورة يونس: الآية ٢٨.

قال ابن عباس: لما عيّر المشركون رسول الله ﷺ وقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ أنزل الله عز وجل هذه الآية، أي ما كنت بدعاً من الرسل، وهم كانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ قال ابن عباس: أي جعلت بعضكم بلاء لبعض، لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم وتتّبعوا الهدى.

قال ابن كثير[1]: ﴿وكان ربك بصيراً﴾ أي بمن يستحقّ أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿والله أعلم حيث يجعل رسالته﴾. وقوله تعالى: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة﴾، أي: فتخبرنا أن محمداً صادق ﴿أو نرى ربنا﴾ فيخبرنا بذلك ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً يوم يرون الملائكة﴾ عند الموت ويوم القيامة ﴿لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً﴾ **قال ابن كثير**[2]: أي وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرّم عليكم الفلاح اليوم.

وقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾، أي: باطلاً لا ثواب له، كما قال تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾[3]. وعن ابن عباس قوله: ﴿أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ يقول: قالوا في الغرف في الجنة، وكان حسابهم أن عُرضوا على ربهم عرضة واحدة، وذلك الحساب اليسير، وهو مثل قوله: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً﴾[4].

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣١٣).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣١٣).

(٣) سورة إبراهيم: الآية ١٨.

(٤) سورة الإنشقاق: الآية ٨.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

قال ابن عباس: تشقّق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في الأرض من الجنّ والإنس، ثم تشقّق السماء الثانية فينزل أهلها، وهم أكثر ممن في السماء الدنيا ومن الجنّ والإنس، ثم كذلك حتى تشقّق السماء السابعة، وأهل كل سماء يزيدون على أهل السماء التي قبلها، ثم ينزل الكروبيّون ثم حملة العرش. وعن مجاهد قوله: ﴿ويوم تشقّق السماء بالغمام﴾ قال: هو الذي قال: ﴿في ظلل من الغمام﴾ الذي يأتي الله فيه يوم القيامة.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ويوم يعضّ الظالم على يديه﴾ إلى قوله: ﴿فلاناً خليلاً﴾ قال: هو أبيّ بن خلف كان يحضر النبي ﷺ فزجره عقبة بن أبي معيط. قال ابن كثير[1]: وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يوم تقلّب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾[2].

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ

(١) المصدر السابق (٣/٣١٦).
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦٦.

تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾.

قال ابن زيد في قول الله: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ لا يرون أن يسمعوه، وإن دُعوا إلى الله قالوا: لا، وقرأ: ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾[1] قال: ينهون عنه ويَبْعُدون عنه. وقال ابن عباس: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبـي عدواً من المجرمين﴾ قال: يوطّن محمداً ﷺ أنه جاعل له عدوّاً من المجرمين كما جعل لمن قبله.

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً﴾ قال ابن عباس: كان الله ينزل عليه الآية، فإذا علمها نبـي الله نزلت عليه آية أخرى، ليعلّمه الكتاب عن ظهر قلب ويثبّت به فؤاده وعن الحسن في قوله: ﴿ورتّلناه ترتيلاً﴾ قال: كان ينزل آية في آيتين وآيات، جواباً لهم إذا سألوا عن شيء، أنزله الله جواباً لهم وردّاً عن الشيء فيما يتكلّمون به، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة.

وعن ابن جريج ﴿ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق﴾ قال: الكتاب بما تردّ به ما جاءوا به من الأمثال التي جاءوا بها ﴿وأحسن تفسيراً﴾. قال ابن عباس: يقول أحسن تفصيلاً.

وقوله تعالى: ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرّ مكاناً وأضلّ سبيلاً﴾ في الصحيح عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»[2].

• • •

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٦.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٦٠)، ومسلم (ح/ ٢٨٠٦).

الدرس الحادي والتسعون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ

ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿وأصحاب الرّس﴾ قال: هي بئر كانت تسمى الرّس. وقال قتادة: الرّس قرية من اليمامة يقال لها الفلج ﴿وكلاًّ ضربنا له الأمثال﴾ قال: كل قد أعذر الله إليه ثم انتقم منه ﴿وكلاًّ تبّرنا تتبيراً﴾ قال البغوي[1]: يعني أهلكنا إهلاكاً.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

عن ابن جريج قوله: ﴿إن كاد ليضلّنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾ قال:

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣١٤).

ثبتنا عليها، **قال البغوي**[١]: يعني لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها. انتهى. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ قال ابن عباس: أرأيت من ترك عبادة الله وخالفه، ثم هوي حجراً فعبده ما حاله عنده؟ **وقال ابن كثير**[٣]: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾، أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه، كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل﴾ يقول: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ يقول: دائماً ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ يقول: طلوع الشمس. وقال مجاهد: تحويه ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ قال: حوى الشمس الظلّ.

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾، أي: ستراً تستترون به ﴿والنوم سباتاً﴾ راحة لأبدانكم ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ تنتشرون فيه لأشغالكم.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣١٤).

(٢) سورة ص: الآيات ٤ ــ ٦.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٢٠).

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

قال ابن عباس: ما عام بأكثر مطر من عام، ولكن الله يصرفه بين خلقه ثم قرأ ﴿ولقد صرّفناه بينهم ليذّكّروا﴾. وعن عكرمة ﴿فأبى أكثر الناس إلّا كفورا﴾ قال: قولهم في الأنواء.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

قال ابن عباس قوله: ﴿فلا تطع الكافرون وجاهدهم به﴾ قال: بالقرآن.

وعن مجاهد في قوله: ﴿مرج البحرين﴾ أفاض أحدهما على الآخر ﴿هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾ قال: لا يختلط البحر بالعذب. وعن الحسن في قوله: ﴿وجعلنا بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾ قال: هذا اليبس.

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق من الماء﴾، أي: النطف ﴿بشراً فجعله نسباً﴾ وهو القرابة ﴿وصهراً﴾ وهو الخلطة التي تشبه القرابة ﴿وكان ربك قديراً﴾. وعن الحسن في قوله: ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ قال: عوناً للشيطان على ربه

على المعاصي. وقال ابن زيد: والظهير العوين، وقرأ قول الله ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾[1].

قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ۝٦٠﴾.

قال البغوي[2]: قوله: ﴿وما أرسلناك إلاَّ مبشّراً ونذيراً قل ما أسألكم عليه﴾، أي: على تبليغ الوحي ﴿من أجر﴾ فتقولوا إنما يطلب محمد أموالنا ﴿إلاَّ من شاء أن يتّخذ إلى ربه سبيلاً﴾ هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى: لا أسألكم لنفسي أجراً، ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل إلى جنته.

وقوله تعالى: ﴿وتوكّل على الحيّ الذي لا يموت وسبّح بحمده وكفى بذنوب عباده خبيراً﴾ عالماً بصغيرها وكبيرها ﴿الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ قال مجاهد في قوله: ﴿فاسأل به خبيراً﴾ ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك.

وقال ابن جرير[3]: يقول: فاسأل يا محمد بالرحمن خبيراً بخلقه، فإنه خالق كل شيء ولا يخفى عليه ما خلق.

---

(١) سورة القصص: الآية ٨٦.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣١٧).

(٣) انظر «جامع البيان» (١٩/ ٢٧).

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾، أي: لا نعرفه ولا نُقِرُّ به، وكانوا ينكرون أن يسمّى الله باسمه الرحمن ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾، أي: لمجرد قولك؟ ﴿وزادهم﴾ ذلك ﴿نفوراً﴾ عن الدين والإيمان. قال ابن كثير[1]: فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويفردونه بالإلهية ويسجدون له.

● ● ●

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٢٣).

الدرس الثاني والتسعون بعد المائة

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

قال قتادة: البروج النجوم. وعن مجاهد قوله: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة﴾ قال: هذا يخلف هذا وهذا يخلف هذا ﴿لمن أراد أن يذّكّر﴾ ذاك آية له ﴿أو أراد شكوراً﴾ قال: شكر نعمة ربه عليه فيهما.

قوله عز وجل: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

عن مجاهد ﴿يمشون على الأرض هوناً﴾ قال: بالوقار والسكينة. وعن ابن عباس قوله: ﴿الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ بالطاعة والعفاف والتواضع. وقال ابن زيد: لا يتكبّرون على الناس ولا يتجبّرون ولا يفسدون، وقرأ قول الله ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتّقين﴾.

وعن الحسن ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ قال: حلماء، وإن جُهل عليهم لم يجهلوا.

وقوله تعالى: ﴿ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً﴾ قال

البغوي[١]: يعني مُلِحّاً دائماً لازماً غير مفارق مَنْ عُذِّب به من الكفار ﴿إنها ساءت مستقرّاً ومُقاماً﴾، يعني: بئس موضع قرار وإقامة.

وعن ابن عباس قوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتُروا وكان بين ذلك قَوَاماً﴾ قال: هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله، ولا يقترون فيمنعون حقوق الله. وعن إبراهيم قوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ قال: لا يجيعهم ولا يعريهم، ولا ينفق نفقة يقول الناس: قد أسرف. وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من فقه الرجل قصده في معيشته»[٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وكان بين ذلك قَوَاماً﴾، أي: وسطاً عدلاً، وقرىء بكسر القاف، وهو ما تقام به الحاجة.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

عن ابن مسعود قال: «سئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك، قال: ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يُطْعَمَ معك، قال: ثم أيّ؟ قال: أن تزاني حليلة جارك» قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك ﴿والذين

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٤) بسند ضعيف.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾[1] الآية. رواه أحمد وغيره. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «لا يحلّ دم امرىء مسلم، يشهد أن لا إله إلاَّ الله وأني رسول الله إلاَّ بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[2]. وقال لقمان لابنه يا بنيّ إيّاك والزنا، فإن أوله مخافة وآخره ندامة.

وقوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعَف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهَاناً﴾ قال أبو عبيدة: الأثام العقوبة؛ وقال مجاهد: الأثام واد في جهنم. قرأ ابن كثير وحفص فيه بإشباع الكسرة، وقرأ الباقون بغير إشباع كنظائرها.

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات﴾ قال ابن عباس: ﴿فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات﴾ بالشرك إيماناً، وبالقتل إمساكاً، وبالزنا إحصاناً. وقال سعيد بن المسيّب: تصير سيئاتهم حسنات لهم يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾، أي: رجوعاً. قال ابن كثير[3]: أي فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾[4].

قوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٦١)، ومسلم (ح/ ٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٦٨٧٨)، ومسلم (ح/ ١٦٧٦). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٢٨).

(٤) سورة النساء: الآية ١١٠.

وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

قال ابن جرير[1] في قوله: ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ لا يشهدون شيئاً من الباطل، لا شركاً ولا غناء ولا كذباً ولا غيره، قال: واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له، أو ما يُستقبح. وقال ابن كثير[2]: أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مرّوا ولم يتدنّسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً﴾.

وقوله تعالى: ﴿والذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعُمياناً﴾ قال البغوي[3]: ﴿والذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا﴾ لم يقعوا ولم يسقطوا عليها ﴿صمّاً وعُمياناً﴾ كأنهم صمّ عمي، بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه، ويرون الحق فيه فيتبعونه؛ قال القتيبي: لم يتغافلوا عنها كأنهم صمّ لم يسمعوها وعمي لم يروها.

وقوله تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾ عن ابن عباس قوله: ﴿هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ يعنون: من يعمل لك بالطاعة فَتُقِرُّ بِهِمْ أعيناً في الدنيا والآخرة ﴿واجعلنا للمتّقين إماماً﴾ يقول: أئمّة يُقتدى بنا. وقال مجاهد: أئمة نقتدي بمن قبلنا، ونكون أئمة لمن بعدنا.

وقوله تعالى: ﴿أولئك يجزون الغرفة﴾، أي: الدرجة العالية وهي الفردوس أعلا الجنة ﴿بما صبروا﴾ على أمر الله تعالى طاعته ﴿يُلَقَّوْنَ فيها تحيّة وسلاماً﴾ كما قال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم

(١) انظر «جامع البيان» (١٩/ ٤٨).
(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٢٩).
(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٢٢).

عقبى الدار﴾[١]. ﴿خالدين فيها حسنت مستقرّاً ومُقاماً﴾، أي: موضع قرار وإقامة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾[٢].

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

قال ابن كثير[٣]: أي لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحّدوه. وقال الضحاك في قوله: ﴿فقد كذّبتم فسوق يكون لِزَاماً﴾ الكفار كذّبوا رسول الله ﷺ وبما جاء به من عند الله ﴿فسوف يكون لِزاماً﴾ وهو يوم بدر. وعن ابن عباس ﴿فسوف يكون لِزَاماً﴾ قال: موتاً. وقال الحسن البصري ﴿فسوف يكون لِزَاماً﴾، أي: يوم القيامة. **وقال ابن كثير**[٤]: ﴿فسوف يكون لِزَاماً﴾، أي: فسوف يكون تكذيبكم لِزَاماً لكم، يعني: مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة.

● ● ●

(١) سورة الرعد: الآية ٢٣.
(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٧.
(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٣٠).
(٤) المصدر السابق (٣/ ٣٣٠).

الدرس الثالث والتسعون بعد المائة

﴿سورة الشعراء﴾

مكية، وهي مائتان وسبع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٩) وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٢٢) قَالَ

فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ

مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

قال ابن عباس: ﴿باخع نفسك﴾ قاتل نفسك. وقال قتادة: لعلك من الحرص على إيمانهم مخرج نفسك من جسدك.

وقوله تعالى: ﴿إن نشاء ننزّل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين﴾ قال قتادة: لو شاء الله لنزّل آية يذلّون بها، فلا يلوي أحد عنقه إلى معصية الله. وقال ابن كثير[1]: أي لو نشاء لأنزلنا آية تضطرّهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا نفعل ذلك لأنا لا نريد من أحد إلاّ الإيمان الاختياري.

وقوله تعالى: ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن مُحْدَثٍ إلاّ كانوا عنه معرضين﴾ قال البغوي[2]، أي: مُحْدَثٌ إنزاله، فهو محدث في التنزيل. قال الكلبي: كلما نزل شيء من القرآن بعد شيء فهو أحدث من الأول. وقوله تعالى: ﴿فقد كذّبوا فسيأتيهم أنباء﴾، أي: أخبار وعواقب ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٣١).
(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٢٥).

وقوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾، أي: حسن. قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك﴾، أي: دلالة على قدرة الخالق وتوحيده بالعبادة ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ قال أبو العالية ﴿العزيز﴾ في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره. وقال سعيد بن جبير: ﴿الرحيم﴾ بمن تاب إليه وأناب.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

قال البغوي(١): أي إلى فلسطين، ولا تستعبدهم وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة، وكانوا في ذلك ستّمائة ألف وثلاثين ألفاً، فانطلق موسى إلى مصر، وهارون بها فأخبره بذلك، وصاحت أمّهما وقالت: إن فرعون يطلبك ليقتلك، فلو ذهبتما إليه قتلكما، فلم يمتنعا لقولها وذهبا إلى باب فرعون.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٢٦).

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين﴾ قال: ربّيناك فينا وليداً فهذا الذي كافأتنا أن قتلت منا نفساً وكفرت نعمتنا؟ ﴿قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾ قال مجاهد: من الجاهلين. وعن السدي ﴿فوهب لي ربي حكماً﴾ والحكم النبوّة. وعن مجاهد ﴿تَمُنُّها عليّ أن عَبَّدْتَ بني إسرائيل﴾ قال: قهرتهم واستعملتهم. وعن السدي ﴿وتلك نعمة تَمُنُّها عليّ أن عَبَّدْتَ بني إسرائيل﴾ وربيتني قبلُ وليداً!

قال ابن كثير[1]: أي وما أحسنت إليّ وربّيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك ومشاقّ رعيتك، أَفَيَفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾. يقول: أيّ شيء رب العالمين الذي تزعم أنك رسوله؟ ﴿قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ أنه خالقها، أي: إن كانت لكم قلوب موقنة تدلّكم على أن فرعون وغيره لا يخلقون ذلك ﴿قال لمن حوله ألا تستمعون﴾، أي: ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري؟ ﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ الذين كانوا قبل فرعون وزمانه ﴿قال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٣٢).

إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾، أي: ليس له عقل؛ فزاد موسى في البيان: ﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾.

فلما رأى فرعون الحجّة لزمته وانقطعت حجّته، عدل إلى قوته وسلطانه: ﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين قال أو لو جئتك بشيء مبين﴾، أي: أتسجنني وإن أتيتك بحجّة بيّنة ﴿قال فائت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ يقول: مبين له خلق حيّة.

وقوله: ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ لمن ينظر إليها ويراها.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

كان فرعون لعنه الله وقحاً جريئاً، فلما غلب وانقلب صاغراً عدل إلى المكابرة والعناد فقال: ﴿إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، ثم توعّدهم بقطع الأيدي والأرجل والصّلب فقالوا: ﴿لا ضير﴾، أي: لا يضرّنا ذلك ولا نبالي به: ﴿إنا إلى

ربنا منقلبون﴾، أي: المرجع إلى الله عزّ وجلّ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾، أي: بسبب أنّا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان بالله وآياته وتصديق رسله، فقتلهم كلّهم.

﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلاّ العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٣٥).

وقوله تعالى: ﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾ ليجمعوا له الجند، وقال: ﴿إن هؤلاء﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لشرذمة﴾ طائفة ﴿قليلون﴾ قال أبو عبيدة: كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ﴿وإنهم لنا لغائظون﴾، أي: كل وقت يصل إلينا منهم ما يغيظنا ﴿وإنا لجميع حاذرون﴾، أي: مستعدّون، وإني أريد أن أهلكهم، فخرجوا في طلبهم، قال الله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات﴾، أي: بساتين ﴿وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل فأتبعوهم مشرقين﴾، أي: لحقوهم في وقت إشراق الشمس ﴿فلما تراءى الجمعان﴾، أي: تقابلا ورأى بعضهم بعضاً: ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدرَكون﴾، أي: سيدركنا قوم فرعون ولا طاقة لنا بهم ﴿قال﴾ موسى ثقة بوعد الله إياه ﴿كلا﴾ لن يدركونا ﴿إن معي ربي سيهدين﴾ يدلّني على طريق النجاة ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾ فضربه ﴿فانفلق﴾، أي: انشقّ ﴿فكان كل فرق كالطود العظيم﴾، أي: كالجبل الكبير. قال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق.

وقوله تعالى: ﴿وأزلفنا ثَمّ﴾، أي: قرّبنا هنالك ﴿الآخرين﴾ قال قتادة: هم قوم فرعون قرّبهم الله حتى أغرقهم في البحر ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين﴾ قال السدي: ودنا فرعون وأصحابه من البحر بعد ما قطع موسى ببني إسرائيل البحر، فلما نظر فرعون إلى البحر منفلقاً قال: ألاَّ ترون البحر فرق مني؟ قد تفتّح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم، فذلك قول الله: ﴿وأزلفنا ثَمّ الآخرين﴾ يقول: قرّبنا ثَمّ الآخرين هم آل فرعون، فلما قام فرعون على الطرق وأبت خيله أن تقتحم، فنزل جبرائيل عليه السلام على ماذيانة، فتشامّت الحصنُ ريح الماذيانة، فاقتحمت في أثرها، حتى إذا همّ أولهم أن يخرج ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم، وتفرّد جبريل بمقلة من مقل البحر فجعل يدسّها في فيه. وقال بكر بن عبد الله: أقبل فرعون، فلما أشرف على الماء قال أصحاب موسى: يا مكلّم الله إن القوم يتبعوننا في الطريق، فاضرب بعصاك البحر فأخلطه، فأراد موسى أن يفعل فأوحى الله إليه: أن اترك البحر رهواً إنهم جند

مغرقون، إنما أمكر بهم فإذا سلكوا طريقكم أغرقتهم، قال: فلما انتهى فرعون إلى وسط البحر أوحى الله إلى البحر: خذ عبدي الظالم وعبادي الظلمة، فتغطمطت تلك الفرق من الأمواج كأنها الجبال وضرب بعضها بعضاً ﴿فلما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلاَّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فقيل له: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك﴾، أي: إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ﴿لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

● ● ●

الدرس الرابع والتسعون بعد المائة

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

قال البغوي[1]: قوله: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم إذا قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ أي شيء تعبدون ﴿قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عافكين﴾، يعني: نقيم على عبادتها قال: ﴿هل يسمعونكم﴾، أي: هل يسمعون دعاءكم إذ تدعون قال ابن عباس: يسمعون لكم أو ينفعونكم أو يضرون إن تركتم عبادتها ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ معناه: أنها لا تسمع قولاً ولا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً لكن اقتدينا بآبائنا وفيه إبطال التقليد في الدين انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾.

قال ابن جرير[2]: ومعنى الكلام: أفرأيتم كل معبود لكم ولآبائكم، فإني

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (١٩/ ٨٤).

منه بريء لا أعبده ﴿إلاَّ ربَّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين﴾ للصواب من القول والعمل ويسددني للرشاد ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ يقول: والذي يغذوني بالطعام والشراب ويرزقني الأرزاق. ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ يقول: وإذا سقم جسمي واعتلّ فهو يبرئه ويعافيه ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ يقول: والذي يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ فربّي هذا الذي بيده نفعي وضرّي، وله هذه القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي ولا ينفع ولا يضر. انتهى.

﴿رب هب لي حكماً﴾ قال ابن عباس: معرفة حدود الله وأحكامه ﴿وألحقني بالصالحين﴾ قال ابن كثير[١]: أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى»[٢].

وعن عكرمة قوله: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾. وقوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ قال: إن الله فضله بالخلّة حين اتخذه خليلاً، فسأل الله فقال: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ حتى لا تكذّبني الأمم، فأعطاه الله ذلك، فإن اليهود آمنت بموسى وكفرت بعيسى، وإن النصارى آمنت بعيسى وكفرت بمحمد عليهم الصلاة والسلام، وكلّهم يتولّى إبراهيم، قالت اليهود: وهو خليل الله وهو منا، فقطع الله ولايتهم منه بعد ما أقرّوا له بالنبوّة وآمنوا به فقال: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[٣] ثم ألحق ولايته بكم فقال: ﴿إنّ أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين﴾[٤] فهذا خيره الذي عجّل له، وهي

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٣٨).
(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٤٣٦ و ٤٤٣٧ و ٤٤٣٨ و ٤٤٦٣).
(٣) سورة آل عمران: الآية ٦٧.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٦٨.

الحسنة إذ يقول: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ وهو اللسان الصدق الذي سأل ربه.

وقوله: ﴿واجعلني من ورثة جنّة النعيم﴾ قال البغوي[١]: أي ممن تعطه جنة النعيم. وقال ابن كثير[٢]: أي أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم.

وقوله: ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالّين﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدةٍ وَعَدَها إيّاه فلما تبيّن له أنه عدوّ لله تبرّأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم﴾[٣].

وقوله: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾، أي: أَجِرْني من الخزي يوم القيامة ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾ قال قتادة: سليم من الشرك. وقال مجاهد ليس فيه شك في الحق؛ وفي الدعاء المأثور: «اللهم إني أسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً ونفساً مطمئنّة»[٤].

قوله عز وجل: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٣٣).

(٣) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٣) و ١٢٥)، والترمذي (ح/ ٣٤٠٧) من حديث شداد بن أوس نحوه، وفي سنده ضعف.

يقول تعالى: ﴿وأزلفت الجنة﴾، أي: قرّبت وأدليت ﴿للمتقين وأبرزت الجحيم﴾، أي: أظهرت ﴿للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾؟ **قال ابن كثير**(١): أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون.

وقوله تعالى: ﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون﴾ قال الزجاج: طرح بعضهم على بعض ﴿قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسوّيكم برب العالمين﴾، أي: نعدلكم به فنعبدكم معه ﴿وما أضلّنا إلاَّ المجرمون﴾ قال الكلبي: إلاَّ أوّلونا الذين اقتدينا بهم ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ »، أي: قريب. قال قتادة: يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً نفع. وعن جابر بن عبد الله قال: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليقول في الجنة: ما فعل صديقي فلان؟ وصديقه في الجحيم، فيقول الله تعالى: أخرجوا له صديقه إلى الجنة، فيقول من بقي: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ »(٢). رواه البغوي ﴿فلو أن لنا كرّة﴾، أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فنكون من المؤمنين﴾ لأنهم يشفعون وتنفعهم الشفاعة، وأما الكفار فلا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ **قال ابن كثير**(٣): أي أن في محاجّة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد، لآية واضحة جليلة على أنه لا إله إلاَّ الله ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ **قال البغوي**(٤): ﴿العزيز﴾ الذي لا يُغْلَبُ، فالله عزيز وهو في وصف عزّته رحيم.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٣/ ٣٣٤) بسند ضعيف.

(٣) المصدر السابق (٣/ ٣٤٠).

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣٤).

الدرس الخامس والتسعون بعد المائة

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٤٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ

لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد أرأيت قوله: ﴿كذّبت قوم نوح المرسلين﴾ و ﴿كذّبت عاد المرسلين﴾ و ﴿كذّبت ثمود المرسلين﴾، وإنما أرسل إليهم رسول واحد؟! قال: إن الآخِر جاء بما جاء به الأوّل، فإذا كذّبوا واحداً فقد كذّبوا الرسل أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾؟ قال البغوي[1]: أخوهم في النسب لا في الدين.

وقوله تعالى: ﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ يعنون: السفلة ﴿ قال وما علمي بما كانوا يعملون﴾ قال البغوي[2]: أي ما أعلم أعمالهم وصنائعهم،

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣٥).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٣٥).

وليس عليّ من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء، إنما كلّفت أن أدعوهم إلى الله ولي منهم ظاهر أمرهم ﴿إن حسابهم﴾ ما حسابهم ﴿إلاّ على ربي لو تشعرون﴾ لو تعلمون ذلك ما عِبْتموهم بصنائعهم. قال الزجاج: الصناعات لا تضرّ في الديانات. وعن ابن جريج قوله: ﴿إن حسابهم إلاّ على ربي لو تشعرون﴾ قال: هو أعلم بما في نفوسهم. وعن قتادة في قوله: ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ قال: فاقض بيني وبينهم قضاء.

وقوله تعالى: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ قال ابن عباس: يعني الموقر، **قال البغوي**[1]: الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان كلها. ﴿ثم أغرقنا بعد الباقين﴾ أي أغرقنا بعد إنجاء نوح وأهله من بقي من قومه ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾ قال: بكل طريق،

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٣٥).

وقال: الآية عامة. ﴿تعبثون﴾ قال: تلعبون. وعن قتادة في قوله: ﴿مصانع﴾ قال: مآخذ للماء. وعن ابن عباس قوله: ﴿لعلكم تخلدون﴾ يقول: كأنكم تخلدون.

وقوله: ﴿وإذا بطشتم﴾ قال البغوي[١]: أخذتم وسطوتم ﴿بطشتم جبّارين﴾ قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط، والجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب.

وقوله تعالى: ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلاّ خلق الأولين وما نحن بمعذَّبين﴾ عن ابن عباس قوله: ﴿إن هذا إلاّ خلق الأولين﴾ يقول: دين الأولين. وقال قتادة: هكذا خلقة الأولين، وهكذا كانوا يحيون ويموتون. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى: «يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون، ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون! إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غروراً وأصبح جمعهم بوراً وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا أن عاداً ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين»[٢]؟ رواه ابن أبي حاتم.

قوله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٣٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٤١)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٩٨).

ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ونخل طلعها هضيم﴾ يقول: أينع وبلغ فهو هضيم. وقال عكرمة: الهضيم الرطب اللّين.

وقوله: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ قال أبو صالح: حاذقين بنحتها. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ يقول: أشرين.

وقوله تعالى: ﴿قالوا إنما أنت من المسحّرين﴾ قال مجاهد: من المسحورين ﴿ما أنت إلّا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ واقترحوا عليه أن يُخرج لهم ناقة عُشَرَاءَ من هذه الصخرة، فقام نبيّ الله صالح عليه السلام فصلّى ثم دعا الله عز وجل، فانفطرت تلك الصخرة عن ناقة عشراء فآمن بعضهم وكفر أكثرهم، ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ يعني تَرِدُ ماءكم يوماً ويوماً تردونه أنتم ﴿ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب﴾ رجفت بهم أرضهم وأخذتهم الصيحة من فوقهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ

لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهنّ الله لهم، ما كان جوابهم إلاَّ أن ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾ أي ننفيك من بين أظهرنا، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرّون على ضلالتهم تبرّأ منهم و ﴿قال إني لعملكم من القالين﴾ أي المبغِضين لا أحبّه ولا أرضى به، وإني بريء منكم ثم دعا الله عليهم فقال: ﴿رب نجّني وأهلي مما يعملون﴾ قال الله تعالى: ﴿فنجيناه وأهله أجمعين﴾ أي كلّهم ﴿إلاّ عجوزاً في الغابرين﴾ وهي امرأته وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، كما أخبر الله عنهم في سورة هود وغيرها.

قوله عز وجل: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٤٤).

يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

قال ابن عباس قوله: ﴿كذّب أصحاب الأيكة﴾ قال: أهل مدين، والأيكة: الملتقى من الشجر. وقال ابن زيد: الأيكة الشجر؛ بعث الله شعيباً إلى قومه من أهل مدين وإلى أهل البادية. وعن مجاهد قوله: ﴿والجبلّة الأوّلين﴾ قال: الخليقة.

وقال البغوي[١]: قوله: ﴿قالوا إنما أنت من المسحّرين وما أنت إلاّ بشر مثلنا وإن نظنّك لمن الكاذبين فأسقط علينا كِسَفاً من السماء إن كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون﴾ من نقصان الكيل والوزن، وهو مجازيكم بأعمالكم وليس العذاب إليّ، وما عليّ إلاّ الدعوة، فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظلّة ﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾. قال ابن جريج: لما أنزل الله عليهم أول العذاب أخذهم منه حرّ شديد، فرفع الله لهم غمامة، فخرج إليها طائفة منهم ليستظلّوا بها، فأصابهم منها روح وبرد وريح طيّبة، فصبّ الله عليهم من فوقهم من تلك الغمامة عذاباً، فذلك قوله: ﴿عذاب يوم الظلّة﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي ﴿العزيز﴾ في انتقامه من الظالمين ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين.

● ● ●

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣٩).

الدرس السادس والتسعون بعد المائة

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ قال: هذا القرآن ﴿نزل به الروح الأمين﴾ قال: جبريل.

وقوله تعالى: ﴿وإنه لفي زبر الأوّلين﴾، أي: ذكر إنزال القرآن على محمد موجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم. ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ قال مجاهد: عبد الله بن سلام وغيره من علمائهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن: أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿نزّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كذلك سلكناه﴾ قال ابن عباس: أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٣٤٨).

﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن مُنْظَرون﴾؟ **قال البغوي**[(١)]: أي لنؤمن ونصدّق، يتمنّون الرجعة والنظرة. قال مقاتل: لما أوعدهم النبي ﷺ بالعذاب قالوا: إلى متى توعدنا بالعذاب، ومتى هذا العذاب؟ قال الله تعالى: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾؟

وقوله تعالى: ﴿أفرأيت إن متّعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعون﴾. **قال البغوي**[(٢)]: والمعنى أنهم وإن طال تمتّعهم بنعيم الدنيا، فإذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتّع شيئاً، ويكونون كأنهم لم يكونوا في نعيم قطّ. **قال ابن كثير**[(٣)]: وفي الحديث الصحيح: «يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت خيراً قطّ؟ هل رأيت نعيماً قطّ؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشدّ الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قطّ؟ فيقول: لا والله يا رب»[(٤)]، أي: ما كأنّ شيئاً كان.

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه: ﴿وما أهلكنا من قرية إلاّ لها منذرون ذكرى﴾ **قال البغوي**[(٥)]: أي رسل ينذرونهم تذكرة، وقيل: محلّها رفع أي تلك ذكرى وما كنا ظالمين في تعذيبهم، حيث قدّمنا الحجّة عليهم وأعذرنا إليهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٤١).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٤١).
(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٤١).
(٤) أخرجه بنحوه مسلم (ح/ ٢٨٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٥) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٤١).

مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿وما تنزّلت به الشياطين﴾ قال: هذا القرآن.

وفي قوله: ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ قال: عن سمع السماء.

وقوله تعالى: ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذّبين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحذّر به غيره يقول: أنت أكرم الخلق عليّ، ولو اتخذت إلهاً غيري لعذّبتك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمّ وخصّ فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطّلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلاّ أن لكم رَحِماً سأبُلّها ببلالها»(١). رواه مسلم وغيره.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين﴾ يقول: لِنْ لهم.

وقوله تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾، أي: من الشرك والمعاصي. وروى ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد الدمشقي قال: رأيت أبا الدرداء رضي الله عنه يحدّث الناس ويفتيهم، وولده إلى جنبه وأهل بيته جلوس في جانب المسجد يتحدّثون، فقيل له: ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم، وأهل بيتك جلوس لاهين؟ فقال: لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ازهد

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢٠٤)، وقوله: «سأبلها ببلالها»، أي: سأصلها ولن أقطعها.

الناس في الدنيا الأنبياء، وأشدّهم عليهم الأقربون»[1]، وذلك فيما أنزل الله عزّ وجلّ قال تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ إلى قوله: ﴿فقل إني بريء مما تعملون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وتوكّل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلّبك في الساجدين﴾، أي: المصلّين. قال عكرمة: قائماً وساجداً وراكعاً وجالساً. وقال قتادة: يراك وحدك ويراك في الجمع. وقوله تعالى: ﴿إنه هو السميع العليم﴾، أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين﴾؟ هذا جواب قول المشركين: إن الشياطين يلقون القرآن على لسان محمد، فقال تعالى: ﴿وما تنزّلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾، ثم أخبر أنهم إنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة فقال: ﴿هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كل أفاك أثيم﴾، أي: كذاب فاجر. قال قتادة: هم الكهنة، تسترق الجنُّ السمع ثم يأتون به إلى أوليائهم من الإنس.

وقوله تعالى: ﴿يُلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾ قالت عائشة: الشياطين تسترق السمع، فتجيء بكلمة حق فيقذفها في أذن وليّه، ويزيد فيها أكثر من مائة كذبة.

---

(١) أخرجه ابن عساكر كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٥٢)، والسيوطي في «الدر» (٥/ ١٨٢) بسند موضوع، وقع في تفسير ابن كثير: «عمرو بن سمرة»، وهو خطأ، والصواب: عمرو بن شمر.

(٢) سورة يونس: الآية ٦١.

قوله عز وجل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

قال ابن جرير[1]: يقول تعالى ذكره: ﴿والشعراء يتّبعهم﴾ أهل الغيّ لا أهل الرشاد والهدى. وقال مجاهد: يتبعهم الشياطين. وعن ابن عباس: ﴿ألم تر أنهم في كل واد يَهيمون﴾ يقول: في كل لغو يخوضون. وقال قتادة: يمدحون قوماً بباطل ويشتمون قوماً بباطل.

وقوله تعالى: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ قال البغوي[2]: أي يكذبون في شعرهم، يقولون: فعلنا وفعلنا وهم كَذَبة. وعن ابن عباس: ﴿إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾ في كلامهم ﴿وانتصروا من بعد ما ظُلموا﴾ قال: يردّون على الكفار الذين كانوا يهجون المؤمنين. وروى البغوي عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال النبي ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنّ ما ترمونهم به نضح النبل»[3]. وعن أنس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلّوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهمام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟! فقال النبي ﷺ: «خلّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح

(١) انظر «جامع البيان» (١٩/ ١٢٦).
(٢) انظر «معالم التنزيل» (١٩/ ٣٤٤).
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٨٧) بسند صحيح.

النبل»[١]. قال ابن كثير[٢]: وقوله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظَلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾ كقوله تعالى: ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[٣]. قال قتادة بن دعامة في قوله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾، يعني: من الشعراء وغيرهم. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كتب أبـي في وصيّته سطرين: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبـي قحافة عند خروجه من الدنيا، حين يؤمن الكافر وينتهي الفاجر ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظنّي به ورجائي فيه، وإن يجرؤ يبدّل فلا أعلم الغيب ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ »[٤]. رواه ابن أبـي حاتم والله أعلم.

• • •

(١) أخرجه الترمذي (ح/٢٨٤٧) وقال: حسن صحيح»، ومن طريقه البغوي في تفسيره (٣/ ٣٤٥)، وأخرجه النسائي (٥/ ٢٠٢ ــ ٢٠٣)، بسند صحيح. إلاَّ أن الترمذي قال: «وروي في غير هذا الحديث أن النبـي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء، وكعب بن مالك بين يديه، وهذا أصح عند بعض أهل الحديث لأن عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة، وإنما كانت عمرة القضاء بعد ذلك».

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبـي حاتم (٤/ب/ ٣٢٩).

الدرس السابع والتسعون بعد المائة

﴿سورة النمل﴾

مكية، وهي ثلاث وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

قال ابن كثير[1]: وقوله تعالى: ﴿تلك آيات﴾، أي: هذه آيات: ﴿القرآن وكتاب مبين﴾، أي: بيّن واضح ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾، أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدّقه وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة وآتى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرّها والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾[2].

وقال تعالى: ﴿لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً لُدّاً﴾، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾، أي: يكذّبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿زيّنّا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾، أي: حسّنّا لهم ما هم فيه ومددنا لهم في غيّهم، فهم يتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء على ما كذّبوا من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٥٦).

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٤.

يعمهون﴾[(١)] ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾، أي: في الدنيا والآخرة ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾، أي: ليس يخسر أنفسهم وأهليهم سواهم من أهل الحشر.

وقوله وتعالى: ﴿وإنك لَتُلَقّى القرآن﴾، أي: تؤتى القرآن ﴿من لدن حكيم عليم﴾، أي: وحياً من عند الله الحكيم في أمره ونهيه، العليم بالأمور كلها، فخبره هو الصدق وحكمه هو العدل، كما قال تعالى: ﴿وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته وهو السميع العليم﴾[(٢)].

قوله عز وجل: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

قال ابن كثير[(٣)]: يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكّراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه الله وكلّمه وناجاه، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلّة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إذ قال موسى لأهله﴾، أي: اذكر حين سار

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١١٥.

(٣) المصدر السابق (٣/٣٥٦).

موسى بأهله فأضلّ الطريق وذلك في ليل وظلام، فآنسوا من جانب الطور ناراً، أي: رأى ناراً تأجّج وتضطرم فقال لأهله ﴿إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر﴾، أي: عن الطريق ﴿أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾، أي: تستدفئون به، وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم واقتبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما جاءها نودي أن بورك مَنْ في النار ومَنْ حولها﴾، أي: فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار إلاّ توقّداً، ولا تزداد الشجرة إلاّ خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متّصل بعنان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهّج ــ وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين ــ فوقف موسى متعجّباً مما رأى.

﴿فنودي أن بورك من في النار﴾ قال ابن عباس: تقدّس ﴿ومن حولها﴾، أي: من الملائكة. قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود وهو الطيالسي حدثنا شعبة والمسعودي عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدّث عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ــ زاد المسعودي ــ وحجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه كل شيءأدركه بصره»[1]، ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة.

وقوله تعالى: ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾، أي: الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبه به شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢٩٣)، إلاّ أن في آخره: «ما انتهى إليه بصره من خلقه».

المباين لجميع المخلوقات ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المنزّه عن مماثلة المحدَثات.

وقوله تعالى: ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه ﴿العزيز﴾ الذي عزّ كل شيء وقهره وغلبه ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حيّة عظيمة هائلة، في غاية الكِبْر وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما رآها تهتز كأنها جانّ﴾ والجانّ ضرب من الحيّات أسرعه حركة وأكثره اضطراباً، فلما عاين موسى ذلك ﴿ولّى مدبراً ولم يعقّب﴾، أي: لم يلتفت من شدّة فَرَقِه ﴿يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون﴾، أي: لا تخف مما ترى فإني أريد أن أصطفيك رسولاً وأجعلك نبياً وجيهاً. وقوله تعالى: ﴿إلاّ من ظلم ثم بدّل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أنه من كان على عمل سيِّىء ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف.

وقوله تعالى: ﴿في تسع آيات﴾، أي: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيّدك بهنّ وأجعلهنّ برهاناً لك ﴿إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

---

(١) سورة طه: الآية ٨٢.

(٢) سورة النساء: الآية ١١٠.

وقوله تعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾، أي: بيّنة واضحة ظاهرة ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿وجحدوا بها﴾، أي: في ظاهر أمرهم ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾، أي: علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظلماً وعلّوا﴾، أي: ظلماً من أنفسهم سجية ملعونة ﴿وعلوّاً﴾، أي: استكباراً عن اتباع الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾، أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم، في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة؛ وفحوى الكلام يقول: احذروا أيها المكذّبون لمحمد ﷺ، الجاحدون بما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم.

● ● ●

الدرس الثامن والتسعون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن

سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

قال البغوي[1]: قوله عز وجل: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾، يعني: علم القضاء ومنطق الطير والدواب، وتسخير الشياطين وتسبيح الجبال ﴿وقالا الحمد لله الذي فضّلنا﴾ بالنبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجنّ والإنس ﴿على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود﴾ نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ابناً، وأعطي سليمان ما أعطي داود: الملك، وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين. وقال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه، وكان داود أشدّ تعبّداً من سليمان، وكان سليمان شاكراً لنعم الله تعالى.

﴿وقال يا أيها الناس عُلِّمْنا منطق الطير﴾ سمّى صوت الطير منطق لحصول الفهم منه كما يُفهم من كلام الناس. روي عن كعب قال: صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: لِدُوا للموت، وابنوا للخراب. وصاح طاووس فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: كما تَدين تُدان. وصاح صرد فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا قال: فإنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وهدرت حمامة فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: فإنها تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. قال: والغراب يدعو على العشا. والحدأة تقول: كل شيء هالك إلاّ الله. والقطاة تقول: من سكت سلم. والضفدعة تقول: سبحان المذكور بكل لسان.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

وقوله: ﴿وأوتينا من كل شيء﴾ قال البغوي: من كل شيء يؤتاه الأنبياء والملوك ﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾ وقال ابن كثير[1]: ﴿وأوتينا من كل شيء﴾، أي: مما يحتاج إليه الملك ﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾، أي الظاهر البيّن لله علينا.

قوله عز وجل: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ قال: يردّ أولهم على آخرهم.

قوله عز وجل: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٥٨).

قال ابن زيد: نزل سليمان بواد فسأل الإنس عن مائِهِ فقالوا: ما نعلم له ماء، فإن يكن أحد من جنودك يعلم له ماء فالجنّ، فدعا الجنّ فسألهم فقالوا: ما نعلم له ماء، وإن يكن أحد من جنودك يعلم له ماء فالطير، فدعا الطير فسألهم فقالوا: ما نعلم له ماء، وإن يكن أحد من جنودك يعلمه فالهدهد، فلم تجده، قال: فذاك أوّل ما فقد الهدهد.

وعن مجاهد: ﴿لأعذّبنّه عذاباً شديداً﴾ قال: نتف ريشه كله ﴿أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان مبين﴾ قال وهب بن منبه: أي بحجّة، عذر له في غيبته ﴿فمكث غير بعيد﴾ ثم جاء الهدهد، فقال له سليمان: ما خلّفك؟ فقال أحطت بما لم تحط به. قال البغوي[1] يقول: علمت ما لم تعلم وجئتك من سبأ بنبأ يقين. قال ابن كثير: أي بخبر صدق حق يقين، وسبأ هم حِمْيَر وهم ملوك اليمن.

﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ قال الحسن: هي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ﴿وأوتيت من كل شيء﴾، يعني: من كل أمر الدنيا ﴿ولها عرش عظيم﴾ قال ابن عباس: سرير كريم. قال: حسن الصنعة. قال ابن كثير[2]: سرير تجلس عليه عظيم هائل، مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلىء.

﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل﴾، أي: طريق الحق فهم لا يهتدون ﴿ألاَّ يسجدوا لله الذي يُخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ قال ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماء والأرض.

قال ابن جرير[3]: وقوله ﴿الله لا إله إلاَّ هو رب العرش العظيم﴾ يقول تعالى ذكره: الله الذي لا تصلح العبادة إلاَّ له، لا إله إلاَّ هو لا معبود سواه، تصلح له العبادة فأخلصوا له العبادة وأفردوه بالطاعة، ولا تشركوا به شيئاً ﴿ربّ العرش

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٥٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٦٠).

(٣) «جامع البيان» (١٩/ ١٥٠ ــ ١٥١).

العظيم﴾، يعني: بذلك مالك العرش العظيم، الذي كل عرش وإن عَظُمَ فدونه، لا يشبهه عرش ملكة سبأ ولا غيره.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ إلى قوله: ﴿لا إله إلاَّ هو رب العرش العظيم﴾ هذا كله كلام الهدهد.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: فلما فرغ الهدهد من كلامه قال سليمان للهدهد: ﴿سننظر أصدقت﴾ فيما أخبرت ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ فدلّهم الهدهد على الماء، فاحتضروا الركان وروى الناس والدواب، ثم كتب سليمان الكتاب وختمه بخاتمه، فقال للهدهد ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم﴾ تنحّ عنهم فكن قريباً منهم ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾ يردّون من الجواب، فأخذ الهدهد الكتاب فأتى به بلقيس، وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام، فوافاها في قصرها وقد غلّقت الأبواب، وكانت إذا رقدت غلّقت الأبواب وأخذت المفاتيح

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٥٥).

فوضعتها تحت رأسها، فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على نحرها، هذا قول قتادة. وقال ابن منبه وابن زيد: كانت لها كوّة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهدهد الكوّة فسدّها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة إليها، فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، لأن ملك سليمان كان في خاتمه، وعرفت أن الذي أرسل الكتاب إليها أعظم مُلْكاً، فقرأت الكتاب وتأخّر الهدهد غير بعيد، فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها فجاءوا وأخذوا مجالسهم، ﴿قالت﴾ لهم بلقيس ﴿يا أيها الملأ﴾ وهم أشراف الناس وكبراؤهم ﴿إني ألقي إليّ كتاب كريم﴾ قيل: سمّته كريماً لأنه كان مصدّراً ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم بيّنت الكتاب فقالت: ﴿إنه من سليمان﴾ وبيّنت المكتوب فقالت: ﴿وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألاّ تعلوا عليّ وائتوني مسلمين﴾ قال ابن عباس: أي لا تتكبّروا عليّ وائتوني مسلمين: مؤمنين طائعين. انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري﴾، أي: أشيروا عليّ فيما عرض لي ﴿ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾، أي: تحضرون ﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد﴾ وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك، ثم قالوا: ﴿والأمر إليك﴾ في القتال ﴿فانظري﴾ من الرأي ﴿ماذا تأمرين﴾ فنمتثل أمرك ونطيعه. قال الحسن: فوضعوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية﴾، أي: دخلوها عنوة ﴿أفسدوها﴾ خرّبوها ﴿وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة﴾ تحذّرهم سير سليمان ودخوله بلادهم.

قال الله تعالى: ﴿وكذلك يفعلون﴾ ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة فقالت: ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس ﴿فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله﴾ من النبوة والدين والحكمة والملك ﴿خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾.

ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد: ﴿ارجع إليهم﴾ بالهدية ﴿فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها ولنخرجنّهم منها﴾، أي: من بلادهم ﴿أذلّة وهم صاغرون﴾ إن لم يأتوني مسلمين. قال وهب بن منبه: فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان قالت: قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا به طاقة، فبعثت إلى سليمان أني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بعرشها فجعل في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض، في آخر قصر من سبعة قصور لها، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكّلت به حراساً يحفظونه، ثم قالت لمن خلّفت على سلطانها: احتفظ بما قِبَلَكَ، وسرير ملكي لا يخلص إليه أحد ولا يقربه حتى آتيك.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية، وكان قد ذُكر له عرشها فأعجبه، وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم فقال: ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن﴾ قال البغوي[1]: وهو المارد القوي ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ قال ابن عباس: يعني قبل أن تقوم من مجلسك ﴿وإني عليه لقويّ أمين﴾، أي: قويّ على حمله أمين على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه السلام: أريد أعجل من ذلك ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ وهو آصف كاتب سليمان ــ قال قتادة ــ كان مؤمناً من الإنس ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك﴾ قال مجاهد: يعني إدامة النظر حتى يرتدّ الطرف خاسئاً، قال سليمان: هات فسجد وقال: يا ذا الجلال والإكرام، يا إلهنا وإله كل

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٥٩).

شيء إلهاً واحداً، لا إله إلاَّ أنت، ائتني بعرشها. قال الكلبي: فغار عرشها تحت الأرض حتى نبع عند كرسيّ سليمان.

﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر﴾ نعمه ﴿أم أكفر﴾ فلا أشكرها ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾، أي: يعود نفع شكره إليه ﴿ومن كفر فإن ربي غني﴾ عن شكره ﴿كريم﴾ قال ابن كثير: أي كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى حدّ، وهذا كما قال موسى ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيّ حميد﴾.

وقال ابن جرير[1]: وقوله: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ يقول جلّ ثناؤه قال الذي عنده علم من كتاب الله. وقال ابن عباس: هو آصف كاتب سليمان، قال أكثر المفسرين: وكان صدّيقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

عن ابن عباس: فلما أتته ﴿قال نكّروا لها عرشها﴾ قال: وتنكير العرش أنه زيد فيه ونقص لينظر في عقلها، فوُجدت ثابتة العقل. وعن قتادة ﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو﴾ قال: شبّهته وكانت قد تركته خلفها. قال عكرمة: كانت حكيمة لم تقل: نعم، خوفاً من أن تكذب، ولم تقل: لا، خوفاً من التكذيب ﴿قالت كأنه هو﴾.

---

(١) انظر «جامع البيان» (١٩/ ١٦٢).

قال البغوي[1]: فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقرّ ولم تنكر.

قال ابن كثير[2]: **وقوله**: ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ قال مجاهد: يقوله سليمان ﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله﴾ قال البغوي[3]: أي صدّها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله.

﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ قال وهب بن منبه: أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضاً، ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له فيه سريره فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس، ثم قال: ﴿ادخلي الصرح﴾ ليريها ملكاً هو أعزّ من ملكها وسلطاناً هو أعظم من سلطانها ﴿فلما رأته حسبته لجّة وكشفت عن ساقيها﴾ لا تشكّ أنه ماء تخوضه، قيل لها: ادخلي ﴿إنه صرح ممرّد من قوارير﴾ فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله وعابها في عبادتها الشمس من دون الله، فقالت بقول الزنادقة، فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت وسجد معه الناس، وسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع، فلما رفع سليمان رأسه قال: ويحك ماذا قلت؟ قال: وأُنسِيَتْ ما قالت، فـ ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ وأسلمت فحسن إسلامها. وعن عكرمة قال: لما تزوج سليمان بلقيس قالت: لم تمسّني حديدة قطّ، قال سليمان للشياطين: انظروا ما يذهب الشعر، قالوا: النورة، فكان أول من صنع النورة. والله أعلم.

● ● ●

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٦٥).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦١).

الدرس التاسع والتسعون بعد المائة

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا

كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

عن مجاهد في قول الله: ﴿فريقان يختصمون﴾ قول مؤمن وكافر، قولهم صالح مرسل؟ ليس بمرسل: ﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيّئة قبل الحسنة﴾؟ قال مجاهد: بالعذاب قبل العافية.

قال ابن كثير[1]، أي: لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته؟ ولهذا قال ﴿لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك﴾، أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتّبعك خيراً. قال مجاهد: تشاءموا بهم ﴿قال طائركم عند الله﴾ قال ابن عباس: الشؤم أتاكم من عند الله لكفركم ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ تختبرون بالخير والشر.

قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٦٧).

عن ابن عباس قوله: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ هم الذين عقروا الناقة وقالوا حين عقروها: نبيّت صالحاً وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح. ما شهدنا من هذا شيئاً وما لنا به علم، فدمّرهم الله أجمعين.

وعن ابن إسحاق: قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلمّ فلنقتل صالحاً فإن كان صادقاً، يعني فيما وعدهم من العذاب بعد الثلاث عجّلناه قبله، وإن كان كاذباً نكون قد ألحقناه بناقته، فأتوه ليلاً ليبيّتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم، أتوا منزل صالح فوجدوهم مشدوخين قد رُضخوا بالحجارة.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ومكروا مكراً﴾ قال: احتالوا لأمرهم واحتال الله لهم، مكروا بصالح مكراً ومكرنا بهم مكراً، وهم لا يشعرون بمكرنا وشعرنا بمكرهم.

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمّرناهم وقومهم أجمعين﴾ قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على إهلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين. ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾، أي: بظلمهم وكفرهم ﴿إن في ذلك لآية﴾ لعبرة ﴿لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿أنهم أناس يتطهّرون﴾ قال: من الرجال والنساء

في أدبارهنّ. وقال مجاهد: من أدبار الرجال وأدبار النساء، استهزاء بهم. قال قتادة: عابوهم بغير عيب، أي: والله إنهم يتطهّرون من أعمال السوء.

﴿فأنجيناه وأهله إلاَّ امرأته قدّرناها﴾.

قال البغوي[1]: قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا ﴿من الغابرين﴾، أي: الباقين في العذاب ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ وهو الحجارة ﴿فساء مطر المنذرين﴾.

قال ابن كثير[2]: أي الذين قامت عليهم الحجّة ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذّبوه وهمّوا بإخراجه من بينهم.

قوله عز وجل: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٦٨).

قال مقاتل في قوله تعالى: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ هم الأنبياء والمرسلون.

قال ابن كثير[١]: وقوله تعالى: ﴿قل الله خيرٌ أمّا يشركون﴾؟ استفهام، إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى؛ ثم شرع تعالى يبيّن أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أمّن خلق السموات والأرض﴾؟ انتهى. وذكر لنا أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـــ رحمه الله ـــ مرّ بقوم في بلاد العينية عند قبر زيد بن الخطاب وهم يقولون: يا زيد يا زيد، فقال لهم: الله خير من زيد، ثم مرّ بهم مرة أخرى وهم يدعون زيداً فقال: الله خير من زيد، ثم مرّ بهم الثالثة وهم يدعونه فقال: الله خير من زيد، فقالوا: صدق الشيخ، وتركوا دعاءه.

وقوله تعالى: ﴿أمّن خلق السموات والأرض﴾؟

قال البغوي[٢]: معناه آلهتكم خير أم الذي خلق السموات والأرض؟

وقال ابن كثير[٣]: ﴿أمّن﴾ في هذه الآيات كلها تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر، لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق﴾، أي: بساتين ﴿ذات بهجة﴾، أي: منظر حسن ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ قال ابن كثير: أي لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقلّ بذلك، المنفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون ﴿ءإله مع الله﴾ يعبد وقد تبيّن لهم ولكل ذي لبّ أنه الخالق الرازق؟

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٦٩).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٦٩).

وقوله تعالى: ﴿بل هم قوم يعدِلون﴾، أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً، كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾[1].

وقال البغوي[2]: قوله: ﴿أم من جعل الأرض قراراً﴾ لا تميد بأهلها ﴿وجعل خلالها﴾ وسطها ﴿أنهاراً﴾ تَطّرِدُ بالمياه ﴿وجعل لها رواسي﴾ جبالاً ثوابت ﴿وجعل بين البحرين﴾ العذب والمالح ﴿حاجزاً﴾ مانعاً لئلاّ يختلط أحدهما بالآخر ﴿ءإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ توحيد ربهم وسلطانه.

وقال ابن كثير[3]: يقول: ﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾، أي: قارّة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرّك بأهلها وترجف بهم، وأنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلهما من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرّك، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطّر﴾، أي: المكروب المجهود ﴿إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ سكّانها يهلك قرناً وينشيء آخر ﴿ءإله مع الله قليلاً ما تذكّرون﴾، أي: ما أقلّ تذكّركم فيما يرشدكم إلى الحق، فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته.

وعن ابن جريج قوله: ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ والظلمات في البر ضلالة الطريق، والبحر ضلالة طريقه وموجه. وقال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون بالله خير أم الذي يهديكم في ظلمات البر والبحر إذا ضللتم فيهما الطريق فأظلمت عليكم السبل فيهما؟

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٧٠).

(٤) سورة غافر: الآية ٦٤.

وقال ابن كثير[١] : **يقول تعالى**: ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾، أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضيّة، كما قال تعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، أي: بعد الموت ﴿ومن يرزقكم من السماء﴾ بالمطر والأرض بالنبات ﴿ءإله مع الله قل هاتوا برهانكم﴾ حجّتكم على قولكم أن مع الله إلهاً آخر ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجّة لهم ولا برهان، كما قال تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلاَّ الله﴾.

قال البغوي[٤]: نزلت في المشركين حيث سألوا رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة. ﴿وما يشعرون أيّان﴾ متى ﴿يبعثون﴾.

وقال ابن كثير[٥]: يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلّماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلاَّ الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾، أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال تعالى: ﴿ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلاَّ بغتة﴾[٦]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: من زعم أنه يعلم ــ تعني النبـي ﷺ ــ ما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية، لأن

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٧٢).
(٢) سورة النحل: الآية ١٦.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ١١٧.
(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٥).
(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٧٢).
(٦) سورة الأعراف: الآية ١٨٧.

الله تعالى يقول: ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلَّا الله﴾[١]. رواه ابن أبـي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿بل ادّارك علمهم في الآخرة﴾، أي: غاب ﴿بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾. قال ابن زيد يقول: ضلّ عملهم في الآخرة، وليس لهم فيها علم ﴿بل هم منها عمون﴾.

قال ابن كثير[٢]: أي في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

● ● ●

(١) أخرجه ابن أبـي حاتم (٤/ب/٤٠٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٧٣).

الدرس المائتان

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ

فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد ذهابها فقالوا: ﴿أئذاً كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل﴾: أي مازلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً.

﴿إن هذا إلاّ أساطير الأولين﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها، قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿قل﴾ لهم يا محمد لهؤلاء ﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾، أي: المكذّبين للرسل وبما جاءوهم به كيف حلّت بهم نقمة الله، ثم قال تعالى مسلّياً لنبيّه ﷺ: ﴿ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾، أي: في كيدك وردّ ما جئت به، فإن الله مؤيّدك ومظهر دينك.

﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾. قال ابن عباس يقول: اقترب لكم. ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ بإنعامه عليهم وتأخير العذاب عنهم مع ظلمهم لأنفسهم ﴿ولكن

أكثرهم لا يشكرون وإن ربك ليعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون﴾ فإنه يعلم السرائر كما يعلم الظواهر.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلاّ في كتاب مبين﴾، أي: مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾[١].

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل﴾ وهم أهل الكتاب التوراة والإنجيل ليبيّن لهم ﴿أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ من أمر الدين، قال الكلبي: إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه. ﴿وإنه﴾، يعني: القرآن ﴿لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضي بينهم بحكمه﴾ الحق ﴿وهو العزيز﴾ فلا يردّ أمره ﴿العليم﴾ بأحوالهم ﴿فتوكل على الله﴾ في جميع أمورك وبلّغ رسالة ربك ﴿إنك على الحق المبين﴾ وإن خالفك من خالفك.

﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين﴾ قال قتادة: الأصمّ إذا ولّى مدبراً ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ما يُدعى إليه من الإيمان.

---

(١) سورة الحج: الآية ٧.

قال البغوي[1]: ومعنى الآية أنهم لفرط إعراضهم عما يُدْعَوْن إليه، كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، والأصمّ الذي لا يسمع ﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾، أي: ما أنت بمرشد من أعمى الله قلبه عن الإيمان ﴿إن تسمع﴾ ما تسمع ﴿إلاَّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ مخلصون فيه مصدّقون بكتبه ورسله.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

قال ابن عباس: تخاطبهم. قال ابن عمر: وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر. وعن قتادة قوله: ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ يقول: إذا وجب القول عليهم، والقول: الغضب ﴿أخرجنا﴾ دابة ذات زغب وريش ولها أربع قوائم تخرج من بعض أودية تهامة. وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب؛ ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»[2]. رواه أحمد وغيره.

وعن أبـي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أحدكم

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٧)، وبنحوه مسلم (٤/ ٢٢٢٥ ـ ٢٢٢٦).

أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[١]. رواه البخاري. قال الطيبي: الآيات أمارات الساعة، أما على قربها وأما على حصولها، **فمن الأول**: الدجال ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج والخسف؛ **ومن الثاني**: الدخان وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة والنار التي تحشر الناس.

وعن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيّتهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها قريباً»[٢]. رواه مسلم.

قال الحافظ ابن حجر[٣]: فالذي يترجّح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أوّل الآيات العظام المؤذِنة بتغيير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أوّل الآيات العظام المؤذِنة بتغيير الأحوال العلوية، وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعلّ خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب؛ قال: والحكمة في ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة، فتخرج الدابة تميّز المؤمن من الكافر، تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة، وأوّل الآيات المؤذِنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس» انتهى.

وقال عبد الله بن عمر: «لا تلبثون بعد يأجوج ومأجوج إلاّ قليلاً حتى تطلع الشمس من مغربها، فيناديهم مناد: يا أيها الذين آمنوا قد قبل منكم، ويا أيها الذين كفروا قد أغلق عنكم باب التوبة، وجفّت الأقلام وطويت الصحف»[٤] رواه نعيم وحماد.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٦٣٥)، ومسلم (ح/ ١٥٧).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ٢٩٤١).

(٣) انظر «فتح الباري» (١١/ ٣٦١).

(٤) أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٦٥٤) مرفوعاً بسند ضعيف.

وعند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه: «يخرج الدجال في أمتي ـ الحديث وفيه ـ فبعث الله عيسى ابن مريم فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قِبَلِ الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال حبة من خير أو إيمان إلاَّ قبضته ـ وفيه ـ فيبقى شرار الناس في خِفّة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثّل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان ثم يُنفخ في الصور»[1]. وروى أحمد وغيره من حديث أنس «إن أمام الدجال سنون خداعات يكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكاذب، ويخون فيها الأمين ويؤتمن فيها الخائن، ويتكلّم فيها الرويبضة»[2]. وفي حديث أبي هريرة عند ابن ماجه قيل: وما الرويبضة؟ قال: «الرجل التافه يتكلّم في أمره العامّة»[3].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا قعوداً عند النبي ﷺ فذكر الفتن فأكثر في ذكرها، حتى ذكر فتنة الأحلاس، قال قائل: وما فتنة الأحلاس؟ قال: «هي هَرَبٌ وحَرْبٌ؛ ثم فتنة السرّاء، دَخَنُها من تحت قَدَمَيْ رجل من أهل بيتي يزعم أنه منّي وليس منّي، إنما أوليائي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كَوَرِكٍ على ضِلَعٍ؛ ثم فتنة الدُّهَيْمَاء، لا تدع أحداً من هذه الأمة إلاَّ لطمته لطمة، فإذا قيل: انقضت تمادت، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً حتى يصير الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده»[4]. رواه أبو داود. ولأحمد من حديث

---

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢٩٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٠) بسند ضعيف، لكن يشهد له حديث أبي هريرة الآتي بعده، وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٨ و ٢٩١)، وابن ماجه (ح/ ٤٠٤٢)، والحاكم (٤/ ٤٦٥ و ٥١٢)، وصححه، ووافقه الذهبي وقلت: وهو حديث حسن، وفي (الأصل): «الرويضة»، وهو خطأ.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٣)، وأبو داود (ح/ ٤٢٤٢)، والحاكم (٤/ ٤٦٧)، وصححه، ووافقه =

عبد الله بن عمرو: «لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته من أهل الأرض، فيبقى عجاج لا يعرفون معروفاً ولا يُنكرون منكراً»[1]. وله من حديث أنس: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: لا إله إلاَّ الله»[2].

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ قال: زمرة زمرة ﴿ممن يكذّب بآياتنا فهم يُوزَعون﴾ قال: يحبس أوّلهم على آخرهم. وقال ابن عباس: ﴿فهم يوزَعون﴾ يُدفعون. قال البغوي[3]: يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، ثم يساقون إلى النار ﴿حتى إذا جاءوا﴾ يوم القيامة ﴿قال﴾ الله لهم ﴿أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً﴾ ولم تعرفوها حق معرفتها ﴿أم ماذا كنتم تعملون﴾؟

قال ابن كثير: أي فيسئلون عن اعتقادهم وأعمالهم. ﴿ووقع القول﴾ وجب العذاب ﴿عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ قال قتادة: كيف ينطقون ولا حجّة

= الذهبي، قال الخطابي: (قوله: «كورك على ضلع) مثل، ومعناه: الأمر الذي لا يثبت ولا يستقيم... يريد أن هذا الرجل غير خليق لعملك، والدهيماء: تصغير الدهماء، وصغرها على مذهب المذمة لها، والفسطاط: المدينة التي يجتمع فيها الناس)، «معالم السنن بهامش سنن أبي داود» (٤/ ٤٤٢ و ٤٤٣).

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٠)، والحاكم (٤/ ٤٣٥)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن كان الحسن سمعه من عبد الله عمرو» ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ١٤٨).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٦٩).

لهم؟ ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ يصدّقون فيعتبرون[١].

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

عن أبـي هريرة أنه قال: «يا رسول الله ما الصور؟ قال: قرن. قال: وكيف هو؟ قال: قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لله رب العالمين؛ يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلاَّ من شاء الله، ويأمره الله فيمد بها ويطوّلها فلا يفتر، وهي التي يقول الله: ﴿ما ينظر هؤلاء إلاَّ صيحة واحدة ما لها من فواق﴾[٢] فيسيّر الله الجبال فتكون سراباً، وترجّ الأرض بأهلها رجّاً، وهي التي يقول الله: ﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة﴾[٣] فتكون الأرض كالسفينة الموثقة في البحر تضربها الأمواج تكفأ بأهلها، أو كالقنديل المعلّق بالوتر تؤرجحه الأرياح فتميد الناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله: ﴿يوم التناد يوم تولّون مدبرين ما لكم من الله من

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٧٧).

(٢) سورة ص: الآية ١٥.

(٣) سورة النازعات: الآية ٥.

عاصم﴾[١] فبينا هم على ذلك إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر فرأوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خُسف شمسها وقمرها وانتثرت نجومها، ثم كُشطت عنهم؛ قال رسول الله ﷺ: والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك» فقال أبو هريرة: يا رسول الله فمن استثنى الله حين يقول: ﴿ففزع من في السموات ومن في الأرض إلاَّ من شاء الله﴾[٢]؟ قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يُرزقون وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه»[٣]. رواه ابن جرير.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وكل أتوه داخرين﴾ يقول: صاغرين ﴿وترى الجبال ×تحسبها جامدة﴾ يقول: قائمة.

قال ابن جرير[٤]: وإنما قيل: ﴿وهي تمرّ مرّ السحاب﴾ لأنها تجمع ثم تسير فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيراً حثيثاً ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ قال ابن عباس يقول: أحكم كل شيء ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ فيجازيكم عليه.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿من جاء بالحسنة﴾ يقول: من جاء بلا إله إلاَّ الله

---

(١) سورة غافر: الآية ٣٢.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ١٩)، والطبراني (٢٥/ ٦٦)، قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٤٩): «هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة، وقد اختلف فيه فمنهم من وقفه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد وأبي حاتم الرازي، وعمرو بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر، إلاَّ أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء...». اهـ.

(٤) انظر «جامع البيان» (٢٠/ ٢١).

﴿فله خير منها﴾ قال: فمنها يصل الخير إليه ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ وهو الشرك ﴿فكُبَّت وجوههم في النار﴾. وقال ابن زيد في قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ قال: أعطاه الله بالواحدة عشراً فصاعداً. قال البغوي[١]: وهذا حسن.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾ قال: في أنفسكم، وفي السماء والأرض والرزق. وقال ابن كثير[٢]: ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾، أي: لله الحمد الذي لا يعذّب أحداً إلاَّ بعد قيام الحجّة عليه والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾ كما قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم الحق﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾، أي: بل هو شهيد على كل شيء. وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله أنه كان ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل: خلوتُ، ولكن قل: عليّ رقيبُ
ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٧١).
(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٧٨).
(٣) سورة فصلت: الآية ٥٣.

الدرس الواحد بعد المائتين

﴿سورة القصص﴾

مكية، وهي ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا

يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾.

عن مجاهد ﴿وجعل أهلها شِيَعاً﴾، أي: فِرَقاً: يذبّح طائفة منهم، ويستحيي طائفة، ويعذّب طائفة، ويستعبد طائفة. قال الله عز وجل: ﴿يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ قال السدي: كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه: أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأحرقت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والعافة والحازة، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذه البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه ــ يعنون بيت القدس ــ رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر ببني إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلاَّ ذبحوه، ولا تولد لهم جارية إلاَّ تُركت، وقال للقبط: انظروا مملوككم الذين يعلمون خارجاً فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يَلُونَ تلك الأعمال القذرة، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم وأدخلوا غلمانهم، فذلك حين يقول: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً﴾ يعني بني إسرائيل حين جعلهم في الأعمال القذرة.

وعن قتادة قوله: ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض﴾ قال: بنو إسرائيل ﴿ونجعلهم أئمّة﴾، أي: ولاة الأمور ﴿ونجعلهم الوارثين﴾، أي: يرثون الأرض بعد فرعون وقومه: ﴿ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ شيئاً ما حذر القوم. قال: وذكر لنا أن حازياً حزاً

لعدو الله فرعون، فقال: يولد في هذا العام غلام من بني إسرائيل يسلبك ملكك، فتتبّع أبناءهم ذلك العام يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم حذراً مما قال له الحازي.

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ قال: قذف في نفسها. قال السدي: أمر فرعون أن يذبح مَنْ وُلِدَ ببني إسرائيل سنة ويُتركوا سنة، فلما كان في السنة التي يُذبحون فيها حملت بموسى، فلما أرادت وضعه حزنت من شأنه، فأوحى الله إليها ﴿أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليّم﴾ وهو النيل ﴿ولا تخافي ولا تحزني﴾ قال ابن زيد: ﴿لا تخافي﴾ عليه البحر ﴿ولا تحزني﴾ لفراقه ﴿إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ قال ابن إسحاق: ﴿إنا رادّوه إليك﴾ وباعثوه رسولاً إلى هذا الطاغية، وجاعل هلاكه ونجاة بني إسرائيل مما هم فيه على يديه.

قال ابن كثير(١): كانت دار أم موسى على حافة النيل، فاتّخذت تابوتاً ومهّدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته في ذلك التابوت وسيّرته في البحر وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعته في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٨٠).

أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مرّ به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها، ولهذا قال: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحَزَناً﴾.

قال قتادة: ﴿عدواً﴾ لهم في دينهم ﴿وحَزَنَاً﴾ لما يأتيهم ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾.

قال البغوي[1]: عاصين آثمين.

قال ابن جرير[2]: فلذلك كان لهم موسى عدوّاً وحَزَناً. وعن محمد بن قيس قال: ﴿قالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً﴾ قال فرعون: قرّة عين لك أمّا لي فلا. قال محمد بن قيس: قال رسول الله ﷺ: «لو قال فرعون: قرّة عين لي ولك، لكان لهما جميعاً»[3]. وعن قتادة ﴿وهم لا يشعرون﴾ قال: وهم لا يشعرون أن هلكتهم على يديه وفي زمانه.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ قال: فارغاً من كل شيء إلاّ من ذكر موسى ﴿إن كادت لتبدي به﴾ أن تقول: يا ابناه ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾.

قال البغوي[4]: بالعصمة والصبر والتثبيت ﴿لتكون من المؤمنين﴾ المصدّقين لوعد الله حين قال لها: ﴿إنا رادّوه إليك﴾.

وعن ابن عباس ﴿وقالت لأخته قُصّيه﴾، أي: قُصّي أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكراً، أحيّ ابني أو قد أكلته دوابّ البحر وحيتانه؟ ونسيت الذي كان الله وعدها.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٧٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٠/ ٣٢).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٣٣) مرسلاً.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٧٥).

وقوله تعالى: ﴿فبصُرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ وقال مجاهد: عن بُعْدٍ. قال قتادة: وهم لا يشعرون أنها أخته، قال: جعلت تنظر إليه كأنها لا تريده.

قوله عز وجل: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

عن مجاهد في قوله ﴿وحرّمنا عليه المراضع من قبل﴾ قال: لا يقبل ثدي امرأة حتى يرجع إلى أمه. وقال السدي: أرادوا المرضعات فلم يأخذ من أحد من النساء، وجعل النساء يطلبن ذلك لينزلن عند فرعون في الرضاع، فأبى أن يأخذ، فذلك قوله: ﴿وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت﴾ أخته ﴿هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾؟ فلما جاءت أمه أخذ منها. قال ابن جريج: فعلقوها حين قالت: ﴿وهم له ناصحون﴾ قالوا: قد عرفته، قالت: إنما أردت هم للملك ناصحون.

قال البغوي[1] **وقيل:** لما قالت: هل أدلكم على أهل بيت؟ قالوا لها: مَنْ؟ قالت: أمي، قالوا: ولأمك ابن؟ قالت: نعم هارون، وكان هارون ولد في سنة لا يُقتل فيها الولدان، قالوا: صدقت.

وقال ابن كثير[2]: فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه قالت: هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؟ قال ابن عباس: فلما قالت ذلك أخذوها وشكّوا في أمرها وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعته، فأرسلوها، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٧٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٨١ ـ ٣٨٢).

فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليه النفقة والصلات والكساوي والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضيّة، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً في عزّ وجاه ورزق دار؛ ولهذا جاء في الحديث: «مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»[1]؛ ولم يكن بين الشدّة والفرج إلاّ القليل، يوم وليلة أو نحوه والله أعلم؛ فسبحان من بيده الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن ألقاه بعد كل هم فرجاً وبعد كل ضيق مخرجاً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها﴾، أي: به ﴿ولا تحزن﴾، أي: عليه ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾، أي: فيما وعدها من ردّه إليها وجعله من المرسلين، فحينئذ تحقّقت بردّه إليها أنه كائن من رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً.

قوله تعالى: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، أي: حكم الله في أفعاله، وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل فيه خيراً كثيراً﴾. انتهى والله أعلم.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، ويبدو لي أن ابن كثير ساق الحديث بمعناه، ولفظه: «مثل الذين يغزون من أمتي، ويأخذون الجُعْل ــ يعني يتقون على عدوهم ــ مثل أم موسى ترضع ولدها، وتأخذ أجرها».
أخرجه سعيد بن منصور في سننه (ح/٢٣٦١)، ومن طريقه أبو داود في مراسيله (ح/٣٣٣)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢٧) عن جبير بن نفير عن أبيه.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

الدرس الثاني بعد المائتين

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ

وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قال ابن إسحاق: لما بلغ موسى أشدّه واستوى آتاه الله حكماً وعلماً، فكانت له من بني إسرائيل شيعة يسمعون منه ويطيعونه ويجتمعون إليه، فلما استند رأيه وعرف ما هو عليه من الحق، رأى فراق فرعون وقومه على ما هم عليه حقاً في دينه، فتكلّم وعادى وأنكر حتى ذُكر ذلك منه، وحتى أخافوه وخافهم، حتى كان لا يدخل قرية فرعون إلاّ خائفاً مستخفياً، فدخلها يوماً ﴿على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته﴾ مسلم، وهذا من أهل دين فرعون كافر ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدّة في البطش، فغضب بعدوّهما فنازعه ﴿فوكزه موسى﴾ وكزة قتله منها وهو لا يريد قتله، فقال: ﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضلّ مبين﴾ وعن مجاهد ﴿فوكزه موسى﴾ قال: بجميع كفّه ﴿قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ قال قتادة: عرف المخرج فقال: ﴿ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له﴾.

﴿قال رب بما أنعمت علي﴾.

قال ابن كثير[١]: أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فلن أكون ظهيراً﴾ أي معيناً ﴿للمجرمين﴾ أي الكافرين بك المخالفين لأمرك.

وعن ابن عباس قال: أتي فرعون فقيل له: إن بني إسرائيل قد قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقّنا ولا ترخّص لهم في ذلك، قال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، لا يستقيم أن نقضي بغير بيّنة ولا ثبت فاطلبوا ذلك، فبينما هم يطوفون لا يجدون شيئاً، إذ مرّ موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيليّ يقاتل فرعونياً، فاستغاثه الإسرائيليّ على الفرعونيّ، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه بالأمس وكره الذي رأى، فغضب موسى فمدّ يده وهو يريد أن يبطش بالفرعونيّ، فقال للإسرائيلي لِمَا فعل بالأمس واليوم ﴿إنك لغويّ مبين﴾ فنظر الإسرائيليّ إلى موسى بعد ما قال هذا، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس، فخاف الإسرائيليّ أن يكون إياه أراد فحاجّه فقال: ﴿يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾.

وعن قتادة ﴿إن تريد إلاّ أن تكون جباراً في الأرض﴾ هكذا تقتل النفس بغير النفس. وعن ابن إسحاق ﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ أي ما هكذا يكون الإصلاح.

قوله عز وجل: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قال ابن عباس: انطلق الفرعونيّ الذي كان يقاتل الإسرائيلي بالأمس إلى

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٨٢).

قومه، فأخبرهم بما سمع من الإسرائيليّ حين يقول: ﴿أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾؟ فأرسل فرعون الذبّاحين بقتل موسى، فأخذوا الطريق الأعظم وهم لا يخافون أن يفوتهم، وكان رجل من شيعة موسى في أقصى المدينة، فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره الخبر.

وعن قتادة ﴿فخرج منها خائفاً﴾ من قتله النفس ﴿يترقب﴾ أن يأخذه الطلب. وقال ابن إسحاق: ذكر لي أنه خرج على وجهه ﴿خائفاً يترقّب﴾ ما يدري أيّ وجه يسلك، وهو يقول: ربّ نجّني من القوم الظالمين، فهيّأ الله الطريق إلى مدين، فخرج من مصر بلا زاد ولا حذاء ولا ظهر ولا درهم. وقال ابن عباس: خرج موسى متوجّهاً نحو مدين، وليس له علم بالطريق، إلاّ حسن ظنه بربه، فإنه قال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

قال سعيد بن جبير: خرج موسى من مصر إلى مدين وبينها وبينها مسيرة ثمان، ولم يكن له طعام إلاّ ورق الشجر، وخرج فما وصل إليها حتى وقع خفّ قدمه.

وقوله تعالى: ﴿وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ قال أبو مالك: تحبسان غنمهما عن الناس حتى يفرغوا ويخلوا لهم البئر.

﴿قال ما خطبكما﴾؟ قال ابن إسحاق: وجد لهما رحمة ودخلت فيهما خشية

لما رأى من ضعفهما، وغلبة الناس على الماء دونهما فقال لهم: ما خطبكما؟ أي ما شأنكما؟ ﴿قالتا لا نسقي حتى يُصدر الرعاء﴾ امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال ﴿وأبونا شيخ كبير﴾ لا يقدر أن يمسّ ذلك من نفسه ولا يسقي ماشيته، ونحن ننتظر الناس حتى إذا فرغوا أسقينا ثم انصرفنا.

وقوله تعالى: ﴿فسقى لهما﴾ قال ابن عباس: فجعل يغرف في الدلو ماء كثيراً، حتى كانتا أول الرعاء ريّاً، فانصرفتا إلى أبيهما بغنمهما قال: وانصرف موسى إلى شجرة فاستظلّ بظلها ﴿فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ وما يسأل الله إلا أكلة وبرد الماء، وإن خضرة البقل لتُرى في بطنه من الهزال.

وعن ابن إسحاق ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ قال: واضعة يدها على جبينها. قال السدي: لما رجعت الجاريتان إلى أبيهما سريعاً سألهما فأخبرتاه خبر موسى، فأرسل إليه إحداهما فأتته تمشي على استحياء وهو يُستحى منه ﴿قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ فقام معها فمشت بين يديه فضربتها الريح فنظر إلى عجيزتها، فقال لها موسى: إمشي خلفي ودلّيني على الطريق إن أخطأت، فلما جاء الشيخ ﴿وقصّ عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ قال ابن عباس يقول: ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

عن ابن عباس: ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت

القويّ الأمين﴾ قال: فأحفظته الغيرة أن قال: وما يدريك ما قوّته وأمانته؟ قالت: أما قوَّته فما رأيت من حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما أمانته فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم إني امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر إليّ حتى بلّغته رسالتك، ثم قال: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلاّ وهو أمين، فَسُرِّيَ عن أبيها وصدّقها وظنّ به الذي قالت.

وقال ابن زيد: ﴿قال﴾ له ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حِجَج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشقّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾ قال: وأيّتهما تريد أن تنكحني؟ قال: التي دعتك، قال: لا ألا وهي بريئة مما دخل نفسك عليها، فقال: هي عندك كذلك فزوّجه.

وقال ابن إسحاق: ﴿قال﴾ موسى ﴿ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيتُ فلا عُدوان عليّ﴾ قال: نعم ﴿واللَّهُ على ما نقول وكيل﴾ فزوّجه وأقام معه يكفيه ويعمل له في رعاية غنمه وما يحتاج إليه منه. وقوله: ﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ﴾ أي لا ظلم عليّ بأن أطالَب بأكثر منهما. قال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل ﴿واللَّهُ على ما نقول وكيل﴾ قال ابن عباس: شهيد. وروى ابن ماجه في سننه عن النبي ﷺ قال: «إن موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشر سنين على عفّة فرجه وطعام بطنه»[1]. والله أعلم.

• • •

(١) أخرجه ابن ماجه (ح/ ٢٤٤٤)، والطبراني (١٧/ ١٣٥) من حديث عتبة بن الندر، بسند ضعيف.

الدرس الثالث بعد المائتين

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ
لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ
عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ
إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ
إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن
يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ
عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ
لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى

ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

عن قتادة: ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ قال: حدث ابن عباس قال: رعى نبيّ الله أكثرها وأطيبها.

وقوله تعالى: ﴿وسار بأهله﴾.

قال ابن كثير(١) قالوا: لأن موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمَّل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة باردة، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً، فتعجّب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿آنس من جانب الطور ناراً﴾، أي: رأى ناراً تضيء على بعد ﴿قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً﴾، أي: حتى أذهب إليها ﴿لعلي آتيكم منها بخبر﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أوجذوه من النار﴾ أي: قطعة منها ﴿لعلّكم تصطلون﴾، أي: تستدفئون بها من البرد. قال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٨٧).

الله تعالى: ﴿فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن﴾، أي: من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بالجانب الغربيّ إذا قضينا إلى موسى الأمر﴾[1] والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها فناداه ربه ﴿من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾، أي: الذي يخاطبك ويكلّمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء، لا إله غيره ولا رب سواه، تعالى وتقدّس وتنزّه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه.

وقوله: ﴿وأن ألق عصاك﴾، أي التي في يدك، كما قرّره على ذلك في قوله تعالى: ﴿وما تلك بيمنيك يا موسى قال هي عصاي﴾، والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفها ألقها ﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ وقال ههنا: ﴿فلما رآها تهتز﴾، أي: تضطرب ﴿كأنّها جانّ﴾، أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها ﴿ولّى مدبراً ولم يعقّب﴾، أي: ولم يكن يلتفت، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك، فلما قال الله له: ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين﴾ رجع فوقف في مقامه الأول.

ثم قال الله تعالى: ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾، أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال: ﴿من غير سوء﴾، أي: من غير برص. انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ قال ابن زيد: مما دخله من الفَرَقِ من الحيّة والخوف ﴿فذانك برهانان من ربك﴾ قال السدي: العصا واليد.

قال ابن جرير[2] يقول: آيتان وحجّتان ﴿إلى فرعون وملئه﴾ يقول: إلى

---

(١) سورة القصص: الآية ٤٤.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٠/ ٧٣).

فرعون وأشراف قومه، حجّة عليهم ودلالة على حقيقة نبوّتك يا موسى ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

عن ابن إسحاق: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدّقني﴾، أي: يبيّن لهم عنّي ما أكلّمهم به. وعن مجاهد: ﴿فأرسله معي ردءاً يصدّقني﴾ قال: عوناً. وقال ابن زيد: لأن الاثنين أحرى أن يُصَدَّقا من واحد ﴿قال سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾ قال مجاهد: حجّة ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾.

قال البغوي[1]: أي لا يصلون إليكما بقتل ولا سوء لمكان آياتنا.

﴿أنتما ومن اتّبعكما الغالبون فلما جاءهم موسى بآياتنا بيّنات﴾ واضحات ﴿قالوا ما هذا إلاّ سحر مفترى﴾.

قال ابن كثير[2]: أي مفتعل مصنوع ﴿وما سمعنا بهذا﴾ الذي تدعونا إليه ﴿في آبائنا الأولين وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده﴾ وسيفصل بينيوبينكم، ولهذا قال: ﴿ومن تكون له عاقبة الدار﴾، أي: العقبى المحمودة في الدنيا والآخرة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٨٩).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: أمر فرعون وزيره هامان أن يوقد له على الطين، يعني يتّخذ له آجُرّاً لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في الآية الأخرى ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعليّ أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطّلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زيّن لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلاّ في تباب﴾[2] وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم يُر في الدنيا بناء أعلى منه، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيّته تكذيب موسى فيما يزعمه من دعوى إله غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وإني لأظنّه من الكاذبين﴾، أي: في قوله: أن ثَمّ ربّاً غيري.

وقوله تعالى: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾، أي: طغوا وتجبّروا وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا مَعَاد ﴿فصبّ عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾[3] ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ﴾، أي: أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٩٠).

(٢) سورة غافر: الآية ٣٧.

(٣) سورة الفجر: الآية ١٣.

﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾، أي: فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذلّ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾، أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ قال البغوي[٢]: ﴿من المقبوحين﴾ الملعونين. وقال ابن عباس: من المشوّهين بسواد الوجوه وزرقة العيون. وقال قتادة: لعنوا في الدنيا والآخرة، قال: هو كقوله: ﴿وأُتْبِعُوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾[٣].

● ● ●

(١) سورة محمد: الآية ١٣.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨٤).

(٣) سورة هود: الآية ٩٩.

الدرس الرابع بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾، يعني: قوم نوح وعاداً وثمود وغيرهم، كانوا قبل موسى ﴿بصائر للناس﴾، يعني: ليبصروا بذلك الكتاب ويهتدوا به ﴿وهدى﴾ من الضلال لمن عمل به ﴿ورحمة﴾ لمن آمن به ﴿لعلهم يتذكّرون﴾ بما فيه من المواعظ والبصائر.

﴿وما كنت﴾ يا محمد ﴿بجانب الغربي﴾، يعني: بجانب الجبل الغربي. قال قتادة والسدي: قال ابن عباس: يريد حيث ناجى موسى ربه ﴿إذا قضينا إلى موسى الأمر﴾، يعني: عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ الحاضرين ذلك المقام فتذكره من ذات نفسك ﴿ولكنّا أنشأنا قروناً﴾ خلقنا أمماً من بعد موسى عليه السلام ﴿فتطاول عليهم العمر﴾، أي: طالت عليهم المهلة فنسوا عهد الله وميثاقه وتركوا أمره، وذلك أن الله تعالى قد عهد إلى موسى وقومه عهوداً في محمد ﷺ والإيمان به، فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها.

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٨٤).

﴿وما كنت ثاوياً﴾ مقيماً في أهل مدين كمقام موسى وشعيب فيهم ﴿تتلو عليهم آياتنا﴾ تذكّرهم بالوعد والوعيد. قال مقاتل يقول: لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿ولكنّا كنّا مرسلين﴾، أي: أرسلناك رسولاً وأنزلنا عليك كتاباً فيه هذه الأخبار فتتلوها عليهم، ولولا ذلك لما علمتها ولم تخبرهم بها ﴿وما كنت بجانب الطور﴾ بناحية الجبل الذي كلّم الله عليه موسى ﴿إذ نادينا ولكن رحمة من ربك﴾ قال ابن كثير[1]: أي ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكّرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين (٤٧) فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون (٤٨) قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين (٤٩) فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين (٥٠) ۞ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون (٥١)﴾.

قال البغوي[2]: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة﴾ عقوبة ونقمة ﴿بما قدّمت أيديهم﴾ من الكفر والمعصية ﴿فيقولوا ربنا لولا﴾ هلاّ ﴿أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ وجواب «لولا» محذوف: أي لعاجلناهم بالعقوبة،

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٩١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨٥).

يعني: لولا أنهم يحتجّون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم؛ وقيل: معناه لَمَا بعثناك إليهم رسولاً، ولكن بعثناك إليهم لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾، يعني: محمد ﷺ ﴿قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ من الآيات، قال الله تعالى: ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون﴾. قال مجاهد: يهود تأمر قريشاً أن تسأل محمداً مثل ما أوتي موسى، يقول الله لمحمد ﷺ: قل لقريش يقولوا لهم ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿قالوا سحران تظاهرا﴾ قالت ذلك أعداء الله اليهود للإنجيل والفرقان. وعن الضحاك ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾ يعنون الإنجيل والفرقان، وقال ابن كثير[1]: يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذّبهم قبل قيام الحجّة عليهم لاحتجّوا بأنهم لم يأتهم رسول، أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ، على وجه التعنّت والعناد ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾، يعنون والله أعلم: من الآيات الكثيرة ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل﴾؟، أي: أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة؟ وقالوا: ﴿ساحران تظاهرا﴾، أي: تعاونا، ﴿وقالوا إنا بكل كافرون﴾، أي: بكل منهما كافرون؛ ولشدّة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون، دلّ ذكر أحدهما على الآخر. قال: وأما من قرأ: ﴿سحران تظاهرا﴾، فعن ابن عباس: يعنون التوراة والقرآن. انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتّبعه إن كنتم صادقين﴾ قال ابن زيد: هو أهدى من هذين الكتابين الذي بعث به موسى والذي بعث به محمد ﷺ.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٩٢).

وقوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ قال ابن كثير[1]: أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتّبعوا الحق ﴿فاعلم أنما يتّبعون أهواءهم﴾، أي: بلا دليل ولا حجّة ﴿ومن أضلّ ممن اتّبع هواه بغير هدى من الله﴾، أي: بغير حجّة مأخوذة من كتاب الله ﴿إن الله لا يهدي القوي الظالمين﴾.

وعن قتادة: ﴿ولقد وصّلنا لهم القول﴾ قال: وصّل الله لهم القول في هذا القرآن يخبرهم: كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ﴿لعلّهم يتذكّرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥ ﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾ إلى قوله: ﴿الجاهلين﴾ قال: هم مسلمة أهل الكتاب. وفي الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدّى حقّ الله وحقّ مواليه، ورجل كانت له أمة فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوّجها»[2].

وقال ابن إسحاق: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم

(١) المصدر السابق(٣/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٩٧ و ٣٠١١)، ومسلم (ح/ ١٥٤).

القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدّقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم: خيّبكم الله من ركب، بعثكم مَنْ وراءكم مِنْ أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئنّ مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدّقتموه فيما قال؟! ما نعلم ركباً أحمق منكم، أو كما قالوا لهم، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نَأْلُ أنفسنا خيراً، إلى أن قال: ويقال والله أعلم أن فيهم نزلت هذه الآيات ﴿والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ إلى قوله: ﴿لانبتغي الجاهلين﴾.

• • •

الدرس الخامس بعد المائتين

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ
حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ
تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ
حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا
وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ
مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ
أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟
شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ
يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا
يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ
ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا

يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ
إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ
عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ
تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمّ قل: لا إله إلاّ الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: هو على ملّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلاّ الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك»، فأنزل الله ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾ وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾[1] رواه ابن جرير وغيره.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿إن نتّبع الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضنا﴾ قال: هم أناس من قريش قالوا لمحمد: إن نتّبعك يتخطّفنا الناس فقال الله: ﴿أو لم نمكّن

(١) أخرجه البخاري (ح/ ١٣٦٠ و ٣٨٨٤ و ٤٦٧٥ و ٤٧٧٢)، ومسلم (ح/ ٢٤).

لهم حرماً آمنا يُجْبَى إليه ثمرات كل شيء﴾ قال قتادة: يقول أولم يكونوا آمنين في حرمهم لا يُغْزَوْنَ فيه ولا يخافون ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ قال ابن عباس: ثمرات الأرض. قال ابن كثير[1]، أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رزقاً من لدنّا﴾، أي: من عندنا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ قال: البطر أشر أهل الغفلة وأهل الباطل، والركوب لمعاصي الله؛ وقال: ذلك البطر في النعمة. ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلاّ قليلاً﴾ يقول: فتلك دور القوم الذين أهلكناهم خربت فلم يعمر منها إلاّ أقلّها ﴿وكنا نحن الوارثين﴾.

وعن قتادة ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً﴾ وأم القرى مكة، وبعث الله إليهم رسولاً محمداً ﷺ.

قال البغوي[2]: وخصّ الأمّ ببعثة الرسول فيها، لأن الرسول يبعث إلى الأشراف، والأشراف يسكنون المدائن والمواضع التي هي أمّ ما حولها. وعن ابن عباس: ﴿وما كنا مهلكي القرى إلاّ وأهلها ظالمون﴾ قال الله: لم يهلك قرية بإيمان، ولكنه يهلك القرى بظلم إذا ظَلَمَ أهلها.

قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه﴾ قال: هو المؤمن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٩٥).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨٧).

سمع كتاب الله فصدّق به وآمن بما وعد الله فيه: ﴿كمن متّعناه متاع الحياة الدنيا﴾ وهو هذا الكافر ليس والله كالمؤمن ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضَرين﴾، أي: في عذاب الله. وقال مجاهد: أهل النار أُحْضِرُوها.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قال البغوي[(١)]: **قوله تعالى:** ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ في الدنيا أنهم شركائي ﴿قال الذين حقّ عليهم القول﴾ وجب عليهم العذاب، وهم رؤوس الضلالة ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا﴾، أي: دعوناهم إلى الغيّ وهم الأتباع ﴿أغويناهم كما غَوَيْنا﴾ أضللناهم كما ضللنا ﴿تبرّأنا إليك﴾ منهم ﴿ما كانوا إيّانا يعبدون﴾ بريء بعضهم من بعض وصاروا أعداء، كما قال تعالى: ﴿الأخلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدو﴾[(٢)].

﴿وقيل﴾ للكفار ﴿ادعوا شركاءكم﴾، أي: الأصنام لنخلّصكم من العذاب ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ لم يجيبوهم ﴿ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾ وجواب «لو» محذوف على تقدير: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب.

وقال ابن كثير[(٣)]: يقول تعالى مخبراً عما يوبّخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم ﴿فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾؟ يعني الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو تنصرونه؟

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٨٨).

(٢) سورة الزخرف: الآية ٦٧.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٩٧).

وهذا على سبيل التقريع والتهديد، كما قال تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾[1].

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

قال ابن كثير[2]: النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوّات، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره: مَنْ ربّك؟ ومن نبيّك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد: أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، ولهذا لا جواب له يوم القيامة، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ قال مجاهد: ﴿فعميت عليهم﴾ الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب.

قال البغوي[3]: ﴿فهم لا يتساءلون﴾ لا يجيبون. وقال قتادة: لا يحتجّون. وقيل: يسكتون لا يسأل بعضهم بعضاً. وقوله: ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾، أي: في الدنيا ﴿فعسى أن يكون من المفلحين﴾، أي: يوم القيامة، و «عسى» من الله موجِبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنّته لا محالة.

قوله عز وجل: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٤.

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٩٧).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨٩).

وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قال ابن كثير[١]: يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب. قال تعالى: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾، أي: ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه. وقوله: ﴿ما كان لهم الخِيَرَة﴾ نفي على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾[٢].

إلى أن قال: ولهذا قال: ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾، أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً؛ ثم قال تعالى: ﴿وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون وهو الله لا إله إلاّ هو﴾، أي: هو المنفرد بالألوهية فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه: ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾، أي: في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته ﴿وله الحكم﴾، أي: الذي لا معقّب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿وإليه ترجعون﴾، أي: جميعكم يوم القيامة فيجزى كل عامل بعمله.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٩٧).

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

قال في جامع البيان: ختم الأولى بقوله: ﴿أفلا تسمعون﴾ والثانية بقوله: ﴿أفلا تبصرون﴾ لمناسبة قوة السامعة بالليل وقوة الباصرة بالنهار.

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد: ﴿فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾، أي: في دار الدنيا: ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ قال مجاهد: يعني رسولاً ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾، أي: على صحّة ما ادّعيتموه من أن لله شركاء: ﴿فعلموا أن الحقّ لله﴾، أي: لا إله غيره، فلم ينطقوا ولا يُحْرُو جواباً: ﴿فضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾، أي: ذهبوا فلم ينفعوهم.

• • •

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٩٨).

الدرس السادس بعد المائتين

﴿ ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ

هُوَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

عن قتادة: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ كنا نحدث أنه كان ابن عمه أخي أبيه، وكان يسمى النور من حسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامريّ فأهلكه البغي، إنما بغى عليهم بكثرة ماله.

وعن مجاهد ﴿وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ قال: مفاتح من جلود كمفاتح العيدان. وعن ابن عباس في قوله ﴿لتنوء بالعصبة﴾ قال: لتثقل بالعصبة. قال قتادة: ذكر لنا أن العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين.

وعن مجاهد في قوله: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ قال: المتبذّخين الأشرين البَطِرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. وقال: هو فرح البغي.

وعن ابن عباس: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال: أن تعمل فيها لآخرتك. وعن قتادة: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال: طلب الحلال. قال ابن

كثير[1]: وقوله: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾، أي: استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك، والتقرّب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾، أي: مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزَوْرِك عليك حقاً، فآت كل ذي حق حقه ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾، أي: أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾، أي: لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسيء إلى خلق الله ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ قال: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا وقرأ ﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾؟ الآية. وعن مجاهد: ﴿ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ كقوله: ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم﴾[2] زرقاً سود الوجوه، والملائكة لا تسأل عنهم قد عرفتهم. وقال الحسن: لا يُسألون سؤال استعلام وإنما يُسألون سؤال تقريع وتوبيخ.

قوله عز وجل: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٩٩).

(٢) سورة الرحمن: الآية ٤١.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

عن مجاهد ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ قال: على براذين بيض عليها سروج الأرجوان عليهم المعصفرات. وعن قتادة: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ «ذُكر لنا أنه يخسف به كل يوم قامة، وأنه يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة»[(١)].

﴿فما كان له من فئة ينصرونه﴾، أي: جند ينصرونه، وما عنده منعة يمتنع بها من الله ﴿وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون ويكأنّ﴾ قال: ألم تر. وقال مجاهد: ألم تعلم. **وقال ابن كثير**[(٢)]: قال بعضهم: معناه ويلك اعلم وقواه، وقال: فلما خسف به أصبحوا يقولون ﴿ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾، أي: ليس المال بدالّ على رضى الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع ويضيّق ويوسّع يخفض ويرفع، وله الحكمة التامّة والحجّة البالغة؛ وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحبّ ومن لا يحبّ، ولا يعطي الإيمان إلاَّ من يحبّ»[(٣)].

﴿لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا﴾، أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به، لأنا وددنا أن نكون مثله ﴿ويكأنّه لا يفلح الكافرون﴾ يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/ ١١٩)، وروي موقوفاً عن سمرة بن جندب، أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه له السيوطي في «الدار» (٥/ ٢٦٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والدارقطني في «العلل» (٢/ ٤٤٧)، والحاكم (٢/ ٤٤٧) وصححه، ووافقه الذهبي!! وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٦٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٩/ ٩)، وسنده ضعيف، والصواب وقفه كما رجح ذلك الدارقطني رحمه الله في «علله».

قوله عز وجل: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

عن مسلم البطين ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً﴾ قال: العلوّ التكبر في الأرض بغير الحق، والفساد الأخذ بغير الحق. وعن ابن جريج قوله: ﴿للذين لا يريدون علوّاً في الأرض﴾ قال: تعظيماً وتجبّراً ﴿ولا فساداً﴾ عملاً بالمعاصي. وعن قتادة ﴿والعاقبة للمتّقين﴾، أي: الجنة للمتقين.

وقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾.

قال ابن كثير[1]: أي ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة؟ وهذا مقام الفضل؛ ثم قال: ﴿ومن جاء بالسيّئة فلا يجزى الذين عملوا السيّئات إلاّ ما كانوا يعملون﴾ وهذا مقام العدل.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد﴾ قال: إلى الجنة. وقال الحسن أي والله إن له لمعاداً يبعثه الله يوم القيامة ويدخله الجنة.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٠٢).

وعن ابن عباس: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد﴾ يقول: لرادّك إلى الجنة، ثم سائلك عن القرآن؛ وعنه ﴿لرادّك إلى معاد﴾ قال: إلى مكة.

قال ابن كثير[١]: ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسّر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ، إلى أن قال: ولهذا فسّر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لرادّك إلى معاد﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره، على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الإنس والجن.

وقال البغوي[٢]: ﴿قل ربـي أعلم من جاء بالهدى﴾، أي: يعلم من جاء بالهدى، وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبـي ﷺ: إنك لفي ضلال مبين، فقال الله عز وجل: ﴿قل﴾ لهم ﴿ربـي أعلم من جاء بالهدى﴾، أي: يعلم من جاء بالهدى، يعني: نفسه ﴿ومن هو في ضلال مبين﴾، يعني: المشركين، والله أعلم بالفريقين.

قوله تعالى: ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾، أي: يوحى إليك القرآن ﴿إلاّ رحمة من ربك﴾ قال الفرّاء: هذا من الاستثناء المنقطع معناه: لكن ربك رحمك فأعطاك القرآن ﴿فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين﴾، أي: معيناً لهم على دينهم. وقال مقاتل: وذلك حين دُعي إلى دين آبائه، فذكّره الله نعمه ونهاه عن مظاهرهم على ما هم عليه ﴿ولا يصدّنّك عن آيات الله﴾، يعني: القرآن ﴿بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك﴾ إلى معرفته وتوحيده ﴿ولا تكونّن من المشركين﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخطاب في الظاهر للنبـي ﷺ، والمراد به أهل دينه، أي: لا تظاهروا الكافرين ولا توافقوهم.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٠٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٩٤).

وقال ابن كثير[1]: وقوله: ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلاَّ هو﴾، أي: لا تليق العبادة إلاَّ له ولا تنبغي الإلهية إلاَّ لعظمته.

وقوله: ﴿كل شيء هالك إلاَّ وجهه﴾ إخبار بأنه الدائم ثم الباقي الحيّ القيّوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فعبّر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا ﴿كل شيء هالك إلاَّ وجهه﴾، أي: إلاَّ إياه. وقوله: ﴿له الحكم﴾، أي: الملك والتصرّف ولا معقّب لحكمه ﴿وإليه ترجعون﴾، أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم.

● ● ●

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٠٣).

الدرس السابع بعد المائتين

﴿سـورة العـنـكـبـوت﴾

مكية، وهي تسع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ

خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

قال البغوي[١]: ﴿ألّم أحسب الناس﴾ أظَنَّ الناس ﴿أن يُتركوا﴾ بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿أن يقولوا﴾، أي: بأن يقولوا ﴿آمنا وهم لا يفتنون﴾ لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم؟ كلا لنختبرنّهم، ليَبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب. وعن مجاهد ﴿ولقد فتنّا الذين من قبلهم﴾ قال: ابتلينا الذين من قبلهم. وفي الحديث الصحيح: «أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء»[٢].

وقوله تعالى: ﴿فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾.

قال البغوي[٣]: والله أعلم بهم قبل الاختبار، ومعنى الآية: وليظهرنّ الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه. وعن قتادة قوله: ﴿أم حسب الذين

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢ و ١٧٤ و ١٨٠ و ١٨٥)، والترمذي (ح/ ٢٣٩٨)، وابن ماجه (ح/ ٤٠٢٣)، والحاكم (١/ ٤٠ و ٤١) من حديث سعد بن أبي وقاص، وهو حديث صحيح.

(٣) المصدر السابق (٣/ ٣٩٦).

يعملون السيئات﴾، أي: أهل الشرك ﴿أن يسبقونا﴾ قال مجاهد: أن يعجزونا ﴿ساء ما يحكمون﴾.

قال ابن كثير[١]: بئس ما يظنون. ﴿من كان يرجو لقاء الله ﴾، أي: في الدار الآخرة وعمل الصالحات، ورَجَا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له. رجاءه ويوفّيه عمله كاملاً موفّراً، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء بصير بكل الكائنات، ولهذا قال تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾.

وقوله تعالى: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾ كقوله تعالى ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾، أي: من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غنيّ عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنيّ عن العالمين﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف.

ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم ومع برّه وإحسانه بهم، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفِّر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات ويثب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويجزي على السيّئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾[٢]، وقال ههنا: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفّرنّ عنهم سيّئاتهم ولنجزينّهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٠٤).

(٢) سورة النساء: الآية ٤٠.

لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

عن قتادة: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ إلى قوله: ﴿فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ قال: نزلت في سعد بن أبي وقاص لما هاجر قالت أمه: والله لا يُظِلُّني بيت حتى يرجع، فأنزل الله في ذلك أن يحسن إليهما ولا يطيعهما في الشرك.
وروى مسلم وغيره عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: نزلت فيّ أربع آيات، فذكر قصته وقال: قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر، واللَّهِ لا أَطْعَمُ طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها، فنزلت: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً وأن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تعطهما إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون﴾[1].

قال البغوي[2]: ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظلّ، فأصبحت قد جهدت، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها فقال: يا أمّاه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني فكلي وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيست منه أكلت وشربت، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمره بالبر بوالديه والإحسان إليهما وأن لا يطيعهما في الشرك، فذلك قوله عز وجل: ﴿وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾. جاء في الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٧٧ و ١٨٧٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٩٦).

(٣) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٠/ ٤٤) من حديث النواس بن سمعان، بسند ضعيف، لجهالة الزبرقان لكن له شاهد من حديث عمران بن حصين، والحاكم بن عمرو رضي الله عنهما، مرفوعاً: «لا طاعة لأحد في معصية الله تبارك وتعالى»، أخرجه أحمد (٥/ ٦٦)، والطيالسي (ص ١١٥)، والحاكم (٢/ ٤٤٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، فالحديث بهذا الشاهد حسن إن شاء الله تعالى.

ثم أوعد بالمصير إليه فقال: ﴿إليّ مرجعكم فأنبّئكم بما كنتم تعملون﴾ أخبركم بصالح أعمالكم وسيّئها فأجازيكم عليها.

وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين﴾، أي: في زمرة الصالحين وهم الأنبياء والأولياء. قال ابن جرير[1]: يقول تعالى ذكره: ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات﴾ وذاك أن يؤدّوا فرائض الله ويجتنبوا محارمه ﴿لندخلنّهم في الصالحين﴾ في مدخل الصالحين، وذلك الجنة.

قوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ قال: أن يرتدّ عن دين الله إذا أوذي في الله. وعن مجاهد قوله: ﴿فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ إلى قوله: ﴿وليعلمنّ المنافقين﴾ قال: أناس يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا، فجعلوا ذلك في الدنيا كعذاب الله في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ قال: قول كفار قريش

(١) انظر «جامع البيان» (٢٠/ ١٣٢).

بمكة لمن آمن منهم، يقول قالوا: لا نبعث نحن ولا أنتم فاتّبعونا إن كان عليكم شيء فهو علينا.

وعن قتادة ﴿وليحملنّ أثقالهم﴾، أي: أوزارهم ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾ يقول: أوزار من أضلّوا. وفي الصحيح عن النبـي ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[1].

وقوله تعالى: ﴿وليُسألنّ يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾، أي: سؤال توبيخ وتقريع.

• • •

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢٦٧٤) من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

الدرس الثامن بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا

لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ
وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذۡ
قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي
نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ
ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ
هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ
نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾
وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا
تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا
مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾
وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ
شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ

حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا. وعن مجاهد قال: قال لي ابن عمر: كم لبث نوح في قومه؟ قال: قلت: ألف سنة إلّا خمسين عاماً، قال: فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا.

وقوله تعالى: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ قال قتادة: أبقاها الله آية للناس بأعلى الجوديّ.

وقال ابن كثير[1]: أو نوعها، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناه رجوماً للشياطين﴾[2] أي وجعلنا نوعها رجوماً، فإن التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٠٧).
(٢) سورة الملك: الآية ٥.

ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

قال البغوي[1]: قوله تعالى: ﴿وإبراهيم﴾ أي وأرسلنا إبراهيم ﴿إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه﴾ أطيعوه وخافوه ﴿ذلكم خير إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثاناً﴾ أصناماً ﴿وتخلقون إفكاً﴾ تقولون كذباً، قال مقاتل: تصنعون أصناماً بأيديكم فتسمّونها آلهة ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾ لا يقدرون أن يرزقوكم ﴿فابتغوا﴾ فاطلبوا ﴿عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ مثل عاد وثمود وغيرهم فأهلكوا ﴿وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده﴾ بالبعث بعد الموت ﴿إن ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ خلق السموات والأرض ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾، أي: البعث بعد الموت. وعن ابن عباس قوله: ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾ قال: هي الحياة بعد الموت، وهو النشور.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٣٩٨).

قال البغوي[١]: فكما لم يتعذّر عليه إحداثها مبتدئاً لا يتعذّر عليه إنشاؤها معيداً ﴿إن الله على كل شيء قدير يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ تُرَدّون.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ قال: لا يعجزه أهل الأرضين في الأرضين، ولا أهل السموات في السموات، إن عصوه ﴿وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير﴾.

قال البغوي[٢]: أي ﴿من وليّ﴾ يمنعكم مني ﴿ولا نصير﴾ ينصركم من عذابي.

وقوله تعالى: ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي بالقرآن وبالبعث ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ موجع وهو عذاب النار.

قوله عز وجل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فما كان جواب قومه﴾ قوم إبراهيم ﴿إلاّ أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار﴾ قال: كعب ما حرقت منه إلاّ وثاقه ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٩٩).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٩٩).

وعن قتادة ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ قال: صارت كل خلّة في الدنيا عداوة على أهلها يوم القيامة إلاَّ خلّة المتّقين.

وعن ابن عباس قوله: ﴿فآمن له لوط﴾ قال: صدّقه لوط ﴿وقال إني مهاجر إلى ربـي﴾ قال: هو إبراهيم. وقال قتادة: هاجرا جميعاً من كوثى، وهي من سواد الكوفة إلى الشام.

وقوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾. عن قتادة قوله: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ قال: عافية وعملاً صالحاً وثناء حسناً، فلست بِلاَقٍ أحداً من الملأ إلاَّ يرضى إبراهيم ويتولاّه ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

عن عمرو بن دينار في قوله: ﴿إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط. وعن أم هانىء قالت: سألت النبـي ﷺ عن قوله: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: «كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم»[1]. رواه ابن جرير وغيره.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٣٤١ و ٤٢٤)، والترمذي (ح/٣١٩٠) وحسنه، وابن أبـي الدنيا في «الصمت» (ح/٢٨٢)، وابن جرير (٢٠/١٤٥)، والطبراني (٢٤/٤١١ و ٤١٢)، والحاكم =

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ إلى قوله: ﴿نحن أعلم بمن فيها﴾ قال: فجادل إبراهيم الملائكة في قوم لوط أن يتركوا، قال فقال: أرأيتم إن كان فيها عشر أبيات من المسلمين أتتركونهم؟ فقالت الملائكة: ليس فيها عشر أبيات ولا خمسة ولا أربعة ولا ثلاثة ولا اثنان، قال: فحزن على لوط وأهل بيته فـ ﴿قال إنّ فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجّينّه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين﴾ فذلك قوله: ﴿يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾[1] فقالت الملائكة: يا إبراهيم أعرض عن هذا، إنه قد جاء أمر ربك، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود.

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

= (٢/ ٤١٠) وصححه على شرط مسلم، وقال الذهبي: «على شرط البخاري ومسلم»!! قلت: وفي سنده أبو صالح مولى أم هانىء وهو ضعيف، والبخاري ومسلم لم يخرجا له فكيف يكون على شرطهما. قوله: «يحذفون» بالحاء، أي: الضرب بالعصا، وفي رواية: «يخذفون» بالخاء، أي: الرمي بالحصا أو النواة تأخذهما بين الإبهام والسبابة.

(١) سورة هود: الآية ٧٥.

عن قتادة قوله: ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ قال: بالضيافة مخافة عليهم مما يعلم من شر قومه.

وعن مجاهد قوله: ﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة﴾ قال: عبرة. وقال ابن عباس: الآية البيّنة هي آثار منازلهم الخربة.

قوله عز وجل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: وقوله: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ نهاهم عن العبث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلّة الذي أزهق الأرواح من مستقرّها، إنه كان عذاب يوم عظيم.

قوله عز وجل: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤١٢).

قال البغوي[١]: ﴿وعاداً وثمود﴾، أي: وأهلكنا عاداً وثمود. وعن قتادة: وكانوا متبصّرين في ضلالتهم، معجبين بها، قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر.

وقوله تعالى: ﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾، أي: فائتين من عذابنا ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ وهم عاد ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ يعني ثمود ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون وأصحابه ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهم فرعون وهامان وجنودهما ﴿وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

● ● ●

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٠١).

الدرس التاسع بعد المائتين

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ إلى آخر الآية، قال: ذلك مثل ضربه الله لمن عبد غيره. وقال قتادة: هذا مثل ضربه للمشرك، مثل إلهه الذي يدعوه من دون الله كمثل بيت العنكبوت واهن ضعيف لا ينفعه. وقال ابن زيد: لا يغني أولياؤهم عنهم شيئاً، كما لا يغني العنكبوت بيتها هذا.

قال ابن كثير[١]: ثم قال تعالى متوعّداً لمن عبد غيره وأشرك به، أنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم، ثم قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون﴾، أي: وما يفهمها ويتدبّرها إلاّ الراسخون في العلم المتضلّعون منه. وعن جابر أن النبـي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس ما يعقلها إلاّ العالمون﴾ قال: العالم من لم يغفل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»[٢]. رواه

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤١٤).

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٣/ ٤٠٢)، بسند موضوع.

البغوي وعن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلاَّ أحزنني، لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلاَّ العالمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾.

قال البغوي[1]، أي: للحق وإظهار الحق: ﴿إن في ذلك﴾ في خلقها: ﴿لآية﴾ لدلالة: ﴿للمؤمنين﴾ على قدرته وتوحيده.

قوله عز وجل: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ يقول: في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله؛ وقال: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته من الله إلاَّ بعداً.

وعن عبد الله بن ربيعة قال: قال عبد الله بن عباس: هل تدري ما قوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ قال قلت: نعم، التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة، وقراءة القرآن ونحو ذلك، قال: لقد قلت قولاً عجباً وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم إياه. وعن ابن عون في قول الله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ قال: لها وجهان: ذكر الله أكبر مما سواه، وذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: والصحيح أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان،

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٠٢).

(٢) انظر «الفتاوى» (١٠/ ٧٥٣).

أحدهما أعظم من الآخر، ولما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر: ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ فيجازيكم.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالتي هي أحسن﴾ قال: ليست بمنسوخة. انتهى. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1].

قال ابن كثير[2]: وقوله تعالى: ﴿إلاَّ الذين ظلموا منهم﴾، أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح الحجّة، وعاندوا وكابروا فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد. وعن سعيد: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالتي هي أحسن إلاَّ الذين ظلموا منهم﴾ قال: أهل الحرب من لا عهد له جادله بالسيف. وعن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية فيفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون»[3]. رواه ابن جرير وغيره.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤١٥).

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٤٤٨٥ و ٧٣٦٢ و ٧٧٤٢).

وقوله تعالى: ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب﴾.

قال البغوي[١]: وكذلك يعني كما أنزلنا إليهم الكتاب ﴿أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب ﴿ومن هؤلاء﴾ يعني أهل مكة: ﴿من يؤمن به﴾ وهم مؤمنو أهل مكة ﴿وما يجحد بآياتنا إلاّ الكافرون﴾ وذلك أن اليهود وأهل مكة عرفوا أن محمداً نبيّ، والقرآن حقّ فجحدوا. وقال قتادة: الجحود إنما يكون بعد المعرفة.

﴿وما كنت تتلو﴾ يا محمد: ﴿من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك﴾ يعني لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي: ﴿إذاً لارتاب المبطلون﴾ قال قتادة: إذاً لقالوا: إنما هذا شيء تعلّمه محمد وكتبه.

وقال الحسن في قوله: ﴿بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ القرآن: ﴿آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ يعني المؤمنين.

قال ابن كثير[٢]: ولهذا جاء في صفة هذه الأمة: أناجيلهم في صدورهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٠٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤١٧).

قال ابن كثير[١]: يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنّتهم وطلبهم ﴿آيات﴾ يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد: ﴿إنما الآيات عند الله﴾، أي: إنما أمر ذلك إلى الله.

وقوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾، أي: إنما بعثت نذيراً لكم، بيّن النذارة فعليّ أن أبلغكم رسالة الله تعالى، و ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً﴾[٢].

ثم قال تعالى مبيّناً كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلّهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم﴾، أي: أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمّيّ لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح؟ انتهى ملخصاً. وذكر الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء إلاّ قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[٣].

وقال البغوي[٤]: ﴿إن في ذلك﴾ في إنزال القرآن: ﴿لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾، أي: تذكيراً وعظة لمن آمن وعمل بها: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤١٨).

(٢) سورة الكهف: الآية ١٧.

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٤٩٨١ و ٧٢٧٤)، ومسلم (ح/ ١٥٢).

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٠٥).

شهيدا﴾ أنّي رسوله وهذا القرآن كتابه ﴿يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل﴾ قال ابن عباس: بغير الله. وقال قتادة: بعبادة الشيطان: ﴿وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾.

قال ابن كثير[١]: في يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذّبوا برسل الله مع قيام الأدلّة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم.

● ● ●

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤١٨).

الدرس العاشر بعد المائتين

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحلّ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[2] وقال ههنا: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾، أي: لولا ما حتّم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة، لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، ثم قال: ﴿وليأتينّهم بغتة﴾، أي: فجأة ﴿وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، أي: يستعجلون العذاب، وهو واقع بهم لا محالة ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾.

قال ابن جرير[3]: يقول جلّ ثناؤه: ﴿ويقول الله لهم ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ في الدنيا من معاصي الله وما يسخطه فيها.

قوله عز وجل: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(١) المصدر السابق (٣/٤١٨).
(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٢.
(٣) انظر «جامع البيان» (٢١/٨).

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

قال البغوي[1]: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة ﴿إن أرضي﴾، يعني: المدينة ﴿واسعة﴾ آمنة. قال مجاهد ﴿إن أرضي واسعة﴾ فهاجروا وجاهدوا فيها. وقال سعيد بن جبير: إذا عُمل في الأرض بالمعاصي فاخرجوا منها، فإن أرضي واسعة. وقال عطاء: إذا أُمرتم بالمعاصي فاهربوا، فإن أرضي واسعة، وكذلك يجب على كل من كان في بلد يُعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك، أن يهاجر إلى حيث تتهيّأ له العبادة. انتهى.

وعن أبي مجلز في هذه الآية ﴿وكأيّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم﴾ قال: من الدواب ما لا يستطيع أن يدّخر لغد، فوقف رزقه كل يوم حتى يموت. وعن أبي هريرة مرفوعاً: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحّوا، واغزوا تغنموا»[2].

رواه أحمد. وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس ليس من شيء يقرّبكم إلى الجنة ويباعدكم من النار، إلاّ وقد أمرتكم به، وليس من شيء يقربكم إلى النار ويباعدكم عن الجنة، إلاّ وقد نهيتكم عنه،

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٠٦).

(٢) لم أقف عليه عند أحمد بهذا اللفظ، والذي عنده بلفظ: «سافروا تصحوا، واغزوا تستغنوا» أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٠) من حديث أبي هريرة، بسنده ضعيف. وروي نحوه بلفظ: «سافروا تصحوا وتغنموا»، أخرجه ابن عدي (٢/ ٢٩٩)، والخطيب في تاريخه (١٠/ ٣٨٧)، والقضاعي (١/ ٣٦٤) من حديث ابن عمر، بسند ضعيف جداً.

وإن الروح الأمين قد نفث في روعي: إنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها، فاتّقوا الله وأجمِلوا في الطلب، ولا يحملنّكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا يدرَك ما عند الله إلاّ بطاعته»[1].

قوله عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قال ابن كثير[2]: يقول تعالى مقرّراً أنه لا إله إلاّ هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره، معترفون بأنه المستقلّ بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدّر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم، ففاوت بينهم فمنهم الغنيّ والفقير، وهو العليم بما يُصلح كلاًّ منهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقلّ بخلق الأشياء المتفرّد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره ولم يتوكّل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته؛ وكثيراً ما يقرّر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما يقولون في تلبيتهم: لبيّك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك. انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي

---

(١) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠٥) بسند ضعيف، وله شاهد من حديث أبي أمامة بنحوه وسيأتي تخريجه.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢١).

الحيوان﴾ قال مجاهد: لا موت فيها. قال ابن كثير[1]: وقوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾، أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

ذكر ابن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي ههنا إلاّ هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البرّ أيضاً غيره. اللهم لك عليّ عهد لئن خرجت لأذهبنّ فلأضعنّ يدي في يد محمد، فلأجدنّه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك.

وقال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام، فإذا اشتدت بهم الريح ألقوها في البحر.

وقوله تعالى: ﴿فلما نجّاهم إلى البر إذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم وليتمتّعوا فسوف يعلمون﴾، أي: لا فائدة لهم في الإشراك إلاّ الكفر والتمتّع بما يتمتّعون به في العاجلة، من غير نصيب في الآخرة.

وعن قتادة في قوله: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويُتَخطَّفُ الناس من

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٢١).

حولهم﴾ قال: كان لهم في ذلك آية إن الناس يغزون ويتخطفون وهم آمنون ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾، أي: بالشرك ﴿وبنعمة الله يكفرون﴾ يجحدون؟.

وقوله تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بالحق لما جاءه﴾، أي: لا أحد أشدّ عقوبة ممن كذب على الله أو كذّب بكتابه، فالأول مفترٍ والثاني مكذّب ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾.

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾.

قال ابن كثير[1]: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾، يعني: الرسول وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لنهدينّهم سبلنا﴾، أي: طريقنا في الدنيا والآخرة. وقال الحسن: أفضل الجهاد مخالفة الهوى. قال البغوي[2]: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ بالنصر والمعونة في دنياهم، وبالثواب والمغفرة في عقباهم.

• • •

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٢٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٠٨).

الدرس الحادي عشر بعد المائتين

﴿سـورة الـروم﴾

مكية، وهي ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟

بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

قال ابن عباس: كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم لأنهم أهل الكتاب، وكان المشركون يحبون أن تغلب فارس لأنهم أهل أوثان، قال فذكروا ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «أما إنهم سَيُهْزَمُون»، فذكر ذلك أبو بكر للمشركين قال فقالوا: أفنجعل بيننا وبينكم أجلاً؟ فإن غلبوا كان لك كذا وكذا، وإن غلبنا كان لنا كذا وكذا، قال: فجعلوا بينه وبينهم أجلاً خمس سنين، قال: فمضت فلم يغلبوا، قال: فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال له: «أفلا جعلته دون العشر؟» قال سعيد: والبضع ما دون العشر. قال: فغُلِبَ الروم ثم غَلَبَتْ، قال فذلك قوله: ﴿ألم غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سَيَغْلِبون في بضع سنين﴾ قال: البضع ما دون العشر ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ قال سفيان: فبلغني أنهم غلبوا يوم بدر. وعند الترمذي من حديث آخر: «وذلك قبل تحريم الرهان»[1].

وقوله تعالى: ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ عن ابن عباس قوله:

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٧٦ و٣٠٤)، والترمذي (ح/٣١٩٣)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في «الكبرى» (٦/٤٢٦)، وابن جرير (٢١/١٦)، والطبراني (١٢/٢٩)، والحاكم (٢/٤١٠)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٣٣٠ ــ ٣٣١)، وهو حديث صحيح.

﴿ظاهراً من الحياة الدنيا﴾، يعني: الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهّال.

قوله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠﴾.

قال ابن كثير[(١)]: يقول تعالى منبّهاً على التفكّر في مخلوقاته الدالّة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أولم يتفكّروا في أنفسهم﴾، يعني به: النظر والتدبّر والتأمّل لخلق الله الأشياء من العالم العلويّ والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوّعة والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خُلقت سدى ولا باطلاً بل بالحق، وأنها مؤجّلة إلى أجل مسمّى وهو يوم القيامة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإنّ كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾.

ثم نبّههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيّدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدّقهم، فقال تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾، أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين؟ ولهذا قال: ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّة﴾، أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشدّ منكم قوّة، أيها المبعوث

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٢٧).

إليهم محمد ﷺ، وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكّنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعماراً طوالاً فعمروها أكثر منكم واستغلّوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبيّنات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرّة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحلّ بهم من العذاب والنكال.

﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾، أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذّبوا بآيات الله واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدّم، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، أي: كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴿ثم إليه ترجعون﴾، أي: يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله، ثم قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يُبلس المجرمون﴾ قال ابن عباس: ييأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون، وفي رواية: يكتئب المجرمون

﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾، أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى بل كفروا بهم.

ثم قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون﴾ قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها، ولهذا قال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يُحْبَرُون﴾ قال مجاهد: ينعمون ﴿وأما الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب مُحْضَرون﴾.

وقوله تعالى: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تُظْهِرُون﴾ هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدّسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة. قال ابن عباس: جمعت هاتان الآيتان مواقيت الصلاة ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ قال: المغرب والعشاء ﴿وحين تصبحون﴾ الفجر ﴿وعشيّاً﴾ العصر ﴿وحين تظهرون﴾ الظهر.

وقوله تعالى: ﴿يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ﴾ قال ابن مسعود: ويخرج النطفة من الرجل ميتة وهو حيّ، ويخرج الرجل منها حيّاً وهي ميتة.

وقوله تعالى: ﴿ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تُخْرَجُون﴾ كقوله تعالى: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾[1].

● ● ●

(١) سورة فصلت: الآية ٣٩.

الدرس الثاني عشر بعد المائتين

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ۝٢٢ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣﴾.

عن قتادة: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ خلق آدم عليه السلام من تراب: ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ يعني ذريته. ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ خلقها لكم من ضلع من أضلاعه ﴿وجعل بينكم مودّة ورحمة﴾ قال البغوي[1]: وجعل بين الزوجين المودّة والرحمة، فهما يتوادّان ويتراحمان، وما شيء أحبّ إلى أحدهما من الآخر من غير رَحِمٍ بينهما: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾ في عظمة الله وقدرته.

قوله: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ يعني اختلاف اللغات من العربية والعجمية وغيرهما: ﴿وألوانكم﴾ أبيض وأسود وأحمر وأنتم ولد رجل واحد وامرأة واحدة ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ قرأ حفص بكسر اللام: ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾، أي: تصرّفكم في طلب المعيشة: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ سماع تذير واعتبار.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤١٣).

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

قال ابن كثير[(١)]: **يقول تعالى:** ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته أنه: ﴿يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾، أي: تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق مقلقة، وتارة ترجون وميضه. وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وينزّل من السماء ماء فيحيـي به الأرض بعد موتها﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة؛ ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

وعن قتادة: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ قامتا بأمره من غير عَمَدٍ: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ قال: دعاهم فخرجوا من الأرض. وقال ابن عباس: من القبور. قال ابن كثير: ثم قال تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ كقوله تعالى: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه﴾[(٢)] وقوله: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾[(٣)]؛ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين قال: والذي تقوم السماء والأرض بأمره، أي: قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدّلت الأرض غير الأرض والسموات

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٣٠).

(٢) سورة الحج: الآية ٦٥.

(٣) سورة فاطر: الآية ٤١.

وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ وعن ابن عباس قوله: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ إلى ﴿كل له قانتون﴾ يقول: مطيعون، يعني الحياة والنشور والموت، وهم عاصون له فيما سوى ذلك من العبادة.

﴿وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ يقول: كل شيء عليه هيّن. وقال عكرمة: تعجّب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت: ﴿وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ إعادة الخلق أهون عليه من ابتدائه. وعن مجاهد قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ قال: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هيّن. وعن ابن عباس قوله: ﴿وله المثل الأعلى﴾ يقول: ليس كمثله شيء. وعن قتادة: ﴿وله المثل الأعلى﴾ في السموات والأرض، قال مَثَلُهُ إنه لا إله إلاّ هو ولا رب غيره ﴿وهو العزيز الحكيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٣١).

الجاعلين له شركاء من خلقه، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له، كما كانوا يقولون: لبيّك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك؛ فقال تعالى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾، أي: تشهدونه وتفهمونه ﴿من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء﴾، أي: أيرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله؟ فهو وهو فيه على السواء ﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾، أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال أبو مجلز: إن مملوكك لا يخاف أن يقاسمك مالك وليس له، كذلك الله لا شريك له، والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه؟

﴿كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون﴾ قال البغوي[1]: ينظرون إلى هذه الدلائل بعقولهم: ﴿بل اتبع الذين ظلموا﴾ أشركوا بالله: ﴿أهواءهم﴾ في الشرك: ﴿بغير علم﴾ جهلاً بما كتب عليهم: ﴿فمن يهدي من أضلّ الله﴾، أي: أضلّه الله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ مانعين يمنعونهم من عذاب الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾، أي: أخلص دينك لله حنيفاً مائلاً إلى التوحيد مستقيماً عليه. قال ابن زيد في قوله: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ قال: الإسلام مذ خلقهم الله من آدم جميعاً يقرّون بذلك، وقرأ: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ قال: فهذا قول الله: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين﴾ بعد. وعن يزيد بن أبـي مريم قال: مرّ عمر بمعاذ بن جبل فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث وهنّ المنجيات: الإخلاص وهو الفطرة ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ والصلاة وهي الملّة، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر: صدقت»[2].

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤١٥).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢١/ ٤٠).

وقوله تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ قال مجاهد: لدين الله. وقال البخاري قوله: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ دين الله خلق الأولين دين الأولين، الدين والفطرة الإسلام؛ ثم ذكر حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلَّا على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء؟ ثم يقول: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم﴾»[1].

قال البغوي[2]: فمن حمل الفطرة على الدين قال: معناه لا تبديل لدين الله، وهو خبر بمعنى النهي، أي: لا تبدّلوا دين الله. قال مجاهد وإبراهيم معنى الآية: الزموا فطرة الله، أي: دين الله، واتّبعوه ولا تبدّلوا التوحيد بالشرك: ﴿ذلك الدين القيّم﴾ المستقيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ يقول تعالى: ﴿فأقم وجهك﴾ أنت يا محمد ومن اتبعك ﴿منيبين إليه﴾، أي: راجعين إليه: ﴿واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ بل كونوا من الموحّدين المصلّين الطائعين. قال ابن جرير: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ يقول: ولا تكونوا من أهل الشرك بالله، بتضييعكم فرائضه وركوبكم معاصيه، وخلافكم الدين الذي دعاكم إليه.

وقوله: ﴿من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً﴾ يقول: ولا تكونوا من المشركين الذين بدّلوا دينهم وخالفوه: ﴿وكانوا شِيَعاً﴾ يقول: وكانوا أحزاباً، فِرَقاً كاليهود والنصارى.

وقوله: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ يقول: كل طائفة وفرقة من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحق، فأحدثوا البدع التي أحدثوا، ﴿بما لديهم فرحون﴾

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٧٥)، ومسلم (ح/ ٢٦٥٨).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٤١٥).

يقول: بما هم به متمسّكون من المذهب ﴿فرحون﴾ مسرورون، يحسبون أن الصواب معهم دون غيرهم». انتهى ملخصاً.

وقال ابن كثير[١]: فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومِلل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نِحَلٍ كلّها ضلالة إلاَّ واحدة، وهم أهل السنَّة والجماعة المتمسّكون بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه، أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال: «من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[٢].

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي (ح/ ٢٦٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨ ــ ١٢٩)، من حديث عبد الله بن عمرو، وسنده ضعيف، لكن للحديث شاهد يتقوى به عن معاوية رضي الله عنه بنحوه: أخرجه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (ح/ ٤٥٩٧)، والدارمي (٢/ ٢٤١)، والحاكم (١/ ١٢٨) وصححه، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ١٠١ ــ ١٠٢)، والطبراني (١٩/ ٨٨٤ و ٨٨٥)، وهو حديث صحيح يشهد له ما قبله وما بعده، وشاهد آخر عند أنس ــ رضي الله عنه ــ : أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠ و ١٤٥)، وابن ماجه (ح/ ٣٩٩٢)، واللالكائي (١/ ١٠٠)، وفي سنده ضعف.

الدرس الثالث عشر بعد المائتين

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال ابن كثير[١]: يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره. وقوله تعالى: ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عن آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك؛ ثم توعّدهم بقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ قال بعضهم: والله لو توعّدني حارس درب لخفتُ منه، فكيف والمتوعّد ههنا هو الذي يقول للشيء: كن فيكون؟

ثم قال تعالى: منكراً على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجّة ولا برهان ﴿أم أنزلنا عليها سلطاناً﴾، أي: حجّة ﴿فهو يتكلّم﴾، أي: ينطق بما كانوا به يشركون؟ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلاّ من عصمه الله ووفّقه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال: ﴿ذهب السيّئات عنّي إنه

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٣٤).

لفرح فخور﴾ أي يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدّة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلّيّة، قال الله تعالى: ﴿إلاَّ الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾[1]، أي: صبروا في الضرّاء وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلاَّ كان خيراً له، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له»[2].

وقوله تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾، أي: هو المتصرّف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسّع على قوم ويضيّق على آخرين ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

عن الحسن ﴿فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل﴾ قال: هو أن توفّيهم حقّهم إن كان عندك يسر، وإن لم يكن عندك ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ قل لهم الخير.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله﴾ قال: هو ما يعطي الناس بينهم بعضهم بعضاً، يعطي الرجل الرجل العطيّة يريد أن يعطى أكثر منها. وقال مجاهد: هي الهدايا، وقال الضحاك في قوله: ﴿وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس﴾ فهو ما يتعاطى الناس بينهم ويتهادون، يعطي الرجل العطيّة ليصيب منه أفضل منها، وهذا للناس عامة، وأما قوله: ﴿ولا

(١) سورة هود: الآية ١١.

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

تمنن تستكثر﴾[1] فهذا للنبي خاصة، لم يكن له أن يعطي إلاّ لله، ولم يكن يعطي ليعطى أكثر منه. وقال ابن عباس قوله: ﴿وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله﴾ قال: هي الهبة، يهب الشيء يريد أن يثاب عليه أفضل منه، فذلك الذي ﴿لا يربو عند الله﴾ لا يؤجر فيه صاحبه، ولا إثم عليه ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ قال: هي الصدقة ﴿تريدون وجه الله فأولئك هم المضعِفون﴾، قال قتادة: هذا الذي يقبله الله ويضعفه لهم عشر أمثالها وأكثر من ذلك.

قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ للبعث بعد الموت ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾؟ لا والله ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ سبّح نفسه إذا قيل عليه البهتان.

وعن الحسن في قوله: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ قال: أفسدهم الله بذنوبهم في بحر الأرض وبرّها بأعمالهم الخبيثة ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلّهم يرجعون﴾ وقال قتادة: لعل راجعاً أن يرجع، لعلّ تائباً أن يتوب، لعلّ مستعتباً أن يستعتب. وقوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾.

قال البغوي[2]: لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ فأهلكوا بكفرهم.

(١) سورة المدثر: الآية ٦.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/٤١٨).

قوله عز وجل: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فأقم وجهك للدين القيّم﴾ الإسلام ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذٍ يصدعون﴾ فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقوله تعالى: ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾.

قال ابن جرير[1]: يقول تعالى ذكره: من كفر بالله فعليه أوزار كفره وآثام جحوده نعم ربه ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ يقول: فلأنفسهم يستعدّون ويسوّون المضجع ليسلموا من عقاب ربهم ولينجوا من عذابه.

﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾.

قال ابن كثير[2]: أي يجازيهم مجازاة الفضل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور.

● ● ●

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢١/ ٥١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٣٦).

الدرس الرابع عشر بعد المائتين

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟

إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشّرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وليذيقكم من رحمته﴾، أي: المطر الذي ينزله فيحيي به البلاد والعباد ﴿ولتجري الفلك بأمره﴾، أي: في البحر ﴿ولتبتغوا من فضله﴾، أي: في التجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر ﴿ولعلّكم تشكرون﴾، أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعدّ ولا تحصى.

ثم قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبيّنات فانتقمنا من الذين أجرموا﴾ هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، بأنه وإن كذّبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كُذّبت الرسل المتقدّمون مع ما جاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن انتقم الله ممن كذّبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾، أي: هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرّماً وتفضّلاً، كقوله تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾[2].

قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٣٦).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قال عبيد بن عمير: الرياح أربع: يبعث الله ريحاً فتقمّ الأرض قماً، ثم يبعث الله الريح الثانية فتثير سحاباً فيجعله في السماء كسفاً، ثم يبعث الله الريح الثالثة فيؤلّف بينه فيجعله ركاماً، ثم يبعث الله الريح الرابعة فتمطر. وعن قتادة ﴿ويجعله كسفاً﴾، أي: قطعاً ﴿فترى الودق﴾ قال مجاهد: القطر ﴿يخرج من خلاله﴾ **قال ابن كثير**[1]: أي فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب. وقوله تعالى: ﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم من قبله لمبلسين﴾ قال قتادة: قانطين. قال في جامع البيان ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم﴾ المطر ﴿من قبله﴾ تكرير للتأكيد، ومعنى التأكيد الدلالة على بُعد عهدهم بالمطر واستحكام بأسهم ﴿لمبلسين﴾ آيسين. وقوله تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ **قال البغوي**[2]: أراد برحمة الله المطر، أي: انظر إلى حسن تأثيره في الأرض، **قال مقاتل**: أثر رحمة الله أي أثر نعمته وهو النبت ﴿كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾. ﴿ولئن أرسلنا ريحاً﴾ باردة مضرّة فأفسدت الزرع ﴿فرأوه مصفرّاً﴾، أي: رأوا

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٣٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤١٩).

النبت والزرع مصفراً بعد الخضرة ﴿لظلّوا﴾ لصاروا ﴿من بعده﴾، أي: من بعد اصفرار الزرع ﴿يكفرون﴾ يجحدون ما سلف من النعمة. وعن قتادة قوله: ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ هذا مثل ضربه الله للكافر، فكما لا يسمع الميت الدعاء كذلك لا يسمع الكافر ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين﴾ يقول: لو أن أصمّ ولّى مدبراً ثم ناديته لم يسمع، كذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفع بما يسمع. وقال في جامع البيان: الأصمّ المقبل ربما يفطن من الكلام بمعونة مشاهدة القرائن شيئاً منه، بخلاف المدبر. ﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾ والكافر كمن لا عين له يضلّ الطريق، وليس بوسع أحد أن ينزع عنه العمى ويجعله بصيراً ﴿إن تسمع إلاَّ من يؤمن بآياتنا﴾ ما ينفع الإسماع إلاَّ لمن علم الله أنه يصدّق بآياته وما طبع على قلبه ﴿فهم مسلمون﴾ منقادون لما تأمرهم.

قوله عز وجل: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

قال البغوي[1]: **قوله تعالى**: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾ قرىء بضم الضاد وفتحها. فالضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. قال ابن حجر في «فتح الباري»[2]: فالجمهور بالضم. وقرأ عاصم وحمزة بالفتح. وقال الخليل: الضعف بالضم ما كان في الجسد، والفتح ما كان في العقل. وعن قتادة قوله: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾، أي: من نطفة ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من قوة ضعفاً وشيبة﴾ الشمط ﴿يخلق ما يشاء﴾ **قال البغوي**[3]: من الضعف والقوة

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤١٩).

(٢) انظر (٨/ ٣٧١).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٢٠).

والشباب والشيبة ﴿وهو العليم﴾ بتدبير خلقه ﴿القدير﴾ على ما يشاء.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾.

عن قتادة ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾، أي: يكذّبوك في الدنيا، وإنما يعني بقوله: ﴿يؤفكون﴾ عن الصدق ويصدّون عنه إلى الكذب.

قال ابن كثير[1]: يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجّة عليهم، وأنهم لم ينتظروا حتى يعذر إليهم، قال الله تعالى: ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾. ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾، أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة ﴿لقد لبثتم في كتاب الله﴾، أي: في كتاب الأعمال ﴿إلى يوم البعث﴾، أي: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ﴿ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾. قال الله تعالى: ﴿فيومئذ﴾، أي: يوم القيامة ﴿لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾، أي: اعتذارهم عما فعلوا ﴿ولا هم يستعتبون﴾، أي: ولا هم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾[2].

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٤٠).

(٢) سورة فصلت: الآية ٢٤.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قال ابن كثير[١]: **يقول تعالى:** ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾، أي: قد بيّنّا لهم الحق ووضّحناه لهم وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبيّنوا الحق ويتّبعوه ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلاّ مبطلون﴾، أي لو رأوا أيّ آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه كما قال تعالى: ﴿الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾[٢]، ولهذا قال ههنا ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر إن وعد الله حق﴾، أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون﴾، أي: بل اثبت على ما بعثك الله به فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه. قال سعيد عن قتادة: نادى رجل من الخوارج علياً رضي الله عنه وهو في صلاة الغداة فقال: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين﴾ فأنصت له عليّ حتى فهم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون﴾.

• • •

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٤٠).

(٢) سورة يونس: الآية ٩٧.

الدرس الخامس عشر بعد المائتين

﴿ســورة لقــمــان﴾

مكية، وهي أربع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ

أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

قال البغوي[(١)]: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ الآية، قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث بن كلدة وكان يتّجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم، فيحدّث بها قريشاً ويقول: إن محمداً يحدّثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدّثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن، فأنزل الله هذه الآية. وروى ابن جرير وغيره عن أبي أمامة مرفوعاً: «لا يحلّ تعليم المغنّيات ولا بيعهنّ ولا شراؤهنّ، وثمنهنّ حرام»؛ وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ »[(٢)] إلى آخر

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) ـ والترمذي (ح/ ١٢٨٢ و ٣١٩٥)، وابن ماجه (ح/ ٢١٦٨)، وابن جرير (٢١/ ٦٠)، بسند ضعيف، وله شاهد من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «ثم القينة سحت، وغناؤها حرام. . .»، أخرجه الطبراني (١/ ٧٣) بسند ضعيف.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٥٨) ما حاصله ـ معلقاً على حديث أبي أمامة ـ : «وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زمر، عن علي بن يزيد الألهاني، عن القاسم، فعبيد الله بن زمرثقة، وعلي بن يزيد ضعيف؛ إلاّ أن للحديث شواهد ومتابعات».

الآية. وقال قتادة: بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضرّ على ما ينفع. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ قال: هو الغناء ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأنّ في أذنيه وقراً﴾

وقال ابن كثير[١]، أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولّى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم، كأنّه ما سمعها لأنه يتأذّى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها: ﴿فبشّره بعذاب أليم﴾، أي: يوم القيامة يؤلمه كما تألّم بسماع كتاب الله وآياته: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾.

قال البغوي[٢]: ﴿هذا﴾ يعني الذي ذكرت مما تعاينون: ﴿خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ من آلهتكم التي تعبدونها ﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٤٢).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٤٢٣).

يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴿١٣﴾ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴿١٤﴾ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴿١٥﴾ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴿١٦﴾ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴿١٧﴾ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴿١٨﴾ واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴿١٩﴾﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ قال: الفقه والعقل والإصابة في القول من غير نبوّة، وقال عمرو بن قيس: كان لقمان عبداً أسود غليظ الشفتين مصفّح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدّثهم فقال له: ألست الذي كنت ترعى معي الغنم؟ قال: نعم، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني. وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قلنا: يا رسول الله أيّنا لم يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم، بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان: يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»[(١)]؟

وقوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن﴾ قال ابن عباس: شدّة بعد شدّة وخلقاً بعد خلق.

وقوله تعالى: ﴿وفصاله في عامين﴾، أي: فطامه في حولين ﴿أن اشكر لي﴾

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٣٢ و ٣٣٦٠ و ٤٧٧٦)، ومسلم (ح/ ١٢٤).

بالتوحيد ﴿ولوالديك﴾ بالبرّ ﴿إليّ المصير﴾ فأجازيك على عملك. قال سفيان بن عيينة: من صلّى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس فقد شكرهما.

قال ابن جرير[(١)]: فإن قال لنا قائل: ما وجه اعتراض هذا الكلام بين الخبر عن وصيتي لقمان ابنه؟ قيل: ذلك أيضاً وإن كان خبراً من الله تعالى ذكره عن وصيته عباده به، وإنه إنما أوصى به لقمان ابنه فكان معنى الكلام: وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم، ولا تطع في الشرك به والديك، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، فإن الله وصّى بهما؛ واستؤنف الكلام على وجه الخبر من الله، وفيه هذا المعنى، فذلك وجه اعتراض ذلك بين الخبرين عن وصيته. انتهى.

وعن قتادة: قوله: ﴿يا بُنَيَّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل﴾ من خير وشر ﴿فتكن في صخرة﴾، أي: جبل ﴿أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾، أي: ﴿لطيف﴾ باستخراجها: ﴿خبير﴾ بمستقرّها.

وعن ابن جريج في قوله: ﴿يا بنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك﴾ من الأذى في ذلك: ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ قال: إن ذلك مما عزم الله عليه من الأمور، يقول مما أمر الله به من الأمور.

وعن ابن عباس: ﴿ولا تصعّر خدّك للناس﴾ يقول: ولا تتكبّر فتحقّر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلّموك. وعن الضحاك في قوله: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ قال: بالخيلاء: ﴿إن الله لا يحبّ كلّ مختال فخور﴾ قال مجاهد: ﴿مختال﴾ متكبر ﴿فخور﴾. قال: يعدّد ما أعطى الله وهو لا يشكر الله.

﴿واقصد في مشيك﴾ قال: التواضع ﴿واغضض من صوتك﴾ قال قتادة:

(١) انظر «جامع البيان» (٢١/ ٧١).

أمره بالاقتصاد في صوته ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ أوّله زفير وآخره شهيق.

وقد روي عن لقمان من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة فمنها قوله: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه.

وقال: يا بنيّ إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

وقال: الصمت حكم وقليل فاعله.

وقال: يا بنيّ إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام ــ يعني السلام ــ ثم اجلس في ناحيتهم ولا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فَأَجِلْ سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحوّل عنهم إلى غيرهم. وقال خالد الربعيّ: كان لقمان عبداً حبشياً فدفع مولاه إليه شاة وقال: اذبحها وائتني بأطيب مضغتين منها، فأتاه باللسان والقلب؛ ثم دفع إليه شاة أخرى وقال: اذبحها وائتني بأخبث مضغتين منها، فأتاه باللسان والقلب، فسأله مولاه فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا. وعن عمر مولى غفرة قال: وقف رجل على لقمان الحكيم فقال: أنت لقمان، أنت عبد بني الحسحاس؟ قال: نعم، قال: أنت راعي الغنم؟ قال: نعم، قال: أنت الأسود؟ قال: أما سوادي فظاهر، فما الذي يعجبك من أمري؟ قال وطء الناس بساطك وغشيهم بابك ورضاهم بقولك! قال: يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك، قال لقمان: غَضّي بصري، وكَفّي لساني، وعفَة طعمتي، وحفظي فرجي، وقولي بصدقي، ووفائي بعهدي، وتكرمتي ضيفي، وحفظي جاري، وتركي ما لا يعنيني، فذلك الذي صيّرني إلى ما ترى. والله أعلم.

• • •

الدرس السادس عشر بعد المائتين

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا

نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

قال في جامع البيان: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات﴾ بأن جعله أسباب منافعكم ﴿وما في الأرض﴾ ﴿وأسبغ﴾ أوفى وأتمّ ﴿عليكم نعمه ظاهرة﴾ محسوسة وما تعرفونه ﴿وباطنه﴾ معقولة وما لا تعرفونه. وعن قتادة ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ ليس معه من الله برهان ولا كتاب.

قال البغوي[1]: نزلت في النضر بن الحارث وأبيّ بن خلف وأمية بن خلف وأشباههم، كانوا يجادلون النبي ﷺ في الله وفي صفاته بغير علم ﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ قال الله عز وجل: ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ وجواب «لو» محذوف، ومجازه: يدعوهم فيتبعونه، يعني يتبعون الشيطان وإن ﴿كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾.

قوله تعالى: ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله﴾ يعني لله، أي: يخلص دينه لله

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٢٥).

ويفوّض أمره إلى الله ﴿وهو محسن﴾ في عمله ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾، أي: اعتصم بالعهد الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه ﴿وإلى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبّئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور﴾. ﴿نمتعهم قليلاً﴾، أي: نمهلهم ليتمتّعوا بنعيم الدنيا قليلاً إلى انقضاء آجالهم ﴿ثم نضطرهم﴾ ثم نلجئهم ونردّهم في الآخرة ﴿إلى عذاب غليظ﴾ وهو عذاب النار.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قال ابن كثير[(١)]: يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له، ولهذا قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله قل الحمد لله﴾، أي: إذا قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿لله ما في السموات والأرض﴾، أي: هو خلقه وملكه ﴿إن الله هو الغنيّ الحميد﴾، أي: ﴿الغني﴾ عما سواه وكل شيء فقير إليه ﴿الحميد﴾ في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها. وعن أبي رجاء قال: سألت الحسن عن هذه الآية: ﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ قال: لو جعل شجر الأرض أقلاماً وجعل

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٥١).

البحور مداداً. وقال الله: إنّ من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ماء البحور وتكسرتّ الأقلام. وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد، قال: لو كان شجر البرّ أقلاماً ومع البحر سبعة أبحر، ما كان لتنفد عجائب ربيّ وحكمته وخلقه وعلمه.

وعن مجاهد قوله: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلاَّ كنفس واحدة﴾ يقول: كن فيكون للقليل والكثير.

قال ابن جرير[1]: وقوله: ﴿إن الله سميع بصير﴾ يقول تعالى ذكره: ﴿إن الله سميع﴾ لما يقول هؤلاء المشركون ويفترون على ربهم، من ادعائهم له الشركاء والأنداد وغير ذلك من كلامهم وكلام غيرهم ﴿بصير﴾ بما يعملونه وغيرهم من الأعمال، وهو مجازيهم على ذلك جزاءهم.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار﴾ نقصان الليل في زيادة النهار ﴿ويولج النهار في الليل﴾ نقصان النهار في زيادة الليل ﴿وسخّر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾ يقول: لذلك كله وقت معلوم لا يجاوزه ولا يعدوه.

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢١/ ٨٣).

وقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾. عن مغيرة قال: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، ألم تر إلى قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾ ﴿إن في ذلك لآيات للموقنين﴾ ﴿إن في ذلك لآيات للمؤمنين﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجّاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلاّ كل ختّار كفور﴾ قال قتادة: الختّار الغدّار، كل غدّار بذمّته كفور بربه.

قال البغوي[1]: والختر أسوأ الغدر: قال بعضهم: وإنما قال ههنا ﴿فمنهم مقتصد﴾ وقد قال فيما قبل ﴿إذا هم يشركون﴾ لأنه ذكر ههنا الموج وعظمته، ولا محالة يبقى لمثله أثر في الخيار، فيخفض شيئاً من غلوّ الكفر والظلم، وينزجر بعض الانزجار.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ولا يغرّنّكم بالله الغَرور﴾ ذاكم الشيطان. وعن مجاهد ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني ماذا تلد؟ وبلادنا مَحْلٌ جَدْبَةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمتُ متى

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٢٧).

ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث﴾ إلى آخر السورة»[١]. رواه ابن جرير، وروى البخاري وغيره عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلاَّ الله: ﴿إن الله عنده علم الساعة، وينزّل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾ »[٢].

● ● ●

(١) أخرجه ابن جرير (٢١/ ٨٧ ــ ٨٨) عن مجاهد مرسلاً.

(٢) سبق تخريجه.

الدرس السابع عشر بعد المائتين

﴿سورة السجدة﴾

مكية، وهي ثلاثون آية

في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: الٓمٓ تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان»(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا

(١) أخرجه البخاري (ح/١٠٦٨)، ومسلم (ح/ ٨٨٠).

تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ
كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ
أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ
هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾
فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ
أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا
يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ
ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ
بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ
كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا
يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا

تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه﴾ لا شك فيه، وإنما معنى الكلام: أن هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك فيه أنه من عند الله، وليس بشعر ولا سجع كاهن، ولا هو مما تخرّصه محمد ﷺ، وإنما كذّب جلّ ثناؤه بذلك قول الذين ﴿قالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً﴾[1] وقول الذين قالوا: ﴿إن هذا إلاَّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يهتدون﴾ قال قتادة: كانوا أمّة أمّيّة لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٥.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤.

نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ في اليوم السابع ﴿ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع﴾.

قال ابن كثير[1]: أي بل هو المالك لأزمة الأمور، الخالق لكلّ شيء، المدبّر لكلّ شيء، القادر على كلّ شيء، فلا وليّ لخلقه سواه ولا شفيع إلاَّ من بعد إذنه ﴿أفلا تتذكّرون﴾، يعني أيها العابدون غيره المتوكّلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزّه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير أو نديد أو عديل، لا إله إلاَّ هو ولا ربّ سواه.

وقوله تعالى: ﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون﴾ قال مجاهد: يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، وذلك مقداره ألف سنة لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام.

وقوله تعالى: ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ قال مجاهد: أتقن كل شيء خلقه. وقال ابن عباس: أتقنه وأحكمه. وعن قتادة: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ وهو خلق آدم ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ والسلالة هي الماء المهين الضعيف، قال مجاهد: نطفة الرجل.

وقوله تعالى: ﴿ثم سوّاه﴾.

قال البغوي[2]: ثم سوّى خلقه ﴿ونفخ فيه من روحه﴾. ثم عاد إلى ذرّيّته فقال: ﴿وجعل لكم﴾ بعد أن كنتم نطفاً ﴿السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾، يعني: لا تشكرون رب هذه النعم فتوحّدونه.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٥٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٣٠).

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

عن مجاهد ﴿أئذا ضللنا في الأرض﴾ يقول: أئذا هلكنا. وعن قتادة: ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد﴾ قال: قالوا: أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً؟ وقال الضحاك: يكفرون بالبعث.

وعن قتادة ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكِّل بكم﴾ قال: ملك الموت يتوفاكم ومعه أعوان من الملائكة. وقال مجاهد: طويت له الأرض، فجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث شاء. وقال ابن زيد قوله: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ قال: قد حزنوا واستحيوا. وعن قتادة: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ قال: لو شاء الله لهدى الناس جميعاً، لو شاء الله لأنزل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين ﴿ولكن حقّ القول منّي﴾ حق القول عليهم.

وقوله تعالى: ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم﴾ قال ابن عباس: تركناكم. وقال قتادة: نُسوا من كل خير، وأما الشر فلم يُنْسَوْا منه. وعن

أنس بن مالك: إن هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى القمّة. وعن مجاهد قوله: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ يقومون يصلّون من الليل. وقال ابن عباس ﴿تتجافى﴾ لذكر الله، كلما استيقظوا ذكروا الله تعالى، إما في الصلاة، وإما في قيام، أو في قعود، أو على جنوبهم، ثم يذكرون الله. وروى الإمام أحمد وغيره من حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له: «ألا أدلّك على أبواب الخير؟ الصوم جُنّة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ »[1]. وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين﴾[2] متفق عليه.

قوله عز وجل: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

عن ابن عباس: ﴿ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى﴾ يقول: مصائب الدنيا

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١ و ٢٣٣ و ٢٣٧)، والترمذي (ح/ ٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨)، وابن ماجه (ح/ ٣٩٧٣)، والطبراني (٢٠/ ١٣٠ ــ ١٣١)، والحاكم (٢/ ٧٦ و ٤١٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٨٠)، ومسلم (ح/ ٢٨٢٤).

وأسقامها وبلاؤها مما يبتلي الله به العباد حتى يتوبوا. وعن مجاهد ﴿دون العذاب الأكبر﴾ يوم القيامة ﴿لعلّهم يرجعون﴾ قال أبو العالية: يتوبون.

قال ابن كثير[1]: **وقوله تعالى**: ﴿ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾، أي: لا أظلم ممن ذكّره الله بآياته وبيّنها له، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها. قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله، قال: من أعرض عن ذكره فقد اغترّ أكبر الغرة وأعوز أشد العوَز، وعظم من أعظم الذنوب، ولهذا قال تعالى متهدّداً لمن فعل ذلك ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾، أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشدّ الانتقام.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

عن ابن عباس قال: قال نبي الله ﷺ: «أُريتُ ليلة أسري بي موسى بن عمران، رجلاً آدم طوالاً أجعد كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجّال في آيات أراهنّ الله إياه. ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به»[2]. رواه ابن جرير وغيره. وعن قتادة ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا﴾. قال: رؤساء في الخير ﴿لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ قال بعض العلماء: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١٥١ ــ ١٥٢)، وابن جرير (٢١/ ١١٢). وأخرجه البخاري (ح/ ٣٣٩٤ و ٣٤٣٧)، دون قوله: «ورأيت مالكاً» وما بعده.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

عن ابن عباس ﴿أولم يهد لهم﴾ أولم يتبيّن لهم ﴿كم أهلكنا من قبلهم من القرون﴾ قال قتادة: عاد وثمود، وأنهم إليهم لا يرجعون؟

وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُزِ فنخرج به زرعاً تأكل منهم أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾؟ قال قتادة: الجُرُز: المغبّرة. وقال ابن عباس: الجُرُز التي لا تمطر إلاَّ مطراً لا يغني عنها شيئاً، إلاَّ ما يأتيها من السيول.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾، أي: متى تُنْصَرُون علينا ﴿إن كنتم صادقين﴾؟ ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿يوم الفتح﴾، أي: إذا حلّ بكم العذاب ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم يُنْظَرون فأعرض عنهم﴾ ولا تبال بكلامهم ﴿وانتظر﴾ موعد النصر ﴿إنهم منتظرون﴾ حوادث الزمان عليك، وسترى عاقبة صبرك. قال تعالى: ﴿أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون قل تربّصوا فإني معكم من المتربّصين﴾[1] وقال تعالى: ﴿فهل ينتظرون إلاَّ مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل انتظروا إني معكم من المنتظرين ثم ننجّي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين﴾[2].

• • •

(١) سورة الطور: الآية ٣١.

(٢) سورة يونس: الآية ١٠٣.

الدرس الثامن عشر بعد المائتين

﴿سـورة الأحـزاب﴾

مدنية، وهي ثلاث وسبعون آية

عن زر قال: «قال أبـيّ بن كعب: كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً وسبعين آية، قال: فوالذي يحلف به أبـيّ بن كعب، إن كانت لتعدل سورة البقرة وأطول، ولقد قرأنا منها: آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ

(١) أخرجه الطيالسي (ص ٧٣)، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥/ ١٣٢)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٧١)، والحاكم (٤/ ٣٥٩)، وصححه ووافقه الذهبي، والضياء في المختارة (٣/ ٣٧٠ و ٣٧١).

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾.

قال ابن كثير[1]: هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر مَنْ دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى؛ وقد قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله.

وعن قتادة: ﴿واتّبع ما يوحى إليك من ربك﴾، أي: هذا القرآن ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾. قال البغوي[2]: حافظاً لك.

قوله عز وجل: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾.

قال ابن كثير[3]: يقول تعالى موطّئاً قبل المقصود المعنويّ أمراً معروفاً حسّيّاً

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٦٥).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٣٥).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٦٥).

وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنت عليّ كظهر أمي أماً له، كذلك لا يصير الدعيّ ولداً للرجل إذا تبنّاه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ أمهاتكم﴾ كقوله عز وجل: ﴿ما هنّ أمهاتهم إن أمهاتهم إلاّ اللائي ولدنهم﴾[1] الآية.

قوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة[2] رضي الله عنه مولى النبـي ﷺ كان النبـي ﷺ قد تبنّاه قبل النبوّة فكان يقال له: زيد بن محمد، فأراد الله أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيّين وكان الله بكل شيء عليماً﴾ وقال ههنا: ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ يعني تبنّيكم لهم قولاً لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقيّاً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ انتهى.

وعن قتادة ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ فإن لم تعلموا من أبوه فإنما هو أخوك ومولاك ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ يقول: إذا دعوت الرجل لغير أبيه وأنت ترى أنه كذلك ﴿ولكن ما تعمّدت قلوبكم﴾ يقول الله: لا تدعه لغير أبيه متعمّداً، أما الخطأ فلا يؤاخذكم الله به ولكن يؤاخذكم بما تعمّدت قلوبكم. قال مجاهد: فالعمد ما أُتي بعد البيان والنهي في هذا وغيره. وعن أبـي بكرة رضي الله عنه قال:

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٢.

(٢) كما أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٨٢)، ومسلم (ح/ ٢٤٢٥) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلمه فالجنة عليه حرام»[1]. رواه البغوي وغيره.

قوله عز وجل: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

قال ابن زيد: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ كما أنت أولى بعبدك ما قضى فيهم من أمر جاز كما كلما قضيت على عبدك جاز. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مؤمن إلاَّ وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ فأيّما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبة مَنْ كانوا، وإن ترك دَيْناً أو ضيَاعاً فليأتني فأنا مولاه»[2]. رواه البخاري وغيره. وعن قتادة: ﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ يعظّم بذلك حقّهنّ، وفي بعض القراءة: وهو أب لهم. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ محرّمات عليهم. وعن قتادة: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ لبث المسلمون زماناً يتوارثون بالهجرة، والأعرابي المسلم لا يرث من المهاجرين شيئاً، فأنزل الله هذه الآية فخلط المؤمنين بعضهم ببعض فصارت المواريث بالملل.

وعن مجاهد قوله: ﴿إلاَّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ قال: حلفاؤكم الذين والى بينهم النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار إمساك بالمعروف والعقل

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٣٢٦ و ٤٣٢٧)، ومسلم (ح/ ٦٣) من حديث سعد بن أبي وقاص، وأبي بكر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٨١). ، وبنحوه مسلم (ح/ ١٦١٩).

والنصر بينهم. قال ابن كثير[1] وقوله تعالى: ﴿إلاَّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾، أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبرّ والصلة والإحسان والوصيّة.

وقوله تعالى: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾، أي: هذا الحكم وهو: أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدّر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدّل ولا يغيّر، قاله مجاهد وغير واحد؛ وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه ينسخه إلى ما هو جارٍ في قدره الأزليّ وقضائه القدريّ الشرعيّ. والله أعلم انتهى.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

عن مجاهد: ﴿وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ قال: في ظهر آدم. وقال البغوي[2]: قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا من النبيّين ميثاقهم﴾ على الوفاء بما حملوا، وأن يصدّق بعضهم بعضاً ويبشّر بعضهم ببعض. قال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادة الله ويصدّق بعضهم بعضاً وينصحوا لقومهم ﴿ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾ خصّ هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيّين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولي العزم من الرسل. انتهى.

قال ابن كثير[3]: فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتّبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم. وقال في قوله: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٦٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٣٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٦٩).

أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾ فذكر الطرفين والوسط الفاتح ومن بينهما على الترتيب. وعن ابن عباس قوله: ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ قال: الميثاق الغليظ العهد. وعن مجاهد: ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ قال: الرسل المؤدّين المبلّغين.

قال ابن كثير[١]: وقوله تعالى: ﴿وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً﴾، أي: موجعاً. فنحن نشهد أن الرسل قد بلّغوا رسالات ربهم ونصحوا الأمم، وإن كذّبهم من كذّبهم من الجهلة والمعاندين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال، كما يقول أهل الجنة: ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾.

● ● ●

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٦٩).

الدرس التاسع عشر بعد المائتين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ
وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ
يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ
وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا
الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا
يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ
الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧)
۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا
قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي
يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ
أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ
لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ

عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان في قول الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ والجنود: قريش وغطفان وبنو قريظة، وكانت الجنود التي أرسل الله عليهم مع الريح الملائكة. وعن مجاهد ﴿إذا جاءوكم من فوقكم﴾ قال: عيينة بن بدر في أهل نجد ﴿ومن أسفل منكم﴾ قال أبو سفيان قال: وواجهتهم قريظة. وعن قتادة ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾ شخصت. وعن عكرمة ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ قال: من الفزع. وعن الحسن ﴿وتظنّون بالله الظنونا﴾ قال: ظنوناً مختلفة؛ ظنّ المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق أنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وعن مجاهد قوله: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ قال: مُحِّصُوا.

وقال البغوي[1]: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾، أي: عند ذلك اختُبِرَ المؤمنون بالحصر والقتال، ليتبيّن المخلص من المنافق ﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ حُرِّكُوا حركة شديدة.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٤٥).

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاَّ غروراً﴾ قال: قال ذلك أناس من المنافقين: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا ههنا حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلاَّ غروراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قالت طائفة منهم﴾ قال البغوي: وهم أوس بن قيظي وأصحابه: يا أهل يثرب ــ يعني المدينة. قال أبو عبيدة: يثرب اسم أرض، ومدينة الرسول ﷺ في ناحية منها. وفي بعض الأخبار أن النبي ﷺ نهى أن تسمّى المدينة يثرب، وقال: «هي طابة»[1]، كأنه كره هذا اللفظ ــ لا مقام لكم فارجعوا إلى منازلكم، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون: إن بيوتنا عورة. قال ابن عباس قالوا: بيوتنا مخليّة نخشى عليها السرق ﴿وما هي بعورة إن يريدون إلاَّ فراراً﴾.

وعن قتادة: ﴿ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها﴾، أي: لو دخل عليهم من نواحي المدينة ﴿ثم سئلوا الفتنة﴾، أي: الشرك ﴿لآتوها﴾ يقول: لأعطوها ﴿وما

(١) ورد ذلك بلفظ: «من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة، هي طابة»، أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٥)، وابن شبه في «تاريخ المدينة» (١/ ١٦٥) بسند ضعيف.

تلبّثوا بها إلاَّ يسيراً﴾ يقول: إلاَّ أعطوه طيّبة به أنفسهم ما يحتبسونه، ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾ قال: كان أناس غابوا عن وقعة بدر ورأوا. ما أعطى الله أصحاب بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا: لئن أشهدنا الله تعالى قتالاً لنقاتلنّ، فساق الله ذلك إليهم حتى كان في ناحية المدينة. ﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تُمتّعون إلاَّ قليلاً﴾ وإنما الدنيا كلها قليل.

وقوله تعالى: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله﴾.

قال البغوي[١]: يمنعكم من عذابه ﴿إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً﴾.

قال ابن كثير[٢]: أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا﴾ قال: هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلاَّ آكلة رأس، ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٤٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٧٣).

هذا الرجل فإنه هالك. قال ابن إسحاق: حدّثنا يزيد بن رومان ﴿قد يعلم الله المعوّقين منكم﴾، أي: أهل النفاق ﴿والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلاَّ قليلاً﴾، أي: إلاَّ دفعاً وتعذيراً ﴿أشحّة عليكم﴾، أي: للضغن الذي في أنفسهم ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغْشَى عليه من الموت﴾، أي: إعظاماً وفَرَقاً منه ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾ قال قتادة: أما عند القسمة فأشحّ قوم وأسوأ مقاسمة: أعطونا فإنا قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق.

قال ابن كثير[١]: أي ليس فيهم خير، قد جمعوا الجبن والكذب وقلّة الخير، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر:

أفي السلم أعيار جفاء وغلظة   وفي الحرب أمثال النساء العوارك

ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ قال البغوي[٢]: ﴿يحسبون﴾، يعني: هؤلاء المنافقين ﴿الأحزاب﴾، يعني: قريشاً وغطفان واليهود ﴿لم يذهبوا﴾ لم ينصرفوا عن قتالهم جبناً وفَرَقاً، وقد انصرفوا ﴿وإن يأت الأحزاب﴾، أي: يرجعوا إليهم للقتال بعد الذهاب ﴿يودّوا لو أنهم بادون في الأعراب﴾، أي: يتمنّوا لو كانوا في بادية مع الأعراب، من الخوف والجبن ﴿يسألون عن أنبائكم﴾ أخباركم وما آل إليه أمركم ﴿ولو كانوا﴾، يعني: هؤلاء المنافقين ﴿فيكم ما قاتلوا إلاَّ قليلاً﴾ تعذيراً أي يقاتلون قليلاً يقيمون به عذرهم فيقولون: قد قاتلنا.

قوله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٧٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٤٧).

وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

قال ابن إسحاق: حدّثني يزيد بن رومان قال: ثم أقبل على المؤمنين فقال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أن لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ولا عن مكان هو به ﴿وذكر الله كثيراً﴾ يقول: وأكثر ذكر الله في الخوف والشدة والرخاء.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾ قال: ذلك أن الله قال لهم في سورة البقرة ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾[1] قال: فلما مسّهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق، تأوّل المؤمنون ذلك ولم يزدهم ذلك إلاّ إيماناً وتسليماً.

وقال ابن إسحاق: حدّثني يزيد بن رومان ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾، أي: وفوا الله بما عاهدوه عليه ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾، أي: فزع من عمله ورجع إلى ربه، كمن استشهد يوم بدر ويوم أحد ﴿ومنهم من ينتظر﴾ ما وعد الله من نصره والشهادة على ما مضى عليه الصحابة ﴿وما بدّلوا تبديلاً﴾ قال قتادة يقول: ما شكّوا وما تردّدوا في دينهم ولا استبدلوا به غيره ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾ يقول: إن شاء أخرجهم من النفاق إلى الإيمان ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤.

قوله عز وجل: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ وذلك يوم أبـي سفيان والأحزاب، ردّ الله أبا سفيان وأصحابه بغيظهم ﴿لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بالجنود من عنده والريح التي بعث عليهم. وعن أبـي سعيد الخدري قال: حُبِسْنا يوم الخندق عن الصلاة فلم نصلّ الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء، حتى كان بعد العشاء بهويّ كُفِينَا وأنزل الله ﴿وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويّاً عزيزاً﴾ فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأقام الصلاة، وصلّى الظهر فأحسن صلاتها كما كان يصلّيها في وقتها، ثم صلى العصر كذلك، ثم صلى المغرب كذلك، ثم صلى العشاء كذلك، جعل لكل صلاة إقامة وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾ »[1] رواه ابن جرير.

قال ابن كثير[2]: ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيَّداً منصوراً، ووضع الناس السلاح، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها، إذ تبدّى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال له: وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم»، قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥ و ٤٩ و ٦٧ و ٦٨)، والدارمي (١/ ٣٥٨)، وابن جرير (٢١/ ١٤٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٧٧)، والقصة هذه أخرجها ابن جرير (٢١/ ١٥٠).

وقوله تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾، أي: حصونهم، وهم بنو قريظة ﴿وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾ قال ابن إسحاق: حدّثني يزيد بن رومان ﴿فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾، أي: قتل الرجال وسبي الذراري والنساء ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ قال ابن زيد في قوله: ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم﴾ قال: قريظة والنضير أهل الكتاب ﴿وأرضاً لم تطؤوها﴾ يومئذ قال: خيبر. وقال الحسن: هي الروم وفارس وما فتح الله عليهم.

وقال ابن جرير[1]: يجوز أن يكون الجميع مراداً ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾.

• • •

(١) انظر «جامع البيان» (٢١/ ١٥٥).

الدرس العشرون بعد المائتين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ

ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخيّر أزواجه قالت: فبدأ بـي رسول الله ﷺ فقال: إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك؛ وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: إن الله تعالى قال: ﴿يا أيها النبـي قل لأزواجك﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أيّ هذا أستأمر أبويّ؟ فإني أريد الله تعالى ورسوله والدار الآخرة»[1]؛ وفي رواية: «خيّرنا رسول الله ﷺ فلم يعدّها علينا شيئاً»[2].

وروى مسلم وغيره عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ، والناس ببابه جلوس، والنبـي ﷺ جالس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبـي بكر وعمر رضي الله عنهما فدخلا، والنبـي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ﷺ ساكت، فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمنّ النبـي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد ــ امرأة عمر ــ سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها، فضحك النبـي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال: «هنّ حولي يسألنني النفقة» فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبـي ﷺ ما ليس عنده؟ فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٨٥ و ٤٧٨٦)، ومسلم (ح/ ١٤٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ١١٠٤).

ليس عنده؛ قال: وأنزل الله عز وجل الخيار، فبدأ بعائشة رضي الله عنها»[١] الحديث.

قال قتادة: فلما اخترن الله ورسوله شكرهنّ الله على ذلك فقال: ﴿لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدلّ بهنّ من أزواج ولو أعجبك حسنهنّ﴾ فقصره الله عليهنّ. قال عكرمة: وكان تحته يومئذٍ تسع نسوة: خمس من قريش: عائشة وحفصة وأم حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبي أميّة، وكانت تحته: صفية ابنة حيّ الخيبرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق. وقال ابن زيد: فاخترن الله ورسوله، إلاّ امرأة واحدة جويرية ذهبت.

قوله عز وجل: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

قال ابن كثير[٢]: يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقرارهنّ تحت رسول الله ﷺ، فناسب أن يخبرهنّ بحكمهنّ وتخصيصهنّ دون سائر النساء، بأن من يأت منهنّ بفاحشة مبيّنة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو النشوز وسوء الخُلُق، وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك﴾[٣] فلما كانت محاسنهنّ رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهنّ مغلّظاً، صيانة لجنابهنّ وحجابهنّ الرفيع، ولهذا قال تعالى: ﴿من يأت

(١) أخرجه مسلم (ح/١٤٧٨).
(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٨١).
(٣) سورة الزمر: الآية ٦٥.

منكنّ بفاحشة مبيّنة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾. قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ قال: في الدنيا والآخرة: ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي سهلاً هيّناً.

ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿ومن يقنت منكنّ لله ورسوله﴾ أي تطع الله ورسوله وتستجب ﴿نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى علّيّين فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: ﴿يا نساء النبي لستنّ كأحد من النساء﴾ قال ابن عباس: يريد ليس قدركنّ عندي مثل قدر غيركنّ من النساء الصالحات، أنتنّ أكرم عليّ وثوابكنّ أعظم لديّ ﴿إن اتقيتنّ﴾ الله أَطَعْتُنَّه ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ لا تُلِنَّ بالقول للرجال ولا ترقّقنّ الكلام ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي فجور وشهوة، والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقابلة إذا خاطبت الأجانب لقطع الأطماع معهم ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ يوجبه الدين والإسلام بتصريح وبيان من غير خضوع.

قال ابن كثير[2] **وقوله تعالى:** ﴿وقرن في بيوتكنّ﴾ أي إلزَمْنَ بيوتكنّ فلا

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٥٤ ــ ٤٥٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٨٢).

تخرجن لغير حاجة. وعن قتادة ﴿ولا تبرّجن تبرّج الجاهليّة الأولى﴾ أي إذا خرجتنّ من بيوتكن؛ قال: كانت لهنّ مشية وتكسّر وتغنّج، يعني بذلك الجاهليّة الأولى، فنهاهنّ الله عن ذلك. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولا تبرّجن تبرّج الجاهليّة الأولى﴾ يقول: التي كانت قبل الإسلام؛ قال: وفي الإسلام جاهليّة. وقال مقاتل: والتبرّج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشدّه فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرّج، ثم عمّت نساء المؤمنين في التبرّج.

وقوله تعالى: ﴿وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ قال قتادة: فهم أهل بيت طهّرهم الله من السوء وخصّهم برحمة منه.

قال ابن كثير[1] **وقوله تعالى:** ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا، لأنهنّ سبب نزول هذه الآية. وروى مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنهما قالت: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحّل من شعر أسود، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخلها معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاء عليّ رضي الله عنه فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة رضي الله عنها فأدخلها معه، ثم جاء عليّ رضي الله عنه فأدخله معه، ثم قال رسول الله ﷺ: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾[2]. وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خمّاً، بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكّر ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أوّلهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثّ على كتاب الله عز وجل

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ٢٤٢٤).

ورغّب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي ثلاثاً»؛ فقال له حصين: ومن أهل بيته؟ يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال هم آل عليّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم. قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة بعده؟ قال: نعم»[1] رواه مسلم.

وعن قتادة في قوله: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾، أي السنّة. قال: يَمْتَنُّ عليهنّ بذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

عن قتادة قال: دخل نساءٌ على نساء النبي ﷺ فقلن: قد ذكركنّ الله في القرآن ولم نُذكر بشيء! أما فينا ما يُذكر؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات﴾ »[2] أي المطيعين والمطيعات ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ أي الخائفين والخائفات ﴿أعدّ الله لهم

---

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٤٠٨).

(٢) روي مرفوعاً من حديث أم سلمة رضي الله عنها ولفظه: «يا نبي الله، ما أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء، يذكرون، فأنزل الله عز وجل: ﴿إن المسلمين...﴾ الآية، أخرجه أحمد (٦/ ٣٠١ و ٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣١)، وابن جرير (٢٢/ ٨)، والطبراني (٢٣/ ٢٦٣ و ٢٩٣ و ٢٩٨)، والحاكم (٢/ ٤١٦)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو صحيح.

مغفرة﴾ لذنوبهم ﴿وأجراً عظيماً﴾ في الجنة. وعن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله يُذكر الرجال ولا نُذكر! فنزلت ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ الآية.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

قال البغوي[(١)]: نزلت في زينب بنت جحش الأسدية وأخيها عبد الله بن جحش، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، خطب النبي ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ اشترى زيداً في الجاهلية بعكاظ فأعتقه وتبنّاه، فلما خطب رسول الله ﷺ زينب رضيت وظنّت أنه يخطبها لنفسه، فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وقالت: أنا ابنة عمتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي، وكانت بيضاء جميلة فيها حدة، وكذلك كره أخوها ذلك[(٢)]، فأنزل الله عز وجل: ﴿وما كان لمؤمن﴾ يعني عبد الله بن جحش ﴿ولا مؤمنة﴾ يعني أخته زينب ﴿إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ أي إذا أراد الله ورسوله أمراً، وهو نكاح زينب لزيد، ﴿أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ قال: والخيرة الاختيار؛ والمعنى: أن يريد غير ما أراد الله أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به. قال ابن كثير: فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً﴾[(٣)]. وفي الحديث: «والذين نفسي

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٥٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ١١) عن ابن عباس بسندٍ ضعيف، وأخرجه أيضاً (٢٢/ ١١) عن قتادة مرسلاً.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٥.

بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[١]؛ ولهذا شدّد في خلاف ذلك فقال: ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ كقوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[٢].

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

عن قتادة ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ بالإسلام ﴿وأنعمت عليه﴾ أعتقه رسول الله ﷺ ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ قال: وكان يخفي في نفسه: ودّ أنه طلّقها. قال الحسن: ما أنزلت عليه آية كانت أشدّ عليه منها، قوله: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ ولو كان نبيّ الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتمها ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ قال: خشي نبي الله ﷺ مقالة الناس. وقال عليّ بن الحسين رضي الله عنهما: كان الله تعالى أعلم نبيّه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه، فلما أتاه زيد يشكوها قال: ﴿اتق الله وأمسك عليك زوجك﴾. قال الله: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (ح/١٥)، والخطيب في تاريخه (٤/٣٦٩)، والبغوي في شرح السنة (١/٢١٣)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه بسند ضعيف.

(٢) سورة النور: الآية ٦٣.

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها عليَّ» فانطلق حتى أتاها وهي تخمّر عجينها قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، وأقول: إن رسول الله ﷺ ذكرها، فولّيتها ظهري ونكصت على عقبيّ وقلت: يا زينب أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي عز وجل، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن[١].

وروى البخاري وغيره أن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: «زوّجكنّ أهاليكنّ وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سموات»[٢].

وقوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾.

قال البغوي[٣]: أي حاجة من نكاحها ﴿زوجناكها﴾ وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبنّى تحلّ بعد الدخول وعن قتادة قوله: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً﴾ يقول: إذا طلقوهنّ؛ وكان رسول الله ﷺ تبنّى زيد بن حارثة ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾.

قال البغوي[٤]: أي كان قضاء الله ماضياً وحكمه نافذاً، وقد قضى في زينب أن يتزوّجها رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾.

قال ابن كثير[٥]: أي فيما أحلّ الله له وأمره به من تزويج زينب التي طلّقها

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٥ ــ ١٩٦)، وبنحوه مطولاً مسلم (ح/ ١٤٢٨). قوله: «فاذكرها عليَّ»، أي: أخطبها لي من نفسها.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٧٤٢٠).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٥٨).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٤٥٩).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٩٢).

زيد بن حارثة ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردّ على من توهّم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه، ودعيّه الذي كان قد تبنّاه ﴿وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً﴾ أي وكان أمره الذي يقدّره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقوله تعالى: ﴿الذين يبلّغون رسالات الله﴾.

قال البغوي[١]: يعني سنّة الله في الأنبياء الذين يبلّغون رسالات الله ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً إلاّ الله﴾ أي لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحلّ الله لهم وفرض عليهم ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبهم.

ثم إن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله عز وجل ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ يعني زيد بن حارثة[٢]، أي ليس أبا أحد من رجالكم الذين لم يلدهم، فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ ختم الله به النبوّة. وعن ابن عباس أن الله تعالى لما حكم أن لا نبيّ بعده، لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾. وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها، إلاّ موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلاّ موضع هذه اللبنة، فإنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[٣]. متفق عليه.

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٥٩).

(٢) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢٢/ ٤٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٣٥٣٤)، ومسلم (ح/ ٢٢٨٧).

الدرس الحادي والعشرون بعد المائتين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ
ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا
مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ
وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ
عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ
أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ
عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ
مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً
لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ
كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ

ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ يقول: لا يفرض على عباده فريضة إلاَّ جعل لها جزاء معلوماً، ثم عذر أهلها في حال عذر غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلاَّ مغلوباً على عقله قال: ﴿اذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال، فقال: ﴿سبّحوه بكرة وأصيلاً﴾ فإذا فعلتم ذلك صلّى عليكم هو وملائكته، قال الله عز وجل: ﴿هو الذي يصلّي عليكم وملائكته﴾.

قال ابن كثير[1]: **وقوله تعالى:** ﴿هو الذي يصلّي عليكم وملائكته﴾ هذا تهييج إلى الذكر، أي: أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله عز وجل: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾[2] وقال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»[3]. «والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٩٥).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٧٤٠٥)، ومسلم (ح/ ٢٦٧٥ و ٢٠٦٨).

عند الملائكة». حكاه البخاري عن أبـي العالية[١]، ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عنه؛ وقال غيره: الصلاة من الله عز وجل الرحمة؛ وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم انتهى.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿هو الذي يصلّي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ قال: من الضلالة إلى الهدى. وعن قتادة قوله: ﴿تحيّتهم يوم يلقونه سلام﴾ قال: تحيّة أهل الجنة السلام: ﴿وأعدّ لهم أجراً كريماً﴾، أي: الجنة.

قال ابن كثير[٢]: وقوله: ﴿تحيّتهم يوم يلقونه سلام﴾ الظاهر أن المراد ــ والله أعلم ــ ﴿تحيّتهم﴾، أي: من الله تعالى: ﴿يوم يلقونه سلام﴾، أي: يسلّم عليهم، كما قال عز وجل: ﴿سلام قولاً من ربّ رحيم﴾[٣]. قال: وقد يستدلّ لقول قتادة بقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيّتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

عن قتادة: ﴿يا أيها النبـي إنا أرسلناك شاهداً﴾ على أمتك بالبلاغ ﴿ومبشّراً﴾ بالجنة ﴿ونذيراً﴾ بالنار ﴿وداعياً إلى الله﴾ إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله ﴿بإذنه﴾، قال ابن جرير: بأمره ﴿وسراجاً منيراً﴾ يقول: وضياء لخلقه ﴿وبشّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع

(١) انظر (٨/ ٣٩٢ ــ مع الفتح).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٩٦).

(٣) سورة يس: الآية ٥٨.

أذاهم﴾ قال قتادة، أي: اصبر على أذاهم: ﴿وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهنّ من قبل أن تمسُّوهنّ فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدّونها﴾ فهذا في الرجل يتزوّج المرأة ثم يطلّقها من قبل أن يمسّها، فإذا طلّقها واحدة بانت منه ولا عدّة عليها تتزوج من شاءت، ثم قرأ: ﴿فمتّعوهنّ وسرّحوهنّ سراحاً جميلاً﴾ يقول: إن كان سمّى لها صداقاً فليس لها إلاّ النصف، فإن لم يكن سمّى لها صداقاً متّعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل؛ قال أكثر أهل العلم: إذا قال: كل امرأة أنكحها فهي طالق فنكح لا يقع الطلاق. وروي عن ابن مسعود: أنه يقع. وقال ابن عباس: كذبوا على ابن مسعود، إن كان قالها فزلّة من عالم؛ في الرجل يقول: إن تزوجت فلانة فهي طالق، يقول الله تعالى: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلّقتموهنّ﴾ ولم يقل: إذا طلّقتموهنّ ثم نكحتموهنّ.

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن

تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ قال: صدقاتهنّ. وقال ابن زيد: كان كل امرأة آتاها مهراً فقد أحلّها الله له. وعن أم هانىء قالت: خطبني النبي ﷺ فاعتذرت له بعذري، ثم أنزل الله عليه: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهنّ﴾ إلى قوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ قالت: فلم أحلّ له، لم أهاجر معه كنت من الطلقاء»[1].

وقوله تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين﴾.

قال البغوي[2]: وكان النكاح ينعقد في حقّه ﷺ بمعنى الهبة، من غير وليّ ولا شهود ولا مهر، وكان ذلك من خصائصه في النكاح، لقوله تعالى: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ كالزيادة على الأربع، ووجوب تخيير النساء كان من خصائصه لا مشاركة لأحد معه فيه. وعن مجاهد قوله: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ بغير صداق، فلم يكن يفعل ذلك، وأحلّ الله له خاصة من دون المؤمنين.

وعن قتادة في قول الله: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم﴾ قال: كان مما فرض الله عليهم أن لا تزوّج امرأة إلاّ بوليّ وصداق عند شاهدي عدل، ولا

---

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٢١٤) وقال: «حسن صحيح»، وابن جرير (٢٢/ ٢١)، والحاكم (٢/ ٤٢٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، قلت: وفيه أبو صالح مولى أم هانىء، وهو ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٦٢).

يحلّ لهم من النساء إلاّ أربع وما ملكت أيمانهم. وقوله تعالى: ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾.

قال البغوي[١]: وهذا يرجع إلى أول الآية، أي: أحللنا لك أزواجك، وما ملكت يمينك، والموهوبة لك: ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ وضيق ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾. وعن ابن عباس قوله: ﴿ترجي من تشاء منهنّ﴾ يقول: تؤخّر. وقال مجاهد: تعزل بغير طلاق من أزواجك ﴿من تشاء وتؤوي إليك من تشاء﴾ قال: تردّها إليك. قال قتادة: فجعله الله في حلّ من ذلك، أن يدع من يشاء منهنّ بغير قسم، وكان نبي الله يقسم ﴿ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يحزنّ ويرضين بما آتيتهنّ كلّهنّ﴾ قال: إذا علمن أن هذا جاء من الله كان أطيب لأنفسهنّ وأقلّ لحزنهنّ ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾.

قال البغوي[٢]: من أمر النساء والميل إلى بعضهنّ ﴿وكان الله عليماً حليماً﴾.

وعن ابن عباس قوله: ﴿لا يحلّ لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج ولو أعجبك حسنهنّ إلاّ ما ملكت يمينك﴾. قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئاً»[٣]. قال قتادة: وهنّ التسع اللاتي اخترن الله ورسوله. قال ابن جرير: ولا دلالة على نسخ حكم إحدى الآيتين حكم الأخرى. وعن قتادة: ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾، أي: حفيظاً.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٦٣).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٤٦٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٢٨) بسند ضعيف.

فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)﴾.

عن مجاهد في قول الله: ﴿إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ قال: متحيّنين نضجه. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدّثون، فإذا هو يتهيّأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلاّ أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾[1] الآية.

وعن عمر بن الخطاب قال قلت: «يا رسول الله لو حجبت عن أمهات المؤمنين، فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب»[2]. رواه ابن جرير وغيره.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٩١)، ومسلم (٢/ ١٠٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٩٠).

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ قال: ربما بلغ النبي ﷺ أن الرجل يقول: لو أن النبي ﷺ توفي تزوّجت فلانة بعده، قال: فكان ذلك يؤذي النبي ﷺ، فنزل القرآن: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿لا جناح عليهنّ في آبائهنّ ولا أبنائهنّ﴾ الآية.

قال ابن كثير[1]: لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بيّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور عند قوله: ﴿ولا يبدين زينتهنّ إلاَّ لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بني إخوانهنّ أو بني أخواتهنّ أو نسائهنّ أو ما ملكت أيمانهنّ أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾. انتهى. قال بعض المفسرين: لم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء. وقال ابن عباس: ﴿يصلّون﴾ يركعون. وقال سفيان بن عيينة وغيره: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار؛ وقد قال تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾. وعن كعب بن عجرة قال: «لما نزلت: ﴿إن الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً﴾ قلنا: يا رسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك؟ قال قولوا: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٠٦).

إبراهيم إنك حميد مجيد»[١]. متفق عليه واللفظ للبخاري. وعن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يُرى في وجهه فقالوا: يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك! فقال: «إنه أتاني الملَك فقال: يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول: أنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلاّ صلّيت عليه عشراً، ولا يسلّم عليك أحد من أمتك إلاّ سلّمت عليه عشراً؟ قال: بلى»[٢]. رواه أحمد وغيره.

● ● ●

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٩٧)، ومسلم (ح/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٩ و ٣٠)، والنسائي (٣/ ٤٤ و ٥٠)، والدارمي (٢/ ٣١٧)، والحاكم (٢/ ٤٢٠)، وصححه، ووافقه الذهبي!! وللحديث شاهد من حديث أنس، ومالك بن أوس، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، وهو حديث صحيح.

الدرس الثاني والعشرون بعد المائتين

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ

ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

قال عكرمة: ﴿الذين يؤذن الله ورسوله﴾ هم أصحاب المقادير. وقال قتادة سبحان الله ما زال أناس من جهلة بني آدم حتى تعاطوا أذى ربهم. وفي الصحيحين عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر، أقلّب ليله ونهاره»[1]. وعن عبد الله بن المغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «[الله] اللَّهَ في أصحابـي لا تتّخذوهم غَرَضاً بعدي، فمن أحبّهم فبحبّـي أحبّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[2]. وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيّ الربا أربـى عند الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أربـى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم، ثم قرأ ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ »[3]. قال قتادة: فإياكم وأذى المؤمن، فإن الله يحوطه ويغضب له.

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٨٧ و ٥/ ٥٤ و ٥٧)، والترمذي (ح/ ٣٨٦١)، وحسنه، وابن حبان (ح/ ٢٢٨٤)، والبغوي (١٤/ ٧٠ ــ ٧١) بسند فيه ضعف.

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٢٩٨)، بسند ضعيف. وله شاهد بنحوه من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه مرفوعاً: «من أربـى الربـىٰ الاستطالة في عرض مسلم بغير حق»، أخرجه أحمد (١/ ١٩٠)، وأبو داود (ح/ ٤٨٧٦)، والبزار (ح/ ١٢٦٤)، الشاشي (١/ ٢٤٦)، والطبراني في الكبير (١/ ١١٧)، وهو صحيح.

رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ .

عن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ﴾ أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهنّ في حاجة أن يغطين وجوههنّ من فوق رؤوسهنّ بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة، وقال قتادة: أخذ الله عليهنّ إذا خرجن أن يقنّعن على الحواجب ﴿ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذَيْن﴾ وقد كانت المملوكة إذا مرّت تناولوها بالإيذاء، فنهى الله الحرائر يتشبّهن بالإماء.

وعن عكرمة في قوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ قال: هم الزناة. ﴿والمرجفون في المدينة﴾ قال قتادة: الإرجاف الكذب، وكانوا يقولون: أتاكم عدد وعدّة. ﴿لنغرينّك بهم﴾، أي: لنحملنّك عليهم، لنحرّشك بهم ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلاً ﴾، أي: بالمدينة ﴿ملعونين﴾ على كل حال ﴿أينما ثقفوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلاً﴾ إذا هم أظهروا النفاق ﴿سنّة الله في الذين خلوا من قبل﴾ يقول: هكذا سنّة الله فيهم إذا أظهروا النفاق ﴿ولن تجد لسنّة الله تبديلاً﴾.

قوله عز وجل: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ .

قال ابن كثير[١]: يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ أنه لا علم له بالساعة وإن سأله الناس عن ذلك، وأرشده أنه يردّ علمها إلى الله عز وجل.

وقال البغوي[٢]: ﴿وما يدريك﴾، أيّ شيء يعلمك أمر الساعة، ومتى يكون قيامها؟، أي: أنت لا تعرفه ﴿لعلّ الساعة تكون قريباً﴾.

وقال ابن جرير[٣]: يقول تعالى ذكره: ﴿يسألك الناس﴾ يا محمد ﴿عن الساعة﴾ متى هي قائمة؟ قل لهم: إنما علم الساعة عند الله لا يعلم وقت قيامها غيره ﴿وما يدريك لعلّ الساعة تكون قريباً﴾ يقول: وما يشعرك يا محمد لعلّ قيام الساعة يكون منك قريباً، قد قرب وقت قيامها ودنا حينُ مجيئها. وقوله تعالى: ﴿إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون وليّاً ولا نصيراً يوم تقلّب وجوههم في النار يقولون: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾ قال قتادة: أي رؤوسنا في الشرّ والشرك ﴿فأضلّونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾.

قوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حييّاً ستّيراً، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلاّ من عيب في جلده، إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرّئه مما قالوا، فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥١٩).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٦٩).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٢/ ٤٩).

على حجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، قال: ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾[١].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿فبرأه الله مما قالوا﴾ قال: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون عليه السلام فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: أنت قتلته. كان ألين لنا منك وأشدّ حياء، فآذوه من ذلك، فأمره الله الملائكة فحملته فمرّوا به على مجالس بني إسرائيل فتكلّمت بموته.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أُريدَ بها وجهُ الله، فقلت: يا عدوّ الله أما لأخبرنّ رسول الله ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمّر وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[٢].

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً﴾، أي: عدلاً. قال قتادة: يعني به في منطقه وعمله كله، والسديد: الصدق. قال ابن عباس: مَنْ سَرّه أن يكون أكرم الناس فليتّق الله.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٣٤٠٤ و ٤٧٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٣٣٥ و ٤٣٣٦ و ٦٠٥٩)، ومسلم (ح/ ١٠٦٢).

قال ابن عباس: الأمانة الفرائض التي افترضها الله على العباد. وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ قال: «فلما عُرضت على آدم قال: أيْ ربّ وما الأمانة؟ قال قيل: إن أدّيتها جُزيت، وإن ضيّعتها عوقبت، قال: أيْ ربّ حملتها بما فيها، قال: فما مكث في الجنّة إلاّ قدر ما بين العصر إلى غروب الشمس حتى عمل بالمعصية فأُخرج منها»[1].

وعن الضحاك في قوله: ﴿وحملها الإنسان﴾ قال: آدم ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ قال: ﴿ظلوماً﴾ لنفسه ﴿جهولاً﴾ فيما احتمل فيما بينه وبين ربه. وعن قتادة ﴿ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ هذان اللذان خاناها ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ هذان اللذان أدّياها ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ وعن عبد الله بن عمروا رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفّة طعمة»[2]. رواه الإمام أحمد.

• • •

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٥٤) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١/ ٤١)، والحاكم (٤/ ٣١٤) وسكت عنه، وكذا الذهبي، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٢٠٥ و ٥٢٥٨)، بسند حسن.

الدرس الثالث والعشرون بعد المائتين

﴿سورة سبأ﴾

وآياتها أربع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۞ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۞﴾.

قال ابن كثير[1]: يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المنعم المتفضّل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وهو الله لا إله إلاَّ هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾[2] ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾، أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرّفه وقهره، كما قال تعالى: ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾[3]؛ ثم قال عز وجل: ﴿له الحمد في الآخرة﴾ فهو المعبود أبداً المحمود على طول المدى. وقوله تعالى: ﴿وهو الحكيم﴾، أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿الخبير﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۞ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۞ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۞ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٢٤ ــ ٥٢٥).
(٢) سورة القصص: الآية ٧٠.
(٣) سورة الليل: الآية ١٣.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾.

قال ابن كثير[1]: هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهنّ، مما أمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لمّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهنّ في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿ويستنبؤونك أحقّ هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾[2]، والثانية هذه: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾، والثالثة في سورة التغابن[3]، وهي قوله تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثنّ ثم لتنبؤنّ بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ فقال تعالى: ﴿قل بلى وربي لتأتينكم﴾ ثم وصفه بما يؤكّد ذلك ويقرّره فقال: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين﴾.

قال مجاهد وقتادة: ﴿لا يعزب عنه﴾ لا يغيب عنه، أي: الجميع متدرّج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرّقت وتمزّقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرّقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم؛ ثم بيّن حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم﴾.

﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾، أي: سعوا في الصدّ عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله ﴿أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾، أي: لينعم السعداء من المؤمنين ويعذّب الأشقياء من الكافرين، كما قال عز وجل: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾[4]، وقال تعالى: أم نجعل

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٥٢٥).

(٢) سورة يونس: الآية ٥٣.

(٣) سورة سبأ: الآية ٥٣.

(٤) سورة الحشر: الآية ٢٠.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجار﴾.

وقوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار، بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا، رأوه حينئذ عين اليقين ويقولون يومئذ أيضاً ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾[1] ويقال أيضاً: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾[2]، ﴿لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث﴾[3] ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾، ﴿العزيز﴾ هو المنيع الجناب الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه ﴿الحميد﴾ في جميع أقواله وأفعاله وشرعه، وقدره، وهو المحمود في ذلك كله جلّ وعلا.

وقال البغوي[4]: **قوله تعالى:** ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾، يعني: مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ ﴿الذي أنزل إليك من ربك﴾، يعني: القرآن ﴿هو الحق﴾، يعني: أنه من عند الله ﴿ويهدي﴾ يعني: القرآن ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ وهو الإسلام.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٣.

(٢) سورة يس: الآية ٥٢.

(٣) سورة الروم: الآية ٥٦.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٧٥).

وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ .

قال ابن كثير[١]: هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك ﴿وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبّئكم إذا مُزّقتم كل ممزّق﴾، أي: تفرّقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿إنكم﴾، أي: بعد هذا الحال ﴿لفي خَلْق جديد﴾، أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك، وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمّد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمّد لكن لَبَسَ عليه كما يَلْبِسُ على المعتوه والمجنون، ولهذا قالوا: ﴿أفترى على الله كذباً أم به جِنّة﴾؟ قال الله عز وجل رادّاً عليهم ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البارّ الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغنياء، ﴿في العذاب﴾، أي: الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿والضلال البعيد﴾ من الحق في الدنيا.

ثم قال تعالى منبّهاً على قدرته في خلق السموات والأرض فقال تعالى: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾، أي: حيثما توجّهوا وذهبوا فالسماء مطلّة عليهم والأرض تحتهم، كما قال عز وجل: ﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾[٢]. قال عبد بن حميد: أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ قال: إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيت السماء والأرض.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٢٦).

(٢) سورة الذاريات: الآية ٤٨.

وقوله تعالى: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾، أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخّر ذلك لحلمنا وعفونا؛ ثم قال: ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾ قال معمر عن قتادة: منيب تائب. وقال سفيان عن قتادة: المنيب المقبل إلى الله تعالى، أي أن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجّاع إلى الله، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد، لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى﴾[١].

وقال تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٢].

● ● ●

(١) سورة يس: الآية ٨١.

(٢) سورة غافر: الآية ٥٧.

الدرس الرابع والعشرون بعد المائتين

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿يا جبال أوّبي معه﴾ يقول: سبّحي معه.

قال ابن كثير[1]: التأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجّع معه بأصواتها. وعن قتادة: ﴿وألنّا له الحديد﴾ يسخّر له الحديد بغير نار ﴿أن اعمل سابغات﴾ دروع، وكان أول من صنعها داود، إنما كان قبل ذلك صفائح ﴿وقدّر في السَّرْد﴾ قال: كان يجعلها بغير نار ولا يقرعها بحديد ثم يسردها، والسرد المسامير التي في الحِلَقِ. وعن مجاهد في قوله: ﴿وقدّر في السرد﴾ قال: لا تصغر المسمار وتعظم الحلقة فتسلس، ولا تعظم المسمار وتصغر الحلقة فيفصم المسمار.

قوله عز وجل: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر﴾ قال: كان له مركب من خشب، وكان فيه ألف ركن، في كل ركن ألف بيت تركب فيه الجنّ والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب هم والعصار،

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٢٧).

فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فسارت به وساروا معه؛ يَقيل عند قوم بينه وبينهم شهر، ويمسي عند قوم بينه وبينهم شهر، ولا يدري القوم إلاَّ وقد أظلّهم معه الجيوش والجنود. وقال الحسن: كان يغدو فيَقيل في إصطخر، ثم يروح منها فيكون رَواحها بكابل.

وعن ابن عباس قوله: ﴿وأسلنا له عين القِطْر﴾، يعني: عين النحاس أُسيلت. وقال قتادة: كانت بأرض اليمن.

وقوله تعالى: ﴿ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ قال قتادة: أي يعدل منهم عن أمرنا، عما أمره به سليمان ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ وقيل: إن الله عز وجل وكلّ بهم ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاغ منهم عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته. قال الحسن: الجنّ ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو وليّ الله تعالى، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان.

وعن مجاهد في قوله: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب﴾ قال: بنيان دون القصور ﴿وتماثيل﴾ قال: من نحاس ﴿وجفان كالجواب﴾ قال الحسن: كالحياض ﴿وقدور راسيات﴾ قال قتادة: عظام ثابتات في الأرض لا يزُلن عن أمكنتهنّ.

وقال البغوي[1]: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب﴾، أي: المساجد والأبنية المرتفعة ﴿وتماثيل﴾، أي: صوراً من نحاس وصفر وشبه وزجاج ورخام، قال: ولعلّها كانت مباحة في شريعتهم، كما أن عيسى كان يتّخذ صوراً من الطين فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ﴿وجفان﴾، أي: قصاع، واحدتها جفنة ﴿كالجواب﴾ كالحياض التي يجبى فيها الماء، واحدتها جابية ﴿وقدور راسيات﴾ ثابتات لها قوائم لا تحركن عن أماكنها لعظمهنّ، ولا يزلن ولا يقلعن، وكان يصعد

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٧٦).

عليها بالسلاليم. ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾، أي: وقلنا: اعملوا آل داود شكراً، مجازه: اعملوا يا آل داود بطاعة الله، شكراً لله على نعمه ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾، أي: العامل بطاعتي شكراً لنعمتي. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿إلاَّ دابةِ الأرض تأكل مِنسأته﴾ يقول: الأرض تأكل عصاه. وقال قتادة: كانت الجن تخبر الإنس أنهم كانوا يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غد، فابتُلوا بموت سليمان، فمات فلبث سنة على عصاه وهم لا يشعرون بموته، وهم مسخّرون تلك السنة يعملون دائبين.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)﴾.

عن ابن عباس قال: إن رجلين سألا رسول الله ﷺ عن سبأ، ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة والشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحِمْيَر، وأما الشامية: فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان»[1]. رواه أحمد وغيره.

---

(١) أخرجه أحمد (١/٣١٦)، والحاكم (٢/٤٢٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وله شاهد من حديث فروة بن مسيك المرادي بنحوه، أخرجه الترمذي (ح/٣٢٢٢) وحسنه، والحاكم (٢/٤٢٤)، وصححه، وسكت عنه الذهبي، قلت: وفيه ضعف، إلاَّ أن ما قبله يشهد له، فهو حسن والله أعلم.

وقال قتادة في قوله: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال﴾ قال: كانت جنتان بين جبلين، فكانت المرأة تخرج مكتلها على رأسها فتمشي بين جبلين فيمتلىء مكتلها وما مسّت يدها، فلما طغوا بعث الله عليهم دابة يقال لها جرذ، فنقبت عليهم ففرّقتهم فما بقي لهم إلاّ أثل وشيء من سدر قليل. وقال المغيرة بن حكيم: لما ملكت بلقيس جعل قومها يقتتلون على ماء واديهم، قال: فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها، فتركت ملكها وانطلقت إلى قصر لها وتركتهم، فلما كثر الشر بينهم وندموا أتوها فأرادوها على أن ترجع إلى ملكها فأبت، فقالوا: لترجعنّ أو لنقتلنك، فقالت: إنكم لا تطيعوني وليست لكم عقول ولا تطيعوني، قالوا: فإنا نطيعك، وإنا لم نجد فينا خيراً بعدك، فجاءت قال: فسدّت ما بين الجبلين فحبست الماء من وراء السد، وجعلت له أبواباً بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة ضخمة، فجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدّة أنهارهم، فلما جاء المطر احتبس السيل من وراء السد، فأمرت بالباب الأعلى ففُتح فجرى ماؤه في البركة، وأمرت بالبعر فألقي فيها فجعل بعض البعر يخرج أسرع من بعض، فلم تزل تضيق تلك الأنهار وترسل البعر في الماء حتى خرج جميعاً معاً، فكانت تقسمه بينهم على ذلك، حتى كان من شأن سليمان وشأنها ما كان.

وقال البغوي(١): والعرم ــ جمع عرمة ــ وهي المسكر الذي يحبس به الماء. قال قتادة: لما ترك القوم أمر الله بعث الله عليهم جرذاً يسمى «الخلد» فنقبه من أسفله حتى غرّق به جنتيهم، وخرب به أرضهم عقوبة بأعمالهم. وقال ابن عباس: أبدلهم الله مكان جنتيهم ﴿جنتين ذواتي أُكُل خَمْطٍ﴾ والخمط الأراك. قال قتادة: وأكله بريرة.

وقوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاّ الكَفور﴾؟ قال مقاتل: هل يكافأ بعمله السيِّىء إلاّ الكفور لله في نعمه؟

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٧٨).

قال ابن كثير[١]: وقوله: ﴿وشيء من سدر قليل﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر، قال: ﴿شيء من سدر قليل﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدّلت إلى شجر الأراك والطرفاء، والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاَّ الكفور﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾.

عن مجاهد: ﴿القرى التي باركنا فيها﴾ قال: الشام. وقال الحسن في قوله: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة﴾ قال: قرى متواصلة؛ كان أحدهم يغدو فيقيل في قرية، ويروح فيأوي إلى قرية أخرى. وعن مجاهد قوله: ﴿قرى ظاهرة﴾ قال: السروات.

وقوله تعالى: ﴿وقدّرنا فيها السير﴾.

قال البغوي[٢]: أي قدّرنا مسيرهم في الغدوّ والرواح على قدر نصف يوم، فإذا ساروا نصف يوم وصلوا إلى قرية ذات مياه وأشجار ﴿سيروا فيها ليالي وأيّاماً آمنين﴾ قال قتادة: لا يخالفون ظلماً ولا جوعاً ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ قال ابن عباس: فإنهم بطروا عيشهم وقالوا: لو كان جنى جناتنا أبعد مما هي، كان أجدر أن نشتهيه، فمُزِّقوا بين الشام وسبأ، وبُدّلوا بجنتيهم ﴿جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل﴾. عن قتادة: ﴿فجعلناهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٣٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٧٩).

أحاديث ومزّقناهم كل ممزَّق﴾ قال: قال عامر الشعبي: أما غسان فقد لحقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان، فمزّقهم الله كل ممزَّق؛ وقال الأعشى ميمون بن قيس:

وفـــي ذاك للمـــؤتـــي أســـوة ... ومـــأرب عفـــا عليهـــا العـــرم

رخـــام بَنَتْـــهُ لهـــم حِمْيَـــرٌ ... إذا مـــا نـــأى مـــاؤهـــم لـــم يـــرم

فـــأروى الـــزروع وأعنـــابهـــا ... علـــى سعـــة مـــاؤهـــم إذ قســـم

صـــاروا أيـــادي مـــا يقـــدرو ... ن منـــه علـــى شـــرب طفـــل فطـــم

وعن قتادة قوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾ كان مطرف يقول: نِعْمَ العبد الصبّار الشكور، الذي إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله تعالى له قضاء إلاّ كان خيراً له، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن»[1].

• • •

(١) سبق تخريجه.

الدرس الخامس والعشرون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ

ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

عن مجاهد: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه﴾ قال: ظن ظناً فاتّبعوا ظنّه. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه﴾ قال: أرأيت هؤلاء الذين كرّمتهم عليّ وفضّلتهم وشرّفتهم، لا تجد أكثرهم شاكرين، وكان ذلك ظنّاً منه بغير علم، فقال الله: ﴿فاتّبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان﴾ قال الحسن: والله ما ضربهم بعصا ولا سيف ولا سوط، إلاّ أمانيّ وغروراً دعاهم إليها. وعن قتادة قوله: ﴿إلاّ لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شكّ﴾ قال: وإنما كان بلاء ليعلم الله الكافر من المؤمن.

قال البغوي[(١)]: وأراد علم الوقوع والظهور، وقد كان معلوماً عنده بالغيب ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ رقيب.

قوله عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

قال ابن كثير[(٢)]: بيّن تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا نظير له ولا شريك، بل هو المستقلّ بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾، أي: من

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٨٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٣٦).

الآلهة التي عبدت من دونـه: ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾، أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ﴿وما له منهم من ظهير﴾، أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه. قال قتادة في قوله عز وجل: ﴿وما له منهم من ظهير﴾ من عون يعينه بشيء.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلاَّ لمن أذن له﴾، أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى، إلاَّ بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال عز وجل: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلاَّ بإذنه﴾[٢] وقال جلّ وعلا: ﴿وكم من مَلَك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلاَّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلاَّ لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾[٤]. ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبـي ﷺ، ــ وهو سيّد ولد آدم وأكرم شفيع عند الله تعالى ــ ، أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم، أن يأتي لفصل القضاء، قال: «فأسجد لله تعالى، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح عليّ بمحامد لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك وقل تُسمع وسل تعطه واشفع تُشفّع»[٥] الحديث بتمامه.

وقوله تعالى: ﴿حتى أذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلّم بالوحي فيسمع أهل

(١) سورة فاطر: الآية ١٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

(٣) سورة النجم: الآية ٢٦.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.

(٥) سبق تخريجه تحت حديث الشفاعة الطويل.

السموات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي. قال ابن مسعود رضي الله عنه ومسروق وغيرهما: ﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم﴾، أي: زال الفزع عنها ﴿قالوا ماذا قال ربكم﴾؟ سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قالوا الحق﴾، أي: أُخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿وهو العليّ الكبير﴾. وروى البغوي وغيره عن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلّم بالوحي، فإذا تكلّم أخذت السموات منه رجفة ــ أو قال: رعدة شديدة ــ خوفاً من الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صُعقوا وخرّوا لله سجّداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلّمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة، كلما مرّ بسماء يسأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: ﴿قال الحق وهو العليّ الكبير﴾ قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله»[1]. وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان: ﴿فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا﴾ للذي قال: ﴿الحق وهو العليّ الكبير﴾ »[2].

قوله عز وجل: ﴿ ۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ

(١) أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٨)، وابن أبي عاصم (ح/ ٥١٥)، وابن جرير (٢٢/ ٩١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٣٢١)، بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨٠٠).

ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

عن قتادة: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ قال: قد قال ذلك أصحاب محمد للمشركين، والله ما أنا وأنتم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد. وقال البغوي[1]: قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾؟ فالرزق من السموات المطر، ومن الأرض النبات ﴿قل الله﴾، أي: إن لم يقولوا: رازقنا الله، فقل أنت: إن رازقكم هو الله ﴿وإنا أو إيّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ ليس هذا على طريق الشك ولكن على جهة الإنصاف في الحجاج، كما يقول القائل للآخر: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب.

وعن قتادة: ﴿قل يجمع بيننا ربنا يوم القيامة ثم يفتح بيننا﴾، أي: يقضي بيننا. وعن ابن عباس قوله: ﴿وهو الفتّاح العليم﴾ يقول: القاضي ﴿قل أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾.

قال البغوي[2]، أي: أَعْلِمُوني الذين ألحقتموهم به، أي: بالله، شركاء في العبادة معه، هل يخلقون؟ وهل يرزقون؟ ﴿كلا﴾ لا يخلقون ولا يرزقون بل هو الله ﴿العزيز﴾ الغالب على أمره ﴿الحكيم﴾ في تدبيره لخلقه؛ فأنى يكون له شريك في ملكه؟ وعن قتادة قوله: ﴿وما أرسلناك إلاّ كافّة للناس﴾ قال: أرسل الله محمداً إلى العرب والعجم، فأكرمُهم على الله أطوعُهم له. ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال: «أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وسلمان سابق فارس»[3].

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٨١).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٤٨٢).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٩٦) مرسلاً. وروي مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه =

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ قال: قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه من الكتاب والأنبياء.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ يقول: بل مكركم بنا في الليل والنهار أيها العظماء الرؤساء: ﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ قال ابن كثير[1]، أي: نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شبهاً وأشياء من المحال تضلّونا بها ﴿وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب﴾، أي: الجميع من السادة والأتباع، كل ندم على ما سلف منه ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلّا ما كانوا يعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾

= الطبراني (٨/ ٣٤)، وفيه ضعف لكنه شاهد من حديث أبي أمامة: أخرجه الطبراني (٨/ ١٣١)، قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٠٥): «وإسناده حسن».

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٣٩).

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلاَّ قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ قال: هم رؤوسهم وقادتهم في الشر.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلاَّ من آمن وعمل صالحاً﴾ قال: وهذا قول المشركين لرسول الله ﷺ وأصحابه، قالوا: لو لم يكن الله عنّا راضياً لم يعطنا هذا، كما قال قارون لولا أن الله رضي بي وبحالي ما أعطاني هذا. قال: ﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوّة وأكثر جمعاً﴾[1] قال قتادة: لا يعتبر الناس بكثرة المال والولد، لكن الكافر قد يعطى المال وربما حُبس عن المؤمن، وعن سعيد بن جبير: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخْلِفُه﴾ قال: ما كان في غير إسراف ولا تقتير. وروى البغوي وغيره من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلاَّ وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تَلَفاً»[2].

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري (ح/١٤٤٢)، ومسلم (ح/١٠١٠).

أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قال ابن جرير[١]: يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء الكفار بالله جميعاً، ثم تقول للملائكة: أهؤلاء كانوا يعبدونكم من دوننا؟ فتبرأ منهم الملائكة ﴿قالوا سبحانك ربنا﴾ تنزيهاً لك وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء الشركاء والأنداد ﴿أنت وليّنا من دونهم﴾ لا نتّخذ وليّاً دونك ﴿بل كانوا يعبدون الجنّ﴾ قال البغوي[٢]: فإن قيل: هم كانوا يعبدون الملائكة فكيف وجه قوله ﴿يعبدون الجنّ﴾ قيل: أراد أن الشياطين زيّنوا لهم عبادة الملائكة، فهم كانوا يطيعون الشياطين في عبادة الملائكة؛ فقوله: ﴿يعبدون الجنّ﴾، أي: يطيعون الجنّ: ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾ يعني مصدّقون للشياطين.

ثم يقول الله: ﴿فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعاً﴾ بالشفاعة ﴿ولا ضرّاً﴾ بالعذاب، يريد أنهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضرّ. وقال ابن كثير[٣]، أي: لا يقع لكم نفع مما كنتم ترجون نفعه من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم اليوم، لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرّاً. ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذّبون﴾، أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

• • •

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢٢/ ١٠٢).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٨٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٤٢).

الدرس السادس والعشرون بعد المائتين

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا ءَاتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤) ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها﴾ أي يقرؤونها ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ ﴿وكذّب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم﴾ يخبركم أنه أعطى القوم ما لم يعطكم من القوة وغير ذلك ﴿فكذّبوا رسلي فكيف كان نكير﴾.

قال البغوي[1]: أي إنكاري وتغييري عليهم، يحذّر كفار هذه الأمة عذاب الأمم الماضية.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٨٠).

عن قتادة قوله: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة﴾ وتلك الواحدة ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾ رجلاً ورجلين.

وقال ابن كثير[(١)]: يقول تبارك وتعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين إنك مجنون: ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾، أي: إنما آمركم بواحدة، وهي ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكّروا ما بصاحبكم من جِنّة﴾، أي: تقوموا قياماً خالصاً لله عزّ وجلّ من غير هوى ولا عصبيّة، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً، ﴿ثم تتفكروا﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكّر في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكّروا ما بصاحبكم من جِنّة﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن هو إلاّ نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ روى الإمام أحمد من حديث بريدة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوّاً يأتيهم، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدوّ، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيّها الناس أُتِيتُم، أيّها الناس أُتِيتُم، ثلاث مرات»[(٢)]؛ وقال ﷺ: «بعثت أنا والساعة جميعاً، إن كادت لتسبقني»[(٣)].

وعن قتادة قوله: ﴿قل ما سألتكم من أجر﴾، أي: جُعْل ﴿فهو لكم﴾ يقول: لم أسألكم على الإسلام جُعْلاً ﴿إن أجري إلاّ على الله وهو على كل شيء شهيد﴾.

﴿قل إنّ ربـيّ يقذف بالحقّ﴾ بالوحي ﴿علاّم الغيوب﴾ قال ابن كثير[(٤)]: وقوله عز وجل: ﴿قل إن ربـي يقذف بالحق﴾ أي: بالوحي ﴿علام الغيوب﴾

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨) بسند فيه ضعف.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨) بسند فيه ضعف، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٤٤).

كقوله تعالى: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾[١]، أي: يرسل الملك على من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علّام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل جاء الحقّ وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾، أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهب الباطل وزهق واضمحلّ، كقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[٢] ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يطعن الصنم منها بسنّ قوسه ويقرأ: ﴿وقل جاء وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً﴾، ﴿قل جاء الحقّ وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿قل إن ضللت فإنما أضلّ على نفسي﴾ قال البغوي[٤]: وذلك أن كفار مكة كانوا يقولون له: إنك قد ضللت حين تركت دين آبائك، فقال الله تعالى: ﴿قل إن ضللت فإنما أضلّ على نفسي﴾، أي: إثم ضلالتي على نفسي ﴿وإن اهتديت فيما يوحي إليّ ربّي﴾ من القرآن والحكمة ﴿إنه سميع قريب﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

---

(١) سورة غافر: الآية ١٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٨.

(٣) أخرجه البخاري (ح/٢٤٧٨ و ٤٢٨٧ و ٤٧٢٠)، ومسلم (ح/١٧٨١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٨٥).

عن قتادة عن الحسن قوله: ﴿ولو ترى إذ فزعوا﴾ قال: فزعوا يوم القيامة حين خرجوا من قبورهم. وقال قتادة: ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأُخذوا من مكان قريب﴾ حين عاينوا عذاب الله. **قال البغوي**[1]: وفي الآية حذف تقديره: لرأيت أمراً تعتبر به.

وعن مجاهد قوله: ﴿وقالوا آمنا به﴾ قالوا: آمنا بالله. **وقال ابن جرير**[2]: يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون حين عاينوا عذاب الله ﴿آمنا به﴾ يعني آمنا بالله وبكتابه ورسوله.

وعن ابن عباس ﴿وأنّى لهم التناوُش﴾ قال: يسألون الرَدّ وليس بحين رَدّ. وعن سعيد ﴿وأنّى لهم التناوش﴾ قال: التناول. وعن مجاهد قوله: ﴿من مكان بعيد﴾ من الآخرة إلى الدنيا. وعن قتادة ﴿وقد كفروا به من قبل﴾، أي: بالإيمان في الدنيا.

﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾، أي: يرجمون بالظنّ يقولون: لا بعث ولا جنّة ولا نار. وعن مجاهد في قوله: ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ قال قولهم: ساحر، بل هو كاهن، بل هو شاعر. ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ قال: من مال أو ولد أو زهرة ﴿كما فُعل بأشياعهم من قبل﴾ قال البغوي[3]: يعني بنظرائهم ومن كان على مثل حالهم من الكفار، أي لم يقبل منهم الإيمان والتوبة في وقت اليأس ﴿إنهم كانوا في شكّ﴾ من البعث ونزول العذاب بهم ﴿مريب﴾ موقع لهم الريبة والتهمة. قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شك بُعث عليه، ومن مات على يقين بُعث عليه.

• • •

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٨٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٢/ ١٠٩).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ١١٠).

الدرس السابع والعشرون بعد المائتين

﴿سـورة فـاطـر﴾

وآياتها خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ

ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ
يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ
وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ
عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ
أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ
فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ
وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن
قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ».

* * *

قوله عز وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿فاطر السموات والأرض﴾، أي: بديع السموات والأرض؛ وقال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أي بدأتها. ﴿جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾ قال قتادة: بعضهم له جناحان وبعضهم ثلاثة وبعضهم أربعة ﴿يزيد في الخَلق ما يشاء﴾ قال السدي: يزيد في أجنحتهم ما يشاء؛ وفي الحديث أن «رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستّمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب»[(١)]. وعن قتادة: ﴿ما يفتحِ الله للناس من رحمة﴾، أي: من خير ﴿فلا ممسك لها﴾ فلا يستطيع أحد حبسها ﴿وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقول دبر كلّ صلاة مكتوبة: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد»[(٢)].

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ

(١) سبق تخريجه عند حديث الإسراء الطويل.

(٢) سبق تخريجه.

فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وإن يكذبوك فقد كُذّبت رسل من قبلك﴾ يعزي نبيّه كما تسمعون. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ولا يغرّنكم بالله الغَرور﴾ يقول: الشيطان. وعن قتادة قوله: ﴿إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّاً﴾ فإنه حقّ على كل مسلم عداوته، وعداوته أن يعاديه بطاعة الله ﴿إنما يدعو حزبه﴾ وحزبه أولياؤه ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾، أي: ليسوقهم إلى النار فهذه عداوته.

وقوله تعالى: ﴿أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ قال الحسن: الشيطان زيّن لهم. ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، أي: لا يحزنك ذلك عليهم ﴿فإن الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾. وقال ابن كثير[1]: ﴿أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾، يعني: الكفار والفجّار يعملون أعمالاً سيّئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أي: أفمن كان هكذا قد أضلّه الله، ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه ﴿فإن الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾، أي: بقَدَره كان ذلك ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، أي: لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره، إنما يُضلّ من يُضلّ ويَهدي من يَهدي، لما له في ذلك من الحجّة البالغة والعلم التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٤٨).

قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ قال: يرسل الرياح فتسوق السحاب، فأحيا الله به هذه الأرض الميتة بهذا الماء، فكذلك يبعثه يوم القيامة. ﴿من كان يريد العزّة فللّه العزّة جميعاً﴾ يقول: فليعزز بطاعة الله ﴿إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه﴾ لا يقبل الله قولاً إلاّ بعمل، مَنْ قال وأحسن العمل قَبِلَ الله منه. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إذا حدّثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى: إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، تبارك الله، أخذهنّ ملك فجعلهنّ تحت جناحيه ثم صعد بهنّ إلى السماء، فلا يمرّ بهنّ على جمع من الملائكة إلاّ استغفروا لقائلهنّ، حتى يجيء

بهنّ وجهَ الرحمن، ثم قرأ عبد الله: ﴿إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه﴾[1]. رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿والذين يمكرون السيّئات لهم عذاب شديد﴾.

قال ابن جرير[2]: يقول تعالى ذكره: والذين يكسبون السيّئات لهم عذاب جهنّم.

وقوله: ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ يقول: وعمل هؤلاء المشركين يبور، فيبطل فيذهب لأنه لم يكن لله فلم ينفع عامله.

وعن قتادة: ﴿والله خلقكم من تراب﴾، يعني: آدم ﴿ثم من نطفة﴾، يعني: ذرّيّته ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ فزوّج بعضكم بعضاً. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وما يعمّر من معمَّر ولا يُنقص من عمره إلاَّ في كتاب﴾ قال: ألا ترى الإنسان يعيش مائة سنة، وآخر حين يولد؟

وقوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أُجاج﴾ قال قتادة: والأُجاج المرّ. ﴿ومن كُلّ تأكلون لحماً طريّاً﴾، أي: منهما جميعاً ﴿وتستخرجون حلية تلبسوها﴾ هذا اللؤلؤ ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ فيه السفن مقبلة ومدبرة بريح واحدة؛ قيل: نسب اللؤلؤ إليهما لأنه يكون في البحر الأُجاج عيون عذبة، فيكون اللؤلؤ من بين ذلك.

وعن قتادة: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ زيادة هذا في نقصان هذا، ونقصان هذا في زيادة هذا. ﴿وسخّر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمّى﴾ لأجل معلوم وحدّ لا يقصر دونه ولا يتعدّاه ﴿ذلكم الله ربكم له الملك﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ١٢٠)، والطبراني (٩/ ٢٦٦)، والحاكم (٢/ ٤٢٥)، وصححه ووافقه الذهبي قلت: وفيه عبد الله بن المخارق وهو مجهول.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٢/ ١٢١).

قال ابن جرير[١]: **وقوله**: ﴿ذلكم الله ربكم﴾ يقول: الذي يفعل هذه الأفعال معبودكم ــ أيها الناس ــ الذي لا تصلح العبادة إلاَّ له، وهو الله ربكم.

وقوله: ﴿له الملك﴾ يقول تعالى ذكره: له الملك التامّ الذي لا شيء إلاَّ وهو في ملكه وسلطانه.

وقوله: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطمير﴾ يقول تعالى ذكره: والذين تعبدون ــ أيها الناس ــ من دون ربكم ــ الذي هذه الصفة التي ذكرها في هذه الآيات صفته ــ ﴿ما يملكون من قطمير﴾ يقول: ما يملكون قشر نواة فما فوقها. وعن قتادة قوله: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾، أي: ما قبلوا ذلك عنكم ولا نفعوكم فيه ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ إياهم ولا يرضون ولا يقرّون به. ﴿ولا ينبّئك مثل خبير﴾ والله هو الخبير أنه سيكون هذا منهم يوم القيامة. انتهى.

وقد قال تعالى: ﴿ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلاَّ لمن أذن له﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله

---

(١) المصدر السابق (٢٢/ ١٢٤).

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٥.

(٣) سورة سبأ: الآية ٢٣.

(٤) سورة سبأ: الآية ٤٠.

قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء ولكن متّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً﴾[٣].

● ● ●

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٦.

(٢) سورة يونس: الآية ٢٩.

(٣) سورة الفرقان: الآية ١٨.

الدرس الثامن والعشرون بعد المائتين

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ يقول: يكون عليه وزر لا يجد أحداً يحمل عنه من وزره شيئاً. وعن قتادة قوله: ﴿ومن تزكّى فإنّما يتزكّى لنفسه﴾، أي: من يعمل صالحاً فإنما يعمله لنفسه.

وقوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظلّ ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ قال ابن زيد: هذا مثل ضربه الله، فالمؤمن بصير في دين الله، والكافر أعمى، كما لا يستوي الظلّ ولا الحرور ولا الأحياء ولا الأموات. وقال ابن عباس: هو مثل ضربه الله لأهل الطاعة وأهل المعصية، يقول: وما يستوي الأعمى والظلمات والحرور ولا الأموات، فهو مثل

أهل المعصية، ولا يستوي البصير ولا النور ولا الظلّ والأحياء، فهو مثل أهل الطاعة. وعن قتادة: ﴿إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾ كذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفع بما يسمع. وقال البغوي: ﴿إن الله يُسمع من يشاء﴾ حتى يتّعظ ويجيب: ﴿وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾ يعني الكفار شبّههم بالأموات في القبور حين لم يجيبوا: ﴿إن أنت إلاَّ نذير﴾ ما أنت إلاَّ منذر تخوّفهم بالنار.

﴿إنا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً وإن من أمّة﴾ ما من أمة فيما مضى ﴿إلاَّ خلا﴾ سلف ﴿فيها نذير﴾ نبيّ منذر ﴿وإن يكذّبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبيّنات وبالزبر﴾ بالكتب ﴿وبالكتاب المنير﴾ الواضح؛ كرّر ذلك الكتاب بعد ذكر الزبر على طريق التأكيد. ﴿ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾، أي: إنكاري. وقال ابن كثير[1]: ﴿ثم أخذت الذين كفروا﴾، أي: ومع هذا كله كذّب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم، أي: بالعقاب والنكال: ﴿فكيف كان نكير﴾، أي: فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً؟ والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها﴾ أحمر وأخضر وأصفر: ﴿ومن الجبال جُدَدٌ بيض﴾، أي: طرائق بيض: ﴿وحمر مختلف ألوانها﴾، أي: جبال حمر وبيض: ﴿وغرابيب سود﴾ هو الأسود، يعني لونه كما اختلف ألوان هذه اختلف ألوان الناس والدواب والأنعام كذلك.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٥٣).

وعن ابن عباس قوله: ﴿إنما يخشى اللَّهَ من عباده العلماءُ﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وقال قتادة: كان يقال: كفى بالرهبة علماً. وقال ابن مسعود: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وقال سعيد ابن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل. وقال ابن عباس: العالم بالرحمن من عباده، من لم يشرك به شيئاً، وأحلّ حلاله وحرّم حرامه، وحفظ وصيّته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

عن قتادة قال: كان مطرف إذا مرّ بهذه الآية: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ يقول: هذه آية القرّاء: ﴿ليوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾. وعن قتادة: ﴿إنه غفور شكور﴾ إنه غفور لذنوبهم، شكور لحسناتهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحقّ مصدّقاً لما بين يديه﴾ الكتب التي خلت قبله.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿الفضل الكبير﴾ هم أمّة محمد ﷺ، ورّثهم الله كل كتاب أنزله. وقال ابن مسعود: «هذه الأمّة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسَبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام، حتى يقول: ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام، إلاَّ أنهم لم يشركوا بك، فيقول الرب: أدخِلوا هؤلاء في سعة رحمتي؛ وتلا عبد الله هذه الآية: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ »[1]. وعن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ ذكر هذه الآية: «﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾. فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغمّ والحزن، فذلك قوله: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن﴾ »[2]. رواه ابن جرير وغيره. قال الزجاج: أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان، ما كان منها لمعاش أو لمَعاد.

وعن قتادة: ﴿الذي أحلّنا دار المُقامة من فضله﴾ أقاموا فلا يتحّولون: ﴿لا يمسّنا فيها نَصَبٌ﴾، أي: وجع: ﴿ولا يمسّنا فيها لُغُوب﴾ قال ابن عباس: اللغوب العناء.

قوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

عن قتادة: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم﴾ بالموت: ﴿فيموتوا﴾ لأنهم لو ماتوا لاستراحوا: ﴿ولا يخفّف عنهم من عذابها﴾. وروى ابن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ١٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٨)، وابن جرير (٢٢/ ١٣٧)، والحاكم (١/ ٤٢٦).

جرير وغيره عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن ناساً ــ أو كما قال ــ تصيبهم النار بذنوبهم ــ أو قال: بخطاياهم ــ فيميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثّوا على أهل الجنّة فقال: يا أهل الجنة: أفيضوا عليهم، فيَنبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل»[١]. فقال رجل من القوم: حينئذ كأنّ رسول الله ﷺ قد كان بالبادية.

قوله تعالى: ﴿وهم يصطرخون﴾، أي: يصيحون: ﴿فيها يقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ فيقول الله لهم توبيخاً: ﴿أو لم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ قال ابن عباس: العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم أربعون سنة. قال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْذَرَ الله عزّ وجلّ إلى امرىء أخّر عمره حتى بلغ ستّين سنة»[٢]. رواه البخاري وغيره. وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجّة، فنعوذ بالله أن نعيَّر بطول العمر، قد نزلت هذه الآية: ﴿أو لم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر﴾ وإنّ فيهم لابن ثماني عشرة سنة. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وجاءكم النذير﴾ قال: النذير النبيّ، وقرأ: ﴿هذا نذير من النُذُر الأولى﴾.

قال ابن كثير[٣]: وقوله تعالى: ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾، أي: ﴿فذوقوا عذاب النار﴾ جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدّة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم.

• • •

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٦٤١٩).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٦٠).

الدرس التاسع والعشرون بعد المائتين

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) ۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: يخبر تعالى بعلم غيب السموات والأرض، وأنه يعلم ما تكنّه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازَى كلّ بعمله؛ ثم قال عزّ وجلّ: ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾، أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾، أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلاّ مقتاً﴾، أي: كلّما استمرّوا على كفرهم أبغضهم الله تعالى، وكلّما استمرّوا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وأحبه خالقه.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

قال ابن كثير[2]: يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله﴾، أي: من الأصنام والأنداد ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات﴾، أي: أَلَهُمْ شيء من ذلك؟ ما

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٦٠).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٥٦١).

يملكون من قطمير. وقوله: ﴿أم آتيناهم كتاباً فهم على بيّنة منه﴾، أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلاَّ غروراً﴾، أي: بل إنما اتّبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنّوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور.

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عند أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾، أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال عز وجل: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلاَّ بإذنه﴾[1] وقال تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾[2]؛ ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾، أي: لا يقدر على قوامهما وإبقائهما إلاَّ هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخّر ويُنْظِرُ، ويؤجلّ ولا يعجل، ويستر آخرين ويغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ قال: وثبت في الصحيحين عن أبـي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[3].

قوله عز وجل: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

(١) سورة الحج: الآية ٦٥.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٥.

(٣) سبق تخريجه.

قال البغوي[(١)]: **قوله تعالى**: ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم﴾، يعني: كفار مكة لما بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذّبوهم، وأقسموا بالله وقالوا: لو أتانا رسول الله لنكوننّ أهدى ديناً منهم، وذلك قبل مبعث النبي ﷺ، فلما بُعث محمد كذّبوه فأنزل الله عز وجل: ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن جاءهم نذير﴾ رسول ﴿ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ يعني من اليهود والنصارى ﴿ولما جاءهم نذير﴾ محمد ﷺ ﴿ما زادهم إلاّ نفوراً﴾، أي: ما زادهم مجيئه إلاّ تباعداً عن الهدى ﴿استكباراً في الأرض﴾ نَصَبَ «استكباراً» على البدل من «النفور». ﴿ومكر السيِّىء﴾، يعني: العمل القبيح، أضيف المكر إلى صفته؛ قال الكلبي: هو اجتماعهم على الشرك، وقتل النبي ﷺ. ﴿ولا يَحيق المكر السيِّىء﴾، أي: لا يحلّ ولا يحيط المكر السيّىء ﴿إلاّ بأهله﴾ فقُتلوا يوم بدر. وقال ابن عباس: عاقبة الشرك لا تحلّ إلاّ بمن أشرك، والمعنى: أن وبال مكرهم راجع عليهم ﴿فهل ينظرون إلاّ سنّة الأولين﴾ إلاّ أن ينزل بهم العذاب كما نزل بمن مضى من الكفار؟ **قال ابن كثير**[(٢)]: وقال محمد بن كعب القرظي: ثلاث من فعلهنّ لم ينج حتى ينزل به: مَنْ مَكَرَ أو بَغَى أو نَكَثَ وتصديقها في كتاب الله ﴿ولا يحيق المكر السيِّىء إلاّ بأهله﴾ ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾.

وقوله تعالى: ﴿فلن تجد لسنّة الله تبديلاً ولن تجد لسنّة الله تحويلاً﴾ قال بعضهم: والتبديل تغيير الصورة مع بقاء المادة، والتحويل نقل الشيء من مكان إلى مكان آخر. **قال ابن كثير**[(٣)]: وقوله عز وجل: ﴿فهل ينظرون إلاّ سنة الأولين﴾، يعني: عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً﴾، أي: لا تغير ولا تبدّل بل هي جارية كذلك في كل مكذِّب ﴿ولن تجد

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٩٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٦٢).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٥٦٢).

لسنّة الله تحويلاً﴾، أي: وإذا أراد بقوم سوءاً فلا مردّ له ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد. والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وكانوا أشدّ منهم قوة﴾ يخبركم أنه أعطى القوم ما لم يعطكم. ﴿وما كان الله ليعجزه﴾ قال البغوي[1]: أي ليفوت عنه ﴿من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً﴾. ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا﴾ من الجرائم ﴿ما ترك على ظهرها﴾، يعني: على ظهر الأرض، كناية عن غير مذكور ﴿من دابّة﴾ كما كان في زمان نوح، أهلك الله ما على ظهر الأرض إلاَّ من كان في سفينة نوح.

﴿ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أهل طاعته وأهل معصيته. وقال ابن كثير[2]: ﴿ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى﴾، أي: ولكن يُنْظِرُهُم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ، ويوفّي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة وبالعقاب أهل المعصية، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾.

● ● ●

(١) انظر «معالم التنزيل» (٣/ ٤٩٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٦٢).

الدرس الثلاثون بعد المائتين

﴿سورة يس﴾

مكية وهي ثلاث وثمانون آية

روى البزار وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس»[1]. وعن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله عزّ وجل غفر له»[2]. رواه ابن حبان في صحيحه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا

---

(١) أخرجه البزار كما في «مختصر زوائد البزار» (ح/ ١٥٤٩) بسند ضعيف. وبنحوه مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه، أخرجه الترمذي (ح/ ٢٨٨٧) والقضاعي (ح/ ١٠٣٥)، قال أبو حاتم: «حديث باطل لا أصل له» انظر «العلل» (٢/ ٥٦). قال الترمذي «وفي الباب عن أبي بكر الصديق ولا يصح من قبل إسناده، إسناده ضعيف».

(٢) أخرجه ابن حبان (ح/ ٢٥٦٥) كما في «الإحسان»، بسند ضعيف، وأخرجه الطبراني في «الصغير» (ح/ ٤٠٩)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٨٠)، بسند ضعيف من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ
شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم
مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ
أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا
يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾
ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ
ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾
۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ
إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ
إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا
يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾.

عن قتادة ﴿والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ قَسَمٌ، كما تسمعون ﴿إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾، أي: على الإسلام ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ قال البغوي[1]: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص «تنزيل» بنصب اللام، كأن قال: نزل تنزيلاً؛ وقرأ الآخرون بالرفع، أي: هو تنزيل العزيز الرحيم.

قال ابن كثير[2]: وقوله تعالى: ﴿لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ يعني بهم العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وذِكْرُهُم وحدهم لا ينفي مَنْ عَداهم، كما أنّ ذِكْرَ بعض الأفراد لا ينفي العموم، وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة الدالّة على عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٦٣).

وقال البغوي[١]: ﴿لقد حقّ﴾ وجب العذاب ﴿على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ هذا كقوله: ﴿ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين﴾. وعن قتادة قوله: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمَحون﴾، أي: فهم مضلّلون عن كل خير ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً﴾ قال: ضلالات ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ هدى ولا ينتفعون به. وعن عكرمة قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلنّ ولأفعلنّ، فأنزلت ﴿إنا جعلنا في أعناقهم﴾ إلى ﴿فهم لا يبصرون﴾ قال: فكانوا يقولون: هذا محمد فيقول: أين هو، أين هو؟ لا يبصر.

وقوله تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشّره بمغفرة وأجر كريم﴾ قال قتادة: واتباع الذكر اتباع القرآن. وقوله تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا﴾ قال قتادة: مِنْ عَمَلٍ. وعن مجاهد ﴿ما قدّموا﴾ أعمالهم وآثارهم، قال: خُطاهم بأرجلهم. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا بني سلمة، ديارَكم تُكْتَبُ آثارُكم»[٢]. رواه مسلم وغيره. وعن جرير بن عبد الله البجليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَنّ في الإسلام سنَّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٣]. وعن قتادة قوله: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ محصى عند الله في كتاب.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ٦٦٥).

(٣) أخرجه مسلم (ح/ ١٠١٧).

قوله عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩)﴾.

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وعن كعب الأحبار وعن وهب بن منبه قال: كان بمدينة أنطاكية فرعون من الفراعنة يقال له أبطيحس، يعبد الأصنام صاحب شرك، فبعث الله المرسلين وهم ثلاثة: صادق ومصدوق وسلوم، فقدم إليه وإلى أهل مدينته اثنان فكذّبوهما ثم عزّز الله بثالث، فلما دعته الرسل ونادته بأمر الله وصدعت بالذي أُمرت به وعابت دينه وما هم عليه، قال لهم ﴿إنا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسّنكم منا عذاب أليم﴾ قالت لهم الرسل ﴿طائركم معكم﴾، أي: أعمالكم معكم. وعن قتادة ﴿أئن ذُكرتم﴾، أي: إن ذكّرناكم الله تطيّرتم بنا؟ ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)﴾.

قال البغوي[1]: **قوله عز وجل**: ﴿وجاءه من أقصى المدينة رجل يسعى﴾ وهو حبيب النجار. وقال السدي: كان قصّاراً. وقال وهب: كان رجلاً يعمل الحرير وكان سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان مؤمناً ذا صدقة يجمع كسبه إذا أمسى فيقسمه نصفين فيطعم نصفاً لعياله ويتصدّق بنصفه، فلما بلغه أن قومه قد قصدوا قتل المرسلين جاءهم ﴿قال يا قوم اتّبعوا المرسلين اتّبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ قال قتادة: كان حبيب في غار يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم فأظهر دينه، فلما انتهى حبيب إلى الرسل قال لهم: تسألون على هذا أجراً؟ قالوا: لا. فأقبل على قومه: فـ ﴿قال يا قوم اتّبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ فلما قال ذلك قالوا له: وأنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن بإلههم؟ فقال: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾؟

وقال ابن إسحاق فيما بلغه: ناداهم بخلاف ما هم عليه من عبادة الأصنام وأظهر لهم دينه وعبادة ربه، وأخبرهم أنه لا يملك نفعه ولا ضره غيره فقال: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة﴾؟ ثم عابها فقال: ﴿إن يردن الرحمن بضرّ﴾ وشدة ﴿لا تغن عنّي شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون إني آمنت بربكم﴾ الذي كفرتم به ﴿فاسمعون﴾ قال: فوثبوا وثبة رجل واحد فقتلوه، واستضعفوه لضعفه وسقمه، ولم يكن أحد يدفع عنه ﴿قيل ادخل الجنّة﴾ قال ابن مسعود: قال الله له: ادخل الجنة، فدخلها حيّاً يرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونَصَبَها، فلما أفضى إلى رحمة الله وجنته وكرامته ﴿قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربـي وجعلني من المكرمين﴾ قال قتادة: فلا تلقى المؤمن إلاّ ناصحاً ولا تلقاه غاشّاً.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٧).

ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن مسعود قال: غضب الله له ــ يعني لهذا المؤمن لاستضعافهم إياه ــ غضبة لم تُبْقِ من القوم شيئاً، فعجّل لهم النقمة بما استحلّوا منه وقال: ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين﴾ يقول: ما كاثرناهم بالجموع، أي الأمر أيسر علينا من ذلك ﴿إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ فأهلك الله ذلك الملك وأهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض فلم تبق منهم باقية.

وعن قتادة ﴿يا حسرة على العباد﴾، أي: يا حسرة العباد على أنفسها على ما ضيّعت من أمر الله وفرّطت في جنب الله ﴿ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون﴾ قال مجاهد: كانت حسرة عليهم استهزاؤهم بالرسل. وعن قتادة ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ قال: عاد وثمود وقارون وقرون بين ذلك كثير ﴿وإن كل لمّا جميع لدينا محضَرون﴾، أي: يوم القيامة.

• • •

الدرس الواحد والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

يقول تعالى: ﴿وآية لهم﴾، أي: دلالة واضحة على وحدانية الله تعالى وقدرته التامّة وإحيائه الموتى ﴿الأرض الميتة أحييناها﴾ بالمطر: ﴿وأخرجنا منها حبّاً﴾ يعني الحنطة وغيرها ﴿فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات﴾ بساتين ﴿من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره﴾، أي: من ثمر المذكور ﴿وما عملته أيديهم﴾، أي: لم تعمل الثمر. وقال في جامع البيان: ﴿وما عملته أيديهم﴾، أي: الثمر لم تعمله أيدي الناس، بل خَلْقُ الله، ولهذا قال: ﴿أفلا يشكرون﴾؟ وعن بعض: أن «ما» موصولة، عطف على ثمره، والمراد ما يُتّخذ منه كالدبس. ﴿سبحان الذي خلق الأزواج﴾ الأنواع ﴿كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم﴾ الذكر والأنثى: ﴿ومما لا يعلمون﴾ من مخلوقات شتّى.

قوله عز وجل: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾ قال البغوي[١]: وذلك أن الأصل هي الظلمة، والنهار دَخَلٌ، فإذا غربت الشمس سلخ النهار من الليل فتظهر الظلمة. وعن قتادة قوله: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها﴾ قال: وقت واحد لا تعدوه. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال ﷺ: «يا أبا ذرّ أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ »[٢]. رواه البخاري وغيره. وفي رواية أحمد: «فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها عز وجل، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع إلى مطلعها، وذلك مستقرّها، ثم قرأ: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها﴾». وفي رواية البغوي: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يُقبل منها وتستأذن فلا يُؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها﴾[٣].

قال ابن جرير[٤]: وقوله: ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ يقول: هذا الذي وصفنا من جري الشمس لمستقرّ لها، تقدير العزيز في انتقامه من أعدائه، العليم بمصالح خلقه وغير ذلك من الأشياء كلها، لا تخفى عليه خافية.

وعن الحسن في قوله: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ قال: كعذق النخلة إذا قدم فانحنى.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٣١٩٩)، وأحمد (٥/ ١٥٢ و ١٧٧)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٩ ــ ١٠).

(٤) انظر «جامع البيان» (٢٣/ ٦).

وقال ابن كثير[(١)]: ثم قال جل وعلا: ﴿والقمر قدّرناه منازل﴾، أي: جعلناه يسير سيراً آخر يُستدلّ به على مضيّ الشهور، كما أن الشمس يُعرف بها الليل والنهار، كما قال عز وجل: ﴿يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحجّ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلاّ بالحق يفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ قال مجاهد: لكل منهما حدّ لا يعدوه ولا يقصّر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ قال الضحاك: لا يذهب الليل من ههنا حتى يجيء النهار من ههنا: ﴿وكلّ في فلَك يسبحون﴾ قال ابن عباس: يجرون في فَلَكَةٍ كَفَلْكَةِ المغزل. وقال مجاهد: الفَلَكُ كحديدة الرَّحى أو كفلكة المغزل لا يدور المغزل إلاّ بها، ولا تدور إلاّ به.

قوله عز وجل: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قال البغوي[(٤)]: والمراد بالذرية الآباء والأجداد، واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد: ﴿في الفُلْكِ المشحون﴾، أي: المملوء، وأراد سفينة نوح، وهؤلاء من نسل من حُمل مع نوح وكانوا في أصلابهم. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تدرون ما ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾؟ قلنا: لا، قال: هي

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٧٢).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٩.

(٣) سورة يونس: الآية ٥.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٠).

السفن جُعلت لهم من بعد سفينة نوح على مثلها. وقال السدي: ألاَّ ترى أنه قال: ﴿وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقَذون﴾؟ قال قتادة: أي لا مُغيث لهم: ﴿إلاَّ رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾، أي: إلى الموت.

قال البغوي: يعني إلاَّ أن يرحمهم ويمتّعهم إلى حين آجالهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

قال البغوي[1]: ﴿وإذا قيل لهم اتّقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ قال ابن عباس: ﴿ما بين أيديكم﴾ يعني الآخرة فاعملوا لها ﴿وما خلفكم﴾ يعني الدنيا فاحذروها ولا تغترّوا بها. وقيل: ﴿ما بين أيديكم﴾ وقائع الله فيمن كان قبلكم من الأمم: ﴿وما خلفكم﴾ عذاب الآخرة، وهو قول قتادة ومقاتل. ﴿لعلّكم تُرحمون﴾ والجواب محذوف تقديره: إذا قيل لهم هذا أعرضوا عن دليله ما بعده: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم﴾، أي: دلالة على صدق محمد ﷺ ﴿إلاَّ كانوا عنها معرضين﴾.

﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ أعطاكم الله ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم﴾ أنرزق ﴿من لو يشاء الله أطعمه﴾؟ وذلك أن المؤمنين قالوا لكفار مكة: أنفقوا على المساكين مما زعمتم من أموالكم أنه لله، وهو ما جعلوه لله من حروثهم وأنعامهم قالوا: ﴿أنطعم﴾ أنرزق: ﴿من لو يشاء الله أطعمه﴾ رزقه ثم لم يرزقه مع قدرته عليه، فنحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله، وهذا إنما يتمسّك به البخلاء يقولون: لا نعطي من حرمه الله؛ وهذا الذي يزعمون باطل لأن

(١) المصدر السابق (٤/ ١١).

الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم ابتلاء، فمنع الدنيا من الفقير لا بُخْلاً، وأمر الغنيّ بالإنفاق لا حاجةً إلى ماله ولكن ليبلو الغنيّ بالفقير فيما أمر وفرض له في مال الغنيّ، ولا اعتراض على مشيئة الله وحكمه في خلقه ﴿إن أنتم إلاَّ في ضلال مبين﴾ يقول الكفار للمؤمنين: ما أنتم إلاَّ في خطأ بيّن في اتباعكم محمداً وترك ما نحن عليه. انتهى والله أعلم.

• • •

الدرس الثاني والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً
تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا
مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا
صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ
فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم
مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ
أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ
ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟
تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ
يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا
وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ
ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ

ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قال البغوي[١]: ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾، أي: القيامة والبعث ﴿إن كنتم صادقين﴾. قال الله تعالى: ﴿ما ينظرون﴾، أي: ينتظرون ﴿إلاَّ صيحة واحدة﴾ قال ابن عباس: يريد النفخة الأولى ﴿تأخذهم وهم يَخِصِّمون﴾، يعني: يختصمون في أمر الدنيا من البيع والشراء، ويتكلّمون في المجالس والأسواق. قال: وروينا أن النبي ﷺ قال: «لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ الساعة وقد رفع الرجل أكلته إلى فيه فلا يَطْعَمُها»[٢]. وعن قتادة: ﴿فلا يستطيعون توصية﴾، أي: فيما في أيديهم ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ قال: أعجلوا عن ذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

قال البغوي[٣]: ﴿ونفخ في الصور﴾ وهي النفخة الأخيرة نفخة البعث، وبين النفختين أربعون سنة.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٢).

وعن قتادة: ﴿فإذا هم من الأجداث﴾، أي: القبور. ﴿إلى ربهم ينسلون﴾ يقول: يخرجون ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ قال: هذا قول أهل الضلالة والرقدة ما بين النفختين ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ قال: أهل الهدى ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾. قال البغوي: وقال أهل المعاني: إن الكفار إذا عاينوا جهنم وأنواع عذابها، صار عذاب القبر في جنبها كالنوم ﴿فقالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن كانت إلاَّ صيحة واحدة﴾، يعني: النفخة الأخيرة ﴿فإذاهم جميع لدينا محضرون فاليوم لا تُظلم نفس شيئاً ولا تُجزون إلاَّ ما كنتم تعملون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾.

عن ابن عباس: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شُغُل فاكهون﴾ قال: افتضاض الأبكار ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾ قال: هي السرر في الحجال ﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون﴾ قال البغوي: يتمنّون ويشتهون ﴿سلام قولاً من ربّ رحيم﴾ أي يسلّم الله عليهم ﴿قولاً﴾، أي: يقول الله لهم قولاً. ثم روى بسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الربّ تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿سلام قولاً من ربّ رحيم﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (ح/١٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٠٨ و ٢٠٩)، والبزار (ح/٢٢٥٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/١٣)، بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، أمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم، ثم يقول: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾ الآية. إلى قوله: ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ فيتميّز الناس ويجثون، وهي قول الله ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ الآية»[1]. رواه ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم﴾ قال البغوي[2]: ألم آمركم يا بني آدم ﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾، أي: لا تطيعوا الشيطان في معصية الله؟ ﴿إنه لكم عدوّ مبين﴾ ظاهر العداوة ﴿وأن اعبدوني﴾ أطيعوني ووحّدوني ﴿هذا صراط مستقيم﴾. ﴿ولقد أضلّ منكم جِبِلًّا كثيراً﴾، أي: خلقاً كثيراً ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس؟ ويقال لهم لما دنوا من النار ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ بها في الدنيا ﴿اصلوها﴾ ادخلوها ﴿اليوم بما كنتم تكفرون اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ هذا حين ينكر الكفار كفرهم وتكذيبهم الرسل بقولهم: ما كنا مشركين، فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم. انتهى.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ٢٢) بسند ضعيف.

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٣).

وروى مسلم وغيره في حديث أبي هريرة (الطويل): «ثم يلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك وبنبيّك وبكتابك، وصمت وصلّيت وتصدّقت، ويثني بخير ما استطاع، قال فيقال له: ألا نبعث عليك شاهداً؟ فيفكّر في نفسه: من الذي يشهد عليه؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه: انطقي، قال: فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق ليعذر من نفسه، وذلك الذي يسخط الله تعالى عليه»[1].

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط﴾، أي: الطريق ﴿فأنى يبصرون﴾ يقول: لو شئنا لتركناهم عمياً يتردّدون ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾، أي: لأقعدناهم على أرجلهم ﴿فما استطاعوا مُضِيّاً ولا يرجعون﴾ فلم يستطيعوا أن يتقدّموا ولا يتأخّروا ﴿ومن نعمّره ننكّسه في الخلق﴾ يقول: من نمدّ له في العمر ننكّسه في الخلق ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾، يعني: الهرم ﴿أفلا يعقلون﴾ قال البغوي[2]: فيعتبروا ويعلموا أن الذي قدر على تصريف أحوال الناس يقدر على البعث بعد الموت. وعن قتادة قوله: ﴿وما علّمناه الشعر وما ينبغي له﴾ قال: قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيء من الشعر؟ قالت: «كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثّل ببيت أخي بني قيس، فيجعل آخره أوله وأوله آخره، فقال أبو بكر: إنه ليس

---

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٩٦٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٥).

هكذا، فقال نبي الله: «إني والله ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي»[1]، والبيت المشار إليه قول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّدِ

وقوله تعالى: ﴿إن هو إلاَّ ذكر وقرآن مبين﴾ قال البغوي[2]: ﴿إن هو﴾، يعني: القرآن ﴿إلاَّ ذكر﴾ موعظة ﴿وقرآن مبين﴾ في الفرائض والحدود والأحكام ﴿لينذر من كان حيّاً﴾، يعني: مؤمناً حيّ القلب، لأن الكافر كالميت في أنه لا يتدبّر ولا يتفكّر. ﴿ويحقّ القول﴾ وتجب حجّة العذاب ﴿على الكافرين﴾ قال ابن كثير: أي هو رحمة للمؤمنين وحجّة على الكافرين.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

قال البغوي[3]: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا﴾ تَوَلَّينا خَلْقَه بإبداعنا من غير إعانة أحد ﴿أنعاماً فهم لها مالكون﴾ ضابطون قاهرون، أي: لم يخلق الأنعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدرون على ضبطها بل هي مسخّرة لهم،

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ٢٧) بسند ضعيف. وبنحوه عند أحمد (٦/ ٣١ و ١٤٦) عنها: «كان إذا استراث الخبر تمثل فيه ببيت طرفة: ويأتيك بالأخبار من لم تزود». وفيه انقطاع، وبنحوه عند أحمد (٦/ ١٣٨ و ١٥٦ و ٢٢)، والترمذي (ح/ ٢٨٤٨) وفيه: «هل كان ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل بشعر ابن رواحة...»، وسنده ضعيف، لكن قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٥).

(٣) المصدر السابق (٤/ ١٦).

وهو قوله: ﴿وذلّلناها لهم﴾ سخّرناها لهم ﴿فمنها رَكوبهم﴾، أي: ما يركبون وهي الإبل ﴿ومنها يأكلون﴾ لحمانها ﴿ولهم فيها منافع﴾، أي: من أصوافها وأوبارها ونسلها ومشارب من ألبانها ﴿أفلا يشكرون﴾ ربّ هذه النعم؟ وقال ابن جرير[١] يقول: ﴿أفلا يشكرون﴾ نعمتي هذه وإحساني إليهم بطاعتي، وإفراد الألوهية لي والعبادة، وترك طاعة الشيطان وعبادة الأصنام؟

وقوله تعالى: ﴿واتّخذوا من دون الله آلهة لعلّهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ قال ابن كثير[٢]: يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقرّبهم إلى الله زلفى، قال الله تعالى: ﴿لا يستطيعون نصرهم﴾، أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقلّ وأذلّ وأحقر وأدحر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وهم لهم جند محضرون﴾ قال مجاهد: يعني عند الحساب، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدلّ عليهم في إقامة الحجّة عليهم. وقال قتادة: ﴿لا يستطيعون نصرهم﴾، يعني: الآلهة ﴿وهم لهم جند محضرون﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شرّاً. وقوله تعالى: ﴿فلا يحزنك قولهم﴾، أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿إنا نعلم ما يسرّون وما يعلنون﴾ وسنجازيهم على أعمالهم.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ

(١) انظر «جامع البيان» (٢٣/ ٢٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٠).

ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قال مجاهد وغيره: جاء أبـيّ بن خلف ــ لعنه الله ــ إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفتّه ويذروه في الهواء وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم. يُميتك الله تعالى ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات من آخر سورة يس ﴿أولم ير الإنسان أن خلقناه من نطفة﴾ إلى آخرهنّ[1].

وقوله تعالى: ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ قال البغوي[2]: جدل بالباطل بيّن الخصومة، يعني: أنه مخلوق من نطفة ثم يخاصم، فكيف لا يتفكّر في بدوّ خلقه حتى يدع الخصومة! ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ بدء أمره ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ بالية؟ ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾ قال ابن عباس: هما شجرتان يقال لإحداهما: المرخ والأخرى العفار، فمن أراد منهم النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار فتخرج منهما النار بإذن الله عز وجل؛ تقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار. ﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾ تقدحون وتوقدون النار في ذلك الشجر. ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال: ﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى﴾، أي قل: بل هو قادر على ذلك ﴿وهو الخلّاق﴾ يخلق

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ٣٠) مرسلاً، وروي مرفوعاً عن ابن عباس رضي الله عنه: أخرجه ابن جرير (٢٣/ ٣١) بسند ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٦).

خلقاً بعد خلق ﴿العليم﴾ بجميع ما خلق ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت﴾ ملك ﴿كل شيء وإليه ترجعون﴾ وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: سمع الله لمن حمده ثم قال: الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة؛ وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاي»(١). رواه أحمد. وفي حديث عوف بن مالك عند أبي داود: «ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: سبحان ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة؛ ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك»(٢). وعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا على موتاكم سورة يس»(٣). رواه البغوي وغيره. والله أعلم.

• • •

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٨٨) بسند حسن، وبنحوه من حديث عوف بن مالك، وسيأتي تخريجه، وبنحوه عن حذيفة ــ أيضاً ــ أنه صلّى مع رسوله ﷺ من الليل فلما دخل في الصلاة قال: «الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة». أخرجه أحمد (٥/٣٩٨)، وأبو داود (ح/٨٧٤)، والترمذي في الشمائل (ح/٢٧٦)، والنسائي (٢/١٩٩)، وابن ماجه (ح/٨٩٧)، والحاكم (١/٢٧١ و ٣٢١) وصححه ووافقه الذهبي، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٦/٢٤)، وأبو داود (ح/٨٧٣)، والترمذي في الشمائل (ح/٣١٤)، والنسائي (٢/١٩١)، وله شاهد من حديث حذيفة السابق، فهو حديث حسن.

(٣) سبق تخريجه، وهو حديث ضعيف.

الدرس الثالث والثلاثون بعد المائتين

﴿سورة الصافات﴾

مكية، وهي مائة وثمانون آية

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمّنا بالصافّات»[1]. رواه النسائي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٦ و ٤٠)، وعنه ابنه قراءة عليه (٢/١٥٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٤٠)، وأبو يعلى (٩/٣٣٤)، والطبراني (١٢/٢٠٦)، والبيهقي (٣/١١٨)، وهو حديث حسن.

لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ

ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥﴾.

عن قتادة ﴿والصافّات صفّاً﴾ قال: قَسَمٌ، أقسم الله بخَلْقٍ ثم خَلْقٍ، ﴿والصافّات﴾ الملائكة صفوفاً في السماء. وعن مجاهد في قوله: ﴿فالزاجرات زجراً﴾ قال: الملائكة ﴿فالتاليات ذكراً﴾ قال: الملائكة. وعن قتادة ﴿إن إلٰهكم لواحد﴾ وقع القسم على هذا ﴿إن إلٰهكم لواحد﴾. ﴿رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾ قال: مشارق الشمس في الشتاء والصيف.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وحفظاً من كلّ شيطان مارد لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى﴾ قال: مُنِعُوها ﴿ويُقْذَفُون من كل جانب دحوراً﴾ قذفاً قذفاً بالشُهُب ﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي دائم ﴿إلاّ من خَطِفَ الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ من نار، وثقوبه ضوؤه. قال ابن عباس: لا يُقتلون بشهاب ولا يموتون، ولكنهم تحرقهم من غير قتل وتخلّل وتجرح.

قوله عز وجل: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ۝١١ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ

يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

قال ابن جرير[١]: ﴿فاستفتهم﴾ يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: فاستفت يا محمد هؤلاء المشركين الذين ينكرون البعث بعد الممات والنشور بعد البلاء، يقول: فسلهم ﴿أهم أشدّ خلقاً﴾ يقول: أخلقهم أشدّ خلقاً أم من عددنا خلقه من الملائكة والشياطين والسموات والأرض؟ وعن ابن عباس قوله: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ قال: هو الطين الحرّ الجيّد اللزق.

وعن قتادة ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ قال: عجب محمد عليه السلام من هذا القرآن حين أعطيَه وسخر منه أهل الضلالة ﴿وإذا ذُكّروا لا يَذْكُرُون﴾، أي: لا ينتفعون ولا يبصرون ﴿وإذا رأوا آية يستسخرون﴾ يسخرون منها ويستهزئون ﴿وقالوا إن هذا إلاّ سحر مبين أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون﴾ تكذيباً بالبعث ﴿قل نعم وأنتم داخرون﴾، أي: صاغرون ﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ قال السدي: هي النفخة ﴿فإذا هم ينظرون وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ قال قتادة: يدين الله فيه العباد بأعمالهم ﴿هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾ يعني يوم القيامة.

وعن ابن عباس قوله: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ يعني أتباعهم ومن اتّبعهم من الظلمة ﴿وما كانوا يعبدون من دون الله﴾ قال قتادة:

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢٣/٤١).

الأصنام ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ قال ابن عباس يقول: وجّهوهم. وقال ابن مسعود: وليس أحد من الخلق كان يعبد من دون الله شيئاً إلاَّ وهو مرفوع له يتبعه، قال: فَيَلْقَى اليهود فيقول: من تعبدون؟ فيقولون: نعبد عزيراً؟ فيقول: هل يسرّكم الماء؟ فيقولون: نعم. فيريهم جهنم وهي كهيئة السراب، ثم قرأ: ﴿إنا عرضنا جهنم للكافرين عرضاً﴾ قال: ثم يَلْقَى النصارى فيقول: من تعبدون؟ فيقولون: المسيح، فيقول: هل يسرّكم الماء؟ فيقولون: نعم. فيريهم جهنم وهي كهيئة السراب، ثم كذلك لمن كان يعبد من دون الله شيئاً، ثم قرأ عبد الله ﴿وقِفُوهم إنهم مسؤولون﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿ما لكم لا تناصرون﴾ لا والله لا يتناصرون ولا يدفع بعضهم عن بعض ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ في عذاب الله.

قوله عز وجل: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

عن ابن عباس ﴿إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنا كنا أذلاّء وكنتم أعزّاء. وقال مجاهد: يعني عن الحق، والكفار تقوله للشياطين ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ قال ابن كثير[1]: تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥).

للإيمان قابلة للكفر والعصيان ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان﴾، أي: من حجّة على صحّة ما دعوناكم إليه.

﴿بل كنتم قوماً طاغين فحقّ علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقّت علينا كلمة الله، إنا كنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿فأغويناكم﴾، أي: دعوناكم إلى الضلالة ﴿إنا كنا غاوين﴾ أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿فإنهم يومئذٍ في العذاب مشتركون﴾، أي: الجميع في النار كل بحسبه ﴿إنا كذلك نفعل بالمجرمين إنهم كانوا﴾، أي: في الدنيا ﴿إذا قيل لهم لا إله إلاّ الله يستكبرون﴾، أي: أن يقولوها كما يقولها المؤمنون. وعن قتادة ﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿بل جاء بالحقّ﴾ بالقرآن ﴿وصدّق المرسلين﴾ أي صدّق من كان قبله من المرسلين. قال البغوي[1]: أي أنه أتى بما أتى به المرسلون قبله.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قال ابن كثير[2]: يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلاّ ما كنت تعملون﴾ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٦).

تعـالـى: ﴿والعصـر إن الإنسـان لفـي خسـر. إلاّ الـذيـن آمـنـوا وعملـوا الصالحات﴾[(١)].

وعن قتادة ﴿إلاّ عبادَ الله المخلَصين﴾ قال: هذه ثنيّة الله ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ في الجنة ﴿فواكه وهم مكرمون. في جنات النعيم. على سرر متقابلين. يطاف عليهم بكأس من معين﴾ قال قتادة: كأس من خمر جارية، والمعين هي الجارية ﴿بيضاء لذّة للشاربين لا فيها غَوْلٌ﴾ قال مجاهد: وجع بطن ﴿ولا هم عنها ينزفون﴾ قال قتادة يقول: ليس فيها وجع بطن ولا صداع رأس. وقال السدي: لا تنزف عقولهم.

وعن قتادة ﴿وعندهم قاصرات الطرف﴾ قال: قصر طرفهنّ على أزواجهنّ فلا يردن غيرهم. وعن السدي في قوله ﴿عين﴾ قال: عظام الأعين ﴿كأنهن بَيْضٌ مكنون﴾ قال: البيض حين يقشّر قبل أن تمسّه الأيدي.

قوله عز وجل: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

عن قتادة ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ قال: أهل الجنة. وعن ابن عباس قوله: ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدّقين﴾ قال: هو الرجل المشرك يكون له الصاحب في الدنيا من أهل الإيمان، فيقول له المشرك: إنك لتصدّق بأنك مبعوث من بعد الموت ﴿أإذا كنا

(١) سورة العصر: الآية ١.

ترابــاً﴾؟ فلمـا أن صاروا إلى الآخرة وأدخل المؤمن الجنة، وأدخل المشرك النار.

﴿فاطّلع﴾ المؤمن فرأى صاحبه ﴿في سواء الجحيم﴾ وسطها ﴿قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربـي لكنت من المحضرين﴾. قال قتادة: أي في عذاب الله، ﴿أفما نحن بميّتين. إلاّ موتتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين﴾. قال ابن كثير[١]: هذا من كلام المؤمن، مغتبطاً بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة، بلا موت فيها ولا عذاب، ولهذا قال عز وجل ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ وعن قتادة قوله: ﴿أفما نحن بميّتين﴾ إلى قوله: ﴿الفوز العظيم﴾ قال: هذا قول أهل الجنة.

قوله عز وجل: ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

قال ابن جرير[٢]: يقول تعالى ذكره: ﴿لمثل هذا﴾ الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة ﴿فليعمل﴾ في الدنيا لأنفسهم ﴿العاملون﴾ ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم.

وعن قتادة ﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقّوم﴾؟ حتى بلغ ﴿في أصل الجحيم﴾ قال: لما ذكر شجرة الزقوم افتتن الظلمة فقالوا: ينبئكم صاحبكم هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجرة، فأنزل الله ما تسمعون ﴿إنها شجرة تخرج في

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٨).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٣/ ٦٢).

أصل الجحيم﴾ غُذِّيت بالنار ومنها خُلقت ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ شبّهه بذلك ﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم﴾ قال ابن عباس: يعني شرب الحميم على الزقوم، وقال السدي: الشوب الخلط وهو المزج.

وعن قتادة قوله: ﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ فهم في عناء وعذاب من نار جهنم، وتلا هذه الآية ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن. إنهم ألفوا آباءهم ضالّين فهم على آثارهم يُهْرَعُون﴾ قال مجاهد: أي يسرعون إسراعاً في ذلك.

• • •

الدرس الرابع والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ

إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٧٤ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين﴾، أي: من الأمم الخالية ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين﴾ الكافرين، أي: كان عاقبتهم العذاب ﴿إلاّ عباد الله المخلَصين﴾ قال السدي: الذين استخلصهم الله. قال ابن جرير[1]: واستثنى عباد الله من المنذَرين لأن معنى الكلام: فانظر كيف أهلكنا المنذَرين إلاّ عبادَ الله المؤمنين، فلذلك حسن استثناؤهم منهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٧٨ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٨٢ ﴾.

عن قتادة: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾ قال: أجابه الله. وعن السدي: ﴿ونجيّناه وأهله من الكرب العظيم﴾ قال: من الغرق. وعن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وجعلنا ذريتهم هم الباقين﴾ قال: «سام وحام ويافث»[2] قال قتادة: فالناس كلهم من ذرية نوح. وعن ابن عباس قوله: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ يقول: يُذْكَرُ بخير ﴿سلام على نوح في العالمين إنا كذلك

(١) انظر «جامع البيان» (٦٦/٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي (ح/ ٣٢٣٠) وحسنه، وابن جرير (٦٧/٢٣) بسند ضعيف.

نجزي المحسنين﴾ قال مقاتل: جزاه الله بإحسانه الثناء الحسن في العالمين. وعن قتادة: ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ قال: أنجاه الله ومن معه في السفينة وأغرق بقيّة قومه.

قوله عز وجل: ﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنّته. وعن قتادة: ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾ واللَّهِ من الشرك ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم بربّ العالمين﴾ قال ابن كثير[1]: أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ولهذا قال: ﴿أئفكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنّكم بربّ العالمين﴾ قال قتادة يعني: ما ظنّكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم معه غيره؟

وقال البغوي[2]: وقوله تعالى: ﴿فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم﴾ قال ابن عباس: كان قومه يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث كانوا لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجّة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع، وكانوا يدخلون على أصنامهم ويفرشون لهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٢).
(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٦).

الفراش ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم زعموا التبرك عليه، فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه، فقالوا لإبراهيم: ألاَّ تخرج غداً معنا إلى عيدنا؟ فنظر إلى النجوم فقال: إني سقيم. قال ابن عباس: مطعون، وكانوا يفرّون من الطاعون فراراً عظيماً: ﴿فتولّوا عنه مدبرين﴾ إلى عيدهم فدخل إبراهيم على الأصنام فكسرها، كما قال الله تعالى: ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ مال إليها ميلة في خفية، فقال استهزاء بها: ﴿ألاَّ تأكلون﴾ يعني الطعام الذي بين أيديكم ﴿ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾، أي: كان يضربهم بيده اليمنى لأنها أقوى على العمل من الشمال ﴿فأقبلوا إليه يَزِفّون﴾ يسرعون، وذلك أنهم أُخبروا بصنيع إبراهيم بآلهتهم فأسرعوا إليه ليأخذوه، قال لهم إبراهيم على وجه الحجاج ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ بأيديكم ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ بأيديكم من الأصنام: ﴿قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم﴾ قال مقاتل: بنوا له حائطاً من الحجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً، وملأوه من الحطب وأوقدوا فيه النار فطرحوه فيها ﴿فأرادوا به كيداً﴾ شرّاً، وهو أن يحرقوه ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾، أي: المقهورين، حيث سلّم الله تعالى إبراهيم وردّ كيدهم. انتهى ملخّصاً.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: اثنتين في ذات الله تعالى قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله في سارة: هي أختي»[1]. متفق عليه.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٣٣٥٧ و ٣٣٥٨)، ومسلم (ح/ ٢٣٧١).

عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أنه بعدما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين، رب هب لي من الصالحين﴾ يعني أولاداً مطيعين يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال الله تعالى: ﴿فبشّرناه بغلام حليم﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بُشّر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق، باتفاق المسلمين وأهل الكتاب.

وعن ابن عباس: ﴿فلما بلغ معه السعي﴾ لما شبّ حتى بلغ سعيه، سعي إبراهيم. قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا أصيمع، أين ذهب عقلك؟ متى كان إسحاق بمكّة؟ إنما كان إسماعيل بمكّة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه. وقال ابن إسحاق وغيره: فلما أُمر إبراهيم بذلك قال لابنه: يا بنيّ خذ الحبل والمدية ننطلق إلى هذا الشعب نحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أُمر: ﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.

﴿فلما أسلما﴾ انقادا وخضعا لأمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم إبراهيم ابنه وأسلم الابن نفسه ﴿وتلّه للجبين﴾ قال ابن عباس: أضجعه على جبينه على الأرض. وعن قتادة: ﴿وتلّه للجبين﴾، أي: وكبّه لِفيه وأخذ الشفرة: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا﴾ حتى بلغ: ﴿وفديناه بِذِبْحٍ عظيم﴾.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٤).

وقوله تعالى: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ قال ابن كثير[1]، أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾، أي: الاختبار الواضح الجليّ حيث أُمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ قال مجاهد: سمّاه عظيماً لأنه متقبَّل. قال ابن عباس: الكبش الذي ذبحه إبراهيم هو الذي قرّبه ابن آدم. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وتركنا عليه في الآخِرين﴾ قال: سأل إبراهيم فقال: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخِرين﴾ قال: فترك الله عليه الثناء الحسن في الآخِرين، كما ترك اللسان السوء على فرعون وأشباهه، كذلك ترك اللسان الصدق والثناء الصالح على هؤلاء.

﴿سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، وبشّرناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين﴾ قال ابن كثير[2]: لما تقدّمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل، عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي هود والحجر. وقوله تعالى: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ كقوله تعالى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتّعهم ثم يمسّهم منا عذاب أليم﴾.

● ● ●

---

(١) المصدر السابق (٤/١٦).

(٢) المصدر السابق (٤/١٨).

الدرس الخامس والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

وعن قتادة: ﴿ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم﴾، أي: من آل فرعون ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين﴾ التوراة ﴿وهديناهما الصراط المستقيم﴾ الإسلام.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿أتدعون بعلاً﴾ قال: ربّاً. وقال ابن زيد: بعل صنم كانوا يعبدونه، كانوا ببعلبك وهم وراء دمشق وكان بها البعل الذي كانوا يعبدون. وقال ابن إسحاق عن وهب بن منبه: أن الله قبض حزقيل وعظمت في بني إسرائيل أحداث، ونسوا ما كان من عهد الله إليهم، حتى نصبوا الأوثان وعبدوها دون الله، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين[1] بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران

(١) في (الأصل): «نسبي»، وفي تفسير ابن كثير: «نسي»، وفي تفسير البغوي: «بشر»، =

نبيّاً، وإنما كانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى يُبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة، فكان إلياس مع ملك من ملوك بني إسرائيل يقال له أحاب، وكان اسم امرأته أربل وكان يسمع منه ويصدّقه، وكان إلياس يقيم له أمره، وكان سائر بني إسرائيل قد اتخذوا صنماً يعبدونه من دون الله يقال له بعل. قال ابن إسحاق: وقد سمعت بعض أهل العلم يقول: ما كان بعل إلاّ امرأة يعبدونها من دون الله.

يقول الله لمحمد: ﴿وإن الياس لمن المرسلين إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين الله ربك ورب آبائكم الأولين﴾ فجعل إلياس يدعوهم إلى الله وجعلوا لا يسمعون منه شيئاً، إلاّ ما كان من ذلك الملك، والملوك متفرّقة بالشام، كل ملك له ناحية منها يأكلها، فقال ذلك الملك ـــ الذي كان إلياس معه يقوّم له أمره ويراه على هدى من بين أصحابه ـــ يوماً: يا إلياس، والله ما أرى ما تدعو إليه إلاّ باطلاً، والله ما أرى فلاناً وفلاناً بعد، وملوكاً من ملوك بني إسرائيل قد عبدوا الأوثان من دون الله، إلاّ على مثل ما نحن عليه، يأكلون ويشربون وينعمون مملكين، ما ينقص دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل، وما نرى لنا عليهم من فضل، فيزعمون والله أعلم أن إلياس استرجع، وقام شعر رأسه وجلده، ثم رفضه وخرج عنه، ففعل ذلك الملك فعل أصحابه، عبد الأوثان وصنع ما يصنعون، فقال إلياس: اللهم إن بني إسرائيل قد أبوا إلاّ أن يكفروا بك والعبادة لغيرك، فغيّر ما بهم من نعمتك، أو كما قال.

وقوله تعالى: ﴿فكذّبوه فإنهم لمحضرون إلاّ عباد الله المخلصين﴾ قال ابن جرير[1] يقول: فإنهم لمحضرون في عذاب الله فيشهدونه، إلاّ عباد الله الذين

= والمثبت من تفسير ابن جرير (٢٣/ ٩٢)، وتاريخه (١/ ٢٧٣)، والكامل لابن الأثير (١/ ١١٨)، والبداية والنهاية (١/ ٣٣٧).

(١) انظر «جامع البيان» (٢٣/ ٩٤).

أخلصهم من العذاب. ﴿وتركنا عليه في الآخِرين﴾ يقول: وأبقينا عليه الثناء الحسن في الآخِرين من الأمم بعده. وعن السدي: ﴿سلام على إلياسين﴾ قال: إلياس.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين﴾ قال: نَعَمْ والله، صباح ومساء يطؤونها وطأ. مَنْ أَخَذَ من المدينة إلى الشام، أَخَذَ على سدوم قرية قوم لوط.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ قال: أفلا تتفكرون ما أصابهم في معاصي الله أن يصيبكم ما أصابهم؟.

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿إلى الفلك المشحون﴾ كنا نحدّث أنه الموقر. ﴿فساهم فكان من المدحَضين﴾ قال: فاحتبست السفينة فعلم القوم أنما احتبست من حدث أحدثوه، فتساهموا فقرع يونس فرمى بنفسه ﴿فالتقمه الحوت وهو مُليم﴾، أي: في ضعة. قال ابن زيد: والمليم المذنب.

وعن ابن عباس قوله: ﴿فكان من المدحضين﴾ يقول: من المقروعين. وقال البغوي[1]: وقوله تعالى: ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾، أي: من جملة رسل الله

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٦).

﴿إذ أَبَقَ إلى الفلك المشحون﴾، يعني: هرب. قال ابن عباس ووهب: كان يونس وعد قومه العذاب، فلما تأخّر عنهم العذاب خرج كالمتواري منهم، فقصد البحر فركب السفينة فاحتبست السفينـة، فقال الملاحون: ههنا عبد أبق من سيّده فاقترعوا ثلاثاً فوقعت القرعة على يونس، فقال يونس: أنا الآبق، وزجّ نفسه في الماء.

وقال ابن كثير[1]: ﴿فساهم﴾، أي: قارع ﴿فكان من المدحضين﴾، أي: المغلوبين؛ وذلك أن السفينة تلعب بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر لتخفّ بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبـيّ الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وهم يضنّون به أن يلقى من بينهم، . فتجرّد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام، فلا يهشّم له لحماً ولا يكسر له عظماً، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلّها، ولما استقرّ يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات، ثم حرّك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حيّ، فقام فصلّى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: يا ربّ اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس. وعن قتادة: ﴿فلولا أنه كان من المسبّحين﴾ كان كثير الصلاة في الرخاء فنجّاه الله بذلك. قال: وقد كان يقال في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عَثَرَ، فإذا صُرِعَ وُجِدَ مُتَّكِأً. وعن أنس مرفوعاً: «أن يونس النبـيّ حين بدا له أن يدعو الله بالكلمات، حين ناداه وهو في بطن الحوت فقال: اللهم لا إله إلاَّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأقبلت الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يا ربّ هذا صوت ضعيف معروف في بلاد غريبة، قال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب ومن هو؟ قال: ذلك عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عمل متقبَّل ودعوة مستجابة! قالوا: يا رب أو لا يُرحم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٠).

بما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء؟! قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعراء»[١]. رواه ابن جرير.

وعن قتادة قوله: ﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ لصار له بطن الحوت قبراً إلى يوم القيامة. ﴿فنبذناه بالعراء﴾ قال: بأرض ليس فيها شيء ولا نبات. وعن ابن عباس قال: خرج به ــ يعني الحوت ــ حتى لفظه في ساحل البحر، فطرحه مثل الصبيّ المنغوس لم ينقص من خلقه شيء. وعن السدي ﴿وهو سقيم﴾ كهيئة الصبيّ. وعن سعيد ابن جبير في قوله: ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ قال: كل شيء ينبت على وجه الأرض ليس له ساق. قال قتادة: كنا نحدّث أنها الدبّاء ــ هذا القرع الذي رأيتم ــ أنبتها الله عليه يأكل منها. وعن ابن عباس في قوله: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ قال: بل يزيدون كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً. قال قتادة: أرسل إلى أهل نينوى من أهل الموصل، قال: قال الحسن: بعثه الله قبل أن يصيبه ما أصابه ﴿فآمنوا فمتّعناهم إلى حين﴾ الموت.

• • •

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ١٠٠) بسند ضعيف.

الدرس السادس والثلاثون بعد المائتين

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

عن قتادة: ﴿فاستفتهم ألربّك البنات ولهم البنون﴾ يعني مشركي قريش. قال ابن زيد: سلهم. وقال السدي: كانوا يعبدون الملائكة. قال ابن كثير[1]: وقوله تبارك وتعالى: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾، أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم!؟ كقوله جلّ وعلا؟ ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستُكتب شهادتهم ويُسألون﴾.

وعن قتادة: ﴿ألا إنهم من إفكهم﴾ يقول: من كذبهم: ﴿ليقولون وَلَدَ الله وإنهم لكاذبون، أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون﴾؟ يقول: كيف يجعل لكم البنين ولنفسه البنات؟ ﴿أفلا تذكّرون أم لكم سلطان مبين﴾، أي: عذر بيّن؟ وعن السدي في قوله: ﴿سلطان مبين﴾ قال: حجّة: ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾. ﴿وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً﴾ قال مجاهد: قال كفار قريش: الملائكة بنات الله فسأل أبو بكر: من أمهاتهنّ؟ فقالوا: بنات سروات الجنّ: ﴿ولقد علمت الجنّة إنهم لمحضرون﴾ إنها ستحضر الحساب. وقال السدي: إن هؤلاء الذين قالوا هذا: ﴿لمحضرون﴾ لمعذّبون.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٢).

قال ابن كثير[(١)]: وقوله جلّت عظمته: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾، أي: تعالى وتقدّس وتنزّه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوّاً كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿إلاّ عباد الله المخلَصين﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت إلاّ أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿عما يصفون﴾ عائداً إلى الناس جميعهم، ثم استثنى منهم المخلَصين وهم المتّبعون للحقّ المنزل.

قوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ما أنتم عليه بفاتنين إلاّ من هو صال الجحيم﴾ يقول: ما أنتم بفاتنين على أوثانكم أحداً إلاّ من قد سبق له أنه صال الجحيم. وقال الحسن: ما أنتم عليه بمضلّين إلاّ من كان في علم الله أنه سيصلى الجحيم. وعن السدي في قوله: ﴿وما منا إلاّ له مقام معلوم﴾ قال الملائكة. وعن عائشة قالت: قال نبيّ الله ﷺ: «ما في سماء الدنيا موضع قدم إلاّ عليه ملك ساجد أو قائم فذلك قول الملائكة: ﴿وما منا إلاّ له مقام معلوم وإنا لنحن الصافّون وإنا لنحن المسبّحون﴾ »[(٢)]. رواه ابن جرير.

وعن قتادة قوله: ﴿وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأوّلين لكنّا عباد الله المخلَصين﴾ قال: قد قالت هذه الأمة ذاك قبل أن يبعث محمد ﷺ: لو كان

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/ ١١٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ٥٠٨) بسند ضعيف، لكن له شاهد من حديث أبي ذر ــ وهو صحيح ــ وحكيم بن حزام رضي الله عنهما، وقد سبق تخريجهما.

عندنا ذكر من الأوّلين لكنا عباد الله المخلَصين، فلما جاءهم محمد كفروا به: ﴿فسوف يعلمون﴾ وقال ابن عباس: لما جاء المشركين من أهل مكة ذكر الأوّلين وعلم الآخرين كفروا بالكتاب: ﴿فسوف يعلمون﴾ يقول: قد جاءكم محمد بذلك فكفروا بالقرآن، وبما جاء به محمد.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

عن قتادة: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ قال: سبق هذا من الله لهم أن ينصرهم. وعن السدي في قوله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون﴾ يقول: بالحجج: ﴿فتولّ عنهم حتى حين﴾ قال: حتى يوم بدر.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ يقول: أنظرهم فسوف يبصرون ما لهم بعد اليوم، يقول: يبصرون يوم القيامة ما ضيّعوا من أمر الله، وكفرهم بالله ورسوله وكتابه؛ قال: «فأَبْصِرْهُمْ» «وأَبْصِرْ» واحد. **وقال البغوي**[1]: ﴿وأبصرهم﴾ إذا أنزل بهم العذاب: ﴿فسوف يبصرون﴾ فقالوا: متى هذا العذاب؟ فقال الله عز وجل: ﴿أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذَرين﴾ قال: وذكر قول النبي ﷺ حين صبّح أهل خيبر «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[2]؛ ثم كرّر ما ذكر تأكيداً لوعيد العذاب، فقال: ﴿وتولّ عنهم حتى حين وأبصر﴾ العذاب إذا نزل بهم: ﴿فسوف يبصرون﴾.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤١٩٨)، ومسلم (٣/١٤٢٦ ــ ١٤٢٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

قوله عز وجل: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

عن قتادة: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون﴾، أي: عما يكذبون، يسبّح نفسه إذا قيل عليه البهتان: ﴿وسلام على المرسلين﴾ قال رسول الله ﷺ: «إذا سلّمتم عليّ فسلّموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين»[1]. وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه في مجلسه: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين﴾[2].

• • •

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/١١٦) عن قتادة مرسلاً، وروي موصولاً من حديث أبي طلحة رضي الله عنه مرفوعاً، أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/٢٥)، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٤/٤٠) بسند ضعيف جداً.

الدرس السابع والثلاثون بعد المائتين

﴿سورة ص﴾

مكية، وهي ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾.

عن ابن عباس ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ ذي الشرف. وعن قتادة ﴿ذي الذكر﴾ أي ما ذكر فيه. قال ابن كثير[١]: ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. وعن قتادة ﴿بل الذين كفروا في عزّة وشقاق﴾، أي: في حميّة وفراق؛ قال: ههنا وقع القَسَم.

وقوله تعالى: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾ قال ابن عباس: ليس بحين تَرَوٍّ ولا فرار، ضُبِطَ القوم. وقال قتادة: نادى القوم على غير حين نداء، وأرادوا التوبة حين عاينوا عذاب الله، فلم يقبل منهم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ قال قتادة: يعني محمداً ﷺ ﴿وقال الكافرين هذا ساحر كذّاب أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً إن هذا لشيء عُجاب﴾ قال: عجب المشركون أن دُعوا إلى الله وحده وقالوا: يسمع لحاجاتنا جميعاً إله

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٦).

واحد؟ ﴿ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة﴾. وعن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرفق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول قال: فأكثروا عليه من القول، وتكلّم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدّي إليهم بها العَجَمُ الجزية!» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة! «نعم، وأبيك عشراً»، فقالوا: وما هي؟ فقال أبو طالب: وأيّ كلمة هي يا ابن أخي؟ قال: «لا إله إلاّ الله». قال: فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أجعل الآلهة آلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عُجاب﴾! قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿لمّا يذوقوا عذاب﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾ قال البغوي[2]: أي انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب، ويقول بعضهم لبعض ﴿امشوا واصبروا على آلهتكم﴾، أي: اثبتوا على عبادة آلهتكم ﴿إنّ هذا لشيء يُراد﴾، أي: الأمر يراد بنا، وذلك أن عمر لما أسلم وحصل للمسلمين قوة لمكانة قالوا: إن هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد لشيء يُراد بنا. وعن

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٧)، والترمذي (ح/ ٣٢٣٢) وحسنه، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٢)، وابن جرير (٢٣/ ١٢٥)، والحاكم (٢/ ٤٣٢) وصححه، ووافقه الذهبي!! قلت: وفيه يحيى بن عمار وهو مجهول، ووقع عند أحمد ــ كما سيأتي تخريجه ــ أن اسمه: «عباد جعفر»، أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٢)، وابن جرير (٢٣/ ١٢٥)، فالحديث بهذين الطريقين حسن إن شاء الله تعالى.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٢).

ابن عباس قوله: ﴿ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة﴾ يعني النصرانية، فقالوا: لو كان هذا القرآن حقاً أخبرتنا به النصارى، وعن قتادة ﴿ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة﴾، أي: في ديننا هذا ولا في زماننا قطّ ﴿إنْ هذا إلاَّ اختلاق﴾ إلاَّ شيء تخلّقه. وقال ابن زيد قالوا: إن هذا إلاَّ كذب.

﴿ءأُنزل عليه الذكر﴾ قال البغوي[1]: القرآن ﴿من بيننا﴾ وليس بأكبرنا ولا أشرفنا؟ يقوله أهل مكة؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿بل هم في شكّ من ذكري﴾، أي: وحيي وما أنزلتُ ﴿بل لمّا يذوقوا عذاب﴾، أي: لم يذوقوا عذابي، ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ يعني نعمة ربك، يعني مفاتيح النبوّة يعطونها من شاءوا؟ ونظيره ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾، أي: نبوّة ربك؟ ﴿العزيز الوهّاب﴾ العزيز في ملكه، الوهّاب وهب النبوّة لمحمد ﷺ ﴿أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما﴾، أي: ليس لهم ذلك ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾، أي: إن ادّعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء، فليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون. قال مجاهد وقتادة: أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء، وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه، وهذا أمر توبيخ وتعجيز.

﴿جند ما هنالك﴾، أي: هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند هنالك، «وما» صلة ﴿مهزوم﴾ مغلوب ﴿من الأحزاب﴾، أي: من جملة الأجناد، يعني قريشاً. قال قتادة: أخبر الله تعالى نبيّه ﷺ وهو بمكّة أنه سيهزم جند المشركين وقال: ﴿سيُهزم الجمع ويُولّون الدبر﴾ فجاء تأويلها يوم بدر، وهنالك إشارة إلى بدر ومصارعهم ﴿من الأحزاب﴾، أي: من جملة الأحزاب أي هم من القرون الماضية الذين تحزّبوا وتجمّعوا على الأنبياء بالتكذيب، فقُهروا وأُهلكوا. انتهى.

(١) المصدر السابق (٤/ ٤٣).

قوله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ .

عن ابن عباس: ﴿وفرعون ذو الأوتاد﴾ قال: كانت ملاعب يلعب له تحتها. وقال مجاهد: كان يمدّ الرجل مستلقياً على الأرض ثم يشدّ يديه ورجليه ورأسه على الأرض بالأوتاد، وعن قتادة ﴿إن كلٌّ إلاَّ كذّب الرسل فحقّ عقاب﴾ قال: هؤلاء كلّهم قد كذّبوا الرسل فحقّ عليهم العذاب ﴿وما ينظر هؤلاء إلاَّ صيحة واحدة﴾ يعني أمة محمد ﴿ما لها من فَوَاق﴾ يعني الساعة ما لها من رجوع ولا ارتداد ﴿وقالوا ربنا عجِّل لنا قِطّنا﴾، أي: نصيبنا، حظّنا من العذاب قبل يوم القيامة، قال: قد قال ذلك أبو جهل: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

وقوله تعالى: ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب﴾ يقول تعالى: اصبر يا محمد على ما يقول قومك، فإن الرفعة والعاقبة لك، كما كانت للرسل قبلك. وعن مجاهد قوله: ﴿ذا الأيد﴾ قال: ذا القوّة في طاعة الله ﴿إنه أوّاب﴾ إنه رجّاع عن الذنوب. وقال قتادة: كان مطيعاً لله كثير الصلاة ﴿إنا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق﴾ قال: يسبّحن مع داود إذا سبّح بالعشيّ والإشراق ﴿والطير محشورة﴾ مسخّرة ﴿كلّ له أوّاب﴾، أي: مطيع ﴿وشددنا ملكه﴾ قال ابن كثير[1]: أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٠).

الملوك. وقال السدي: كان يحرسه كل يوم وليلة أربعة آلاف ﴿وآتيناه الحكمة﴾ قال: النبوّة ﴿وفصل الخطاب﴾ قال مجاهد: إصابة القضاء وفهمه.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

عن قتادة ﴿ولا تشطط﴾، أي: لا تَمِلْ ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ إلى عدله وخيره. وعن وهب بن منبه ﴿إن هذا أخي﴾، أي: على ديني ﴿له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها﴾ قال ابن زيد: أعطنيها، طلّقها لي أنكحها وخلّ سبيلها ﴿وعزّني في الخطاب﴾ قال: قهرني[1]. وعن ابن عباس قوله: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب﴾ قال: إن داود قال: يا ربّ قد أعطيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذكر ما لوددت أنك أعطيتني مثله، قال: إني ابتليتهم بما لم أبتلك به، فإن شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به وأعطيتك كما أعطيتهم قال: نعم. قال له: اعمل حتى أرى بلاءك، فكان ما شاء الله أن يكون، وطال ذلك عليه فكاد أن ينساه، فبينا هو في محرابه إذ وقعت عليه حمامة من ذهب فأراد أن يأخذها، فطارت إلى كوة المحراب فذهب ليأخذها فطارت، فاطّلع من

(١) في (الأصل): «فهدني»، وهو خطأ.

الكوة فرأى امرأة تغتسل فنزل نبيّ الله ﷺ من المحراب فأرسل إليها فجاءته، فسألها عن زوجها وعن شأنها، فأخبرته أن زوجها غائب، فكتب إلى أمير تلك السريّة أن يؤمّره على السرايا ليهلك زوجها، ففعل، فكان يصاب أصحابه وينجو وربما نُصروا، وإن الله عز وجل لما رأى الذي وقع فيه داود أراد أن يستنقذه، فبينما داود ذات يوم في محرابه إذ تسوّر عليه الخصمان من قِبَلِ وجهه، فلما رآهما وهو يقرأ فزع وسكت وقال: لقد استُضعفت في ملكي حتى أن الناس يتسوّرون عليّ محرابي، قالا له: ﴿لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض﴾ ولم يكن لنا بدّ من أن نأتيك فاسمع منا. قال أحدهما: ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة﴾ أنثى ﴿ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها﴾ يريد أن يتمّم بها مائة ويتركني ليس لي شيء ﴿وعزّني في الخطاب﴾ قال: إن دعوتُ ودعا كان أكثر، وإن بطشتُ وبطش كان أشدّ مني، فذلك قوله: ﴿وعزّني في الخطاب﴾ قال له داود: أنت كنت أحوج إلى نعجتك منه ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ إلى قوله: ﴿وقليل ما هم﴾ ونسي نفسه ﷺ. فنظر المَلكان أحدهما إلى الآخر، فرآه داود وظنّ أنما فُتن ﴿فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب﴾[1]. وعن عكرمة عن ابن عباس أنه قال في السجدة في ص: «ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها»[2]. رواه البخاري وغيره.

وعن قتادة ﴿فغفرنا له ذلك﴾ الذنب ﴿وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾، أي: حسن مصير. قال ابن كثير[3]: أي وإنّ له يوم القيامة لقربة يقرّبه الله عزّ وجل بها وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنّة لنبوّته وعدله التامّ في ملكه، كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ١٤٦) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ١٠٦٩).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٢).

يمين، الذين يقسطون في أهليهم وما وُلّوا»[1]. وعن السدي: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ ملكه في الأرض ﴿فاحكم بين الناس بالحقّ﴾ يعني بالعدل والإنصاف ﴿ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾، أي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

عن ابن عباس ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾ قال: لا لثواب ولا لعقاب ﴿ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾. وقال مقاتل: قال كفار قريش للمؤمنين: إنا نعطى في الآخرة من الخير مثل ما تعطون، فنزلت هذه الآية ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار﴾؟

قال ابن كثير[2]: ولمّا كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولوا الألباب﴾، أي: ذوو العقول. قال الحسن البصري: والله ما تَدَبُّرُه بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كلّه، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل.

• • •

(١) أخرجه مسلم (ح/١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٣).

الدرس الثامن والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

عن ابن عباس ﴿نعم العبد إنه أوّاب﴾ قال: الأوّاب المسبّح. وقال قتادة: كان مطيعاً لله كثير الصلاة. وعن قتادة ﴿إذ عرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد﴾، يعني: الخيل. قال ابن زيد: والصفن أن تقوم على ثلاث وترفع رجلاً واحدة حتى يكون طرف الحافر على الأرض. **قال البغوي**[1]: والجياد الخيار السراع واحدها جواد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الخيل السوابق.

قوله تعالى: ﴿فقال إني أحببت حبّ الخير﴾، أي: آثرت حب الخير، وأراد بالخير الخيل، وسمّيت الخيل خيراً لأنه معقود بنواصيها الخير: الأجر والمغنم. قال مقاتل: ﴿حب الخير﴾، يعني: المال، فهي الخيل التي عرضت عليه، ﴿عن ذكر ربـي﴾، يعني: عن الصلاة، وهي صلاة العصر ﴿حتى توارت بالحجاب﴾، أي: توارت الشمس بالحجاب، أي: استترت بما يحجبها عن الأبصار ﴿ردّوها عليّ﴾، أي: ردّوا الخيل عليّ، فردّوها ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾. انتهى. قال إبراهيم التيمي: كانت الخيل التي شغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس فعقرها. وقال الحسن: فلما عقر الخيل أبدله الله خيراً منها وأسرع، وهي الريح تجري بأمره كيف يشاء.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٥١).

ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

عن السدي في قوله: ﴿ولقد فتنّا سليمان﴾ قال: لقد ابتلينا ﴿وألقينا على كرسيّه جسداً﴾ قال: الشيطان حين جلس على كرسيّه أربعين يوماً قال: كان لسليمان مائة امرأة وكانت امرأة منهنّ يقال لها جرادة، وهي أبرّ نسائه عنده وآمنهنّ عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه ولم يأتمن عليه أحداً من الناس غيرها، فجاءته يوماً من الأيام فقالت: إن أخي بينه وبين فلان خصومة وأنا أحبّ أن تقضي له إذا جاءك فقال لها: نعم، ولم يفعل، فابتلي وأعطاها خاتمه ودخل المخرج، فخرج الشيطان في صورته فقال: هاتي الخاتم، فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد، فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه من قبل؟ قال: لا، وخرج من مكانه تائهاً، قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً، فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قرّاء بني إسرائيل وعلماؤهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان قد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه، قال: فبكى النساء عند ذلك قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوه فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرأوا، فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفته والخاتم معه، ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت من حيتان البحر، قال: وأقبل سليمان في حالته التي كان فيها حتى انتهى إلى صياد من صيّادي البحر، وهو جائع، وقد اشتدّ جوعه فاستطعمه من صيدهم، قال: إني أنا سليمان، فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطىء البحر، فلام الصيّادون صاحبهم الذي ضربه فقالوا: بئس ما صنعت حيث ضربته، قال: إنه زعم أنه سليمان، فأعطوه سمكتين مما قد مذر[1] عندهم، ولم

(١) مذر، أي: فسد.

يشغله ما كان به من الضرر حتى قام إلى شطّ البحر، فشقّ بطونهما فجعل يغسل، فوجد خاتمه في بطن إحداهما فأخذه فلبسه فردّ عليه بهاؤه وملكه، وجاءت الطير حتى حامت عليه، فعرف القوم أنه سليمان، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا فقال: ما أحمدكم على عذركم ولا ألومكم على ما كان منكم، كان هذا الأمر لا بدّ منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه، فأرسل إلى الشيطان فجيء به، وسخّر له الريح والشياطين يومئذ ولم تكن سُخِّرت له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهّاب﴾ قال: وبعث إلى الشيطان فأتي به فأمر به فجُعل في صندوق من حديد ثم أطبق عليه فأقفل عليه بقفل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقي في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة.

وقوله تعالى: ﴿ثم أناب﴾ قال البغوي[1]: أي رجع إلى ملكه بعد أربعين يوماً، فلما رجع ﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهّاب﴾. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجنّ تفلّت عليّ البارحة ــ أو كلمة نحوها ــ ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلّكم، فذكرت قول أخي سليمان عليه السلام: ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ »[2]. قال روح: فردّه خاسئاً. متفق عليه. وفي رواية أحمد من حديث أبي سعيد: «ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»[3].

وقال الضحاك في قوله: ﴿وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ فإنه دعا يوم دعا ولم يكن في ملكه الريح وكل بنّاء وغوّاص من الشياطين، فدعا ربه عند

(١) المصدر السابق (٤/ ٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨٠٨)، ومسلم (ح/ ٥٤١).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٨٢ ــ ٨٣)، وأبو داود (ح/ ٦٩٩)، مختصراً، وهو حديث صحيح.

توبته واستغفاره، فوهب الله له ما سأل فتمّ ملكه. وعن قتادة ﴿فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ قال: سريعة طيّبة، ليست بعاصفة ولا بطيئة. وقال ابن زيد: الرخاء الليّنة. وعن ابن عباس: ﴿تجري بأمره رخاء﴾ قال: يعني بالرخاء المطيعة ﴿حيث أصاب﴾ يقول: حيث أراد. انتهى عليها. وعن قتادة ﴿والشياطين كلّ بنّاء وغوّاص﴾ قال: يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴿وغوّاص﴾ يستخرجون الحليّ من البحر ﴿وآخرين مقرّنين في الأصفاد﴾ قال: مردة الشياطين في الأغلال.

وعن الحسن في قوله: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ قال: المُلك الذي أعطيناك، فأعط ما شئت وامنع ما شئت، فليس عليك تبعة ولا حساب ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

قال ابن كثير[1]: لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا، نبّه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال تعالى: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾، أي: في الدار الآخرة.

● ● ●

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٩).

الدرس التاسع والثلاثون بعد المائتين

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ

يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

عن قتادة ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾ حتى بلغ ﴿بنُصْب وعذاب﴾، ذهاب المال والأهل والضرّ الذي أصابه في جسده، قال: ابتلي سبع سنين وأشهراً مُلقى على كُناسة لبني إسرائيل تختلف الدوابّ في جسده، ففرّج الله عنه وعظّم له الأجر وأحسن عليه الثناء. ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ قال: ضرب برجله الأرض فإذا عينان تنبعان، فشرب من إحداهما واغتسل من الأخرى؛ قال وهب: فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء.

وعن قتادة ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم﴾ قال: قال الحسن فأحياهم الله بأعيانهم، وزادهم مثلهم ﴿رحمة منا وذكرى لأولي الألباب﴾. وعن مجاهد قيل له: إن شئت أحييناهم لك، وإن شئت كانوا لك في الآخرة، وتعطى مثلهم في الدين، فاختار أن يكونوا في الآخرة. ومثلهم في الدين. وعن قتادة: ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث﴾ قال: كانت امرأته قد عرضت له بأمر، وأرادها إبليس على شيء فقال: لو تكلّمت بكذا وكذا ـ وإنما حملها عليها الجزع ـ فحلف نبي الله: لئن شفاه الله ليجلدنّها مائة جلدة قال: فأُمر بغصن فيه تسعة وتسعون قضيباً، والأصل تكملة المائة فضربها ضربة واحدة، فأبرّ نبيّ الله وخفّف الله عن أمته، والله رحيم. قال ابن كثير[1]: وهذا من الفرج والمخرج

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠).

لمن اتّقى الله تعالى وأناب إليه، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ يقول: أولي القوّة في العبادة، ﴿والأبصار﴾ يقول: الفقه في الدين. وقال مجاهد ﴿الأيدي﴾ القوّة في أمر الله ﴿والأبصار﴾ العقول. وقال السدي: ﴿الأيدي﴾ القوّة في طاعة الله ﴿والأبصار﴾ البصر بعقولهم. وعن قتادة ﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾ قال: بهذه أخلصهم الله، كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله.

وقوله تعالى: ﴿هذا ذكر﴾، أي: شرف وذكر جميل يُذكرون به أبداً. وعن السدي: ﴿هذا ذكر﴾ قال: القرآن. ﴿وإن للمتّقين لحسن مآب﴾ قال الحسن: منقلب ﴿جنّات عدن مفتّحة لهم الأبواب﴾ قال الحسن: أبواب تكلّم، فتكلّم: انفتحي انغلقي. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضّأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمد رسول الله، إلاّ فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيّها شاء»[1]. رواه مسلم ﴿متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾ قال قتادة: قصرن طرفهّن على

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢٣٤).

أزواجهنّ فلا يردن غيرهم ﴿أتراب﴾ قال: سنّ واحدة ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ **قال ابن كثير**[١]: أي هذا الذي من صفة الجنّة التي وعدها لعباده المتّقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار. وعن قتادة: ﴿إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾، أي: ما له انقطاع.

قوله عز وجل: ﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾.

قال البغوي[٢]: ﴿هذا﴾، أي: الأمر هذا ﴿وإن للطاغين﴾ الكافرين ﴿لشرّ مآب﴾ مرجع ﴿جهنّم يصلونها﴾ يدخلونها ﴿فبئس المهاد﴾. ﴿هذا﴾، أي: هذا العذاب ﴿فليذوقوه حميم وغسّاق﴾ قال الفرّاء: أي هذا حميم وغسّاق فليذوقوه، والحميم: الماء الحارّ الذي انتهى حرّه. وقال ابن عباس: الغسّاق الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرّها. وقال قتادة: هو ما يغسق، أي: يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة ﴿وآخر من شكله﴾ مثله، أي: مثل الحميم والغسّاق ﴿أزواج﴾، أي: أصناف أخر من العذاب.

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٤١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٥٧).

﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ قال ابن عباس: ﴿هذا﴾ هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للكفار ﴿هذا﴾، يعني: الأتباع ﴿فوج﴾ جماعة ﴿مقتحم معكم﴾ النار، أي: داخلوها كما أنتم دخلتموها. قال الكلبي: إنهم يُضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم في النار خوفاً من تلك المقامع فقالت القادة ﴿لا مرحباً بهم﴾ يعني: بالأتباع ﴿إنهم صالوا النار﴾ أي داخلوها كما صلينا ﴿قالوا﴾ فقال الأتباع للقادة ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدّمتموه لنا﴾ يقول الأتباع للقادة: أنتم بدأتم بالكفر قبلنا وشرعتم وسننتموه لنا ﴿فبئس القرار﴾، أي: فبئس دار القرار جهنم ﴿قالوا﴾، يعني: الأتباع ﴿ربنا من قدّم لنا هذا﴾، أي: شرعه وسنّه لنا ﴿فزده عذاباً ضعفاً في النار﴾، أي: ضعّف عليه العذاب. قال ابن مسعود: يعني حيّات وأفاعي.

وقالوا وهم في النار ﴿ما لنا لا نرى رجالاً كنّا نعدّهم﴾ في الدنيا ﴿من الأشرار﴾، يعنون: فقراء المؤمنين. ثم ذكروا أنهم كانوا يسخرون من هؤلاء فقالوا: ﴿أتّخذناهم سِخْرِيّاً﴾؟ قال الفراء: هذا من الاستفهام الذي معناه التوبيخ والتعجّب ﴿أم زاغت﴾، أي: مالت ﴿عنهم الأبصار﴾؟ ومجاز الآية: ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتّخذناهم سخرياً لم يدخلوا معنا النار؟ أم دخلوها فزاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم حين دخلوا؟ ﴿إنّ ذلك لحقّ تخاصم أهل النار﴾، أي: تخاصم أهل النار في النار لحقّ. ﴿قل﴾ يا محمد لمشركي مكّة ﴿إنما أنا منذر﴾ مخوّف ﴿وما من إله إلاّ الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

قال ابن كثير[1]: ﴿قل هو نبأ عظيم﴾، أي: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله تعالى إيّاي إليكم ﴿أنتم عنه معرضون﴾، أي: غافلون. قال مجاهد وشريح القاضي والسدي في قوله عز وجل ﴿قل هو نبأ عظيم﴾، يعني: القرآن. وقوله تعالى: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾، أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى في شأن آدم، وامتناع إبليس من السجود له ومحاجّته ربه في تفضيله عليه؟ انتهى. وعن قتادة قوله: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى﴾ قال: هم الملائكة، كانت خصومتهم في شأن آدم حين قال ربك للملائكة ﴿إني خالق بشراً من طين﴾ حتى بلغ ﴿ساجدين﴾ وحين قال: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ حتى بلغ ﴿ويسفك الدماء﴾ ففي هذا اختصم الملأ الأعلى. وفي حديث معاذ الطويل عند الإمام أحمد قال ــ يعني رسول الله ﷺ ــ: «إني قمت من الليل فصلّيت ما قدّر لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت، فإذ أنا بربّي عزّ وجلّ في أحسن صورة، فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا ربّ؟ أعادها ثلاثاً، فرأيته وضع كفّه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلّى لي كلّ شيء وعرفت، فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفّارات. قال: وما الكفّارات؟ قلت: نقل الأقدام

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢ ــ ٤٣).

إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات»[١]. الحديث.

قال ابن كثير[٢]: وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن، فإن هذا قد فُسّر، وأما الاختصام الذي في القرآن، فقد فُسّر بعد هذا، وهو قوله: ﴿إذ قال ربك للملائكة﴾ إلى آخر القصة. وعن ابن عمر قال: «خلق الله أربعة بيده: العرش وعدن والقلم وآدم، ثم قال لكلّ شيء: كن فكان»[٣]. رواه ابن جرير. وعن قتادة قال ﴿فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين﴾ قال: علم عدوّ الله أنه ليست له عزّة. وعن مجاهد ﴿فالحقّ والحقّ أقول﴾ يقول الله: الحقّ منّي وأقول الحقّ. قال ابن كثير[٤]: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ولكن حقّ القول منّي لأملأنّ جهنّم من الجِنّة والنّاس أجمعين﴾[٥].

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين﴾ قل: لا أسألكم على القرآن أجراً تعطوني شيئاً ﴿وما أنا من المتكلّفين﴾ أتخرص

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (ح/ ٣٢٣٥)، وقال: «حسن صحيح، وسألت محمد بن إسماعيل ــ أي البخاري ــ عن هذا الحديث فقال: حسن صحيح»، والطبراني (٢٠/ ١٠٩)، وبنحوه عن ابن عباس مرفوعاً أخرجه الترمذي (ح/ ٣٢٣٤)، والآجري في «الشريعة» (ص ٤٩٦)، وابن أبي عاصم (١/ ٣٠٤)، وهو حديث صحيح، وفي الباب عن أبي أمامة، وجابر بن سمرة وثوبان، وعبد الرحمن بن عائش رضي الله عنهم.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٣).

(٣) أخرجه الدارمي في الرد على بشر المريسي (ص ١٧٢)، والآجري في الشريعة (ص ٣٠٣)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢/ ٤٢٩)، وأبو الشيخ في العظمة (ح/ ٢١٣)، والحاكم (٢/ ٣١٩) وصححه، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(٤) المصدر السابق (٤/ ٤٤).

(٥) سورة السجدة: الآية ١٣.

وأتكلّف ما لم يأمرني الله به. وعن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم؛ فإن الله عز وجل قال لنبيّه ﷺ: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن هو إلاّ ذكر للعالمين﴾، يعني: القرآن ذكر لجميع المكلّفين من الإنس والجنّ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ﴿ولتعلمُنّ نبأه﴾ خبره وصدقه ﴿بعد حين﴾ قال عكرمة: يعني يوم القيامة. وقال الكلبي: من بقي علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا، ومن مات علمه بعد موته. قال الحسن بن آدم: عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

• • •

الدرس الأربعون بعد المائتين

﴿سـورة الزمـر﴾

مكية، وهي خمس وسبعون آية

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر»(١). رواه النسائي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٤)، والترمذي (ح/ ٢٩٢٠ و ٣٤٠٥)، وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٤)، وأيضاً في المجتبىٰ (٤/ ١١٩)، والحاكم (٢/ ٤٣٤)، وسكت عليه هو والذهبي، قلت: وهو حديث صحيح.

هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى
ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن
تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا
تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ
عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا
خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ
سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ
دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ
ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا
وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ
ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ
مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

قوله عز وجل: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٤ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾.

عن قتادة: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ شهادة أن لا إله إلاّ الله. وعن مجاهد في قوله: ﴿ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى﴾ قال: قريش تقول للأوثان، ومَنْ قَبْلَهُمْ تقوله للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزير.

وعن قتادة قوله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى﴾ قالوا: ما نعبد هؤلاء: ﴿إلاّ ليقرّبونا﴾ إلاّ ليشفعوا لنا عند الله. قال ابن كثير[1]:

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٥).

وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه. وعن قتادة: ﴿يخلقكم في بطون أمّهاتكم خلقاً من بعد خلق﴾ نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم لحماً ثم أنبت الشعر؛ أطوار الخلق في ظلمات ثلاث: المشيمة والرحم والبطن.

﴿ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلاّ هو فأنّى تصرفون﴾ قال ابن كثير، أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم، هو الربّ ﴿له الملك﴾ والمتصرّف في جميع ذلك: ﴿لا إله إلاّ هو﴾، أي: الذي لا تنبغي العبادة إلاّ له وحده لا شريك له ﴿فأنّى تصرفون﴾ فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذهب بعقولكم؟

وقوله تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غنيّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفر﴾، أي: لا يحبّه ولا يأمر به ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ قال السدي: إن تطيعوا يرضه لكم. وقال ابن كثير[١]، أي: يحبّه لكم ويزدكم من فضله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ قال السدي: لا يؤخذ أحد بذنب أحد. وقال ابن كثير، أي: لا تحمل نفس عن نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه. ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور﴾، أي: فلا تخفى عليه خافية.

قوله عز وجل: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وإذا مسّ الإنسان ضرّ﴾ قال: الوجع والبلاء والشدّة ﴿دعا ربّه منيباً إليه﴾ قال: مستغيثاً به ﴿ثم إذا خوّله نعمة منه﴾ قال السدي: إذا أصابته عافية

(١) المصدر السابق (٤/ ٤٦).

أو خير ﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ **قال ابن جرير**[1]: يقول: ترك دعاءه الذي كان يدعو الله من قبل أن يكشف ما كان به من ضرّ: ﴿وجعل لله أنداداً﴾ يعني شركاء ﴿ليضلّ عن سبيله﴾ يقول: ليزيل من أراد أن يوحّد الله ويؤمن به عن توحيده: ﴿قل تمتّع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾، أي: من أهل النار الماكثين فيها. انتهى ملخصاً.

وعن قتادة قوله: ﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً﴾ أوّله وأوسطه وآخره. وقال ابن عباس: يعني بالقنوت الطاعة. وعن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن القنوت قال: لا أعلم القنوت إلاّ قراءة القرآن وطول القيام وقرأ: ﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً﴾ وعن ابن عباس في قوله: ﴿يحذر الآخرة﴾ قال: يحذر عقاب الآخرة ﴿ويرجو رحمة ربه﴾ يقول: ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنّة. وقال ابن كثير[2]: يقول عزّ وجلّ: أمّن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ لا يستوون عند الله.

وقوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، أي: هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضلّ عن سبيله؟ ﴿إنما يتذّكر أولوا الألباب﴾.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢٣/١٩٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٧).

ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

قال مقاتل في قوله: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ يعني الجنّة.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[1].

وعن مجاهد قوله ﴿وأرض الله واسعة﴾ فهاجروا واعتزلوا الأوثان. وعن قتادة ﴿إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ لا والله ما هناكم مكيال ولا ميزان ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ قال البغوي[2]: مخلصاً له التوحيد لا أشرك به شيئاً ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ من هذه الأمة. ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربّي﴾ وعبدت غيره ﴿عذاب يوم عظيم﴾ وهذا حين دعي إلى دين آبائه. ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ أمر توبيخ وتهديد وقال ابن كثير[3]: يقول تعالى: قل يا محمد ــ وأنت رسول الله ــ ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة ــ وهذا شرط ــ ومعناه: التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى.

وعن ابن عباس قوله: ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ قال: هم الكفار الذين خلقهم الله للنار وخلق النار لهم، فزالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنّة. وقال ابن زيد: هؤلاء أهل النار خسروا أنفسهم في الدنيا وخسروا الأهل، فلم يجدوا في النار أهلاً وقد كان لهم في الدنيا أهل ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾.

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٧.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٦٤).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٨).

وقوله تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ كقوله تعالى: ﴿لهم من جهنّم مهاد ومن فوقهم غَواش ذلك يخوّف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾[1] قال ابن كثير[2]: أي إنما يقصّ خبر هذا الكائن لا محالة ليخوّف به عباده، لينزحوا عن المحارم والمآثم.

قوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قال البغوي[3]: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت﴾ الأوثان: ﴿أن يعبدوها وأنابوا إلى الله﴾ رجعوا إلى عبادة الله ﴿لهم البشرى﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وعن قتادة ﴿فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه﴾ وأحسنه طاعة الله ﴿أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾.

﴿أفمن حقّ عليه كلمة العذاب﴾ بكفره ﴿أفأنت تنقذ من في النار﴾ قال ابن كثير[4]: يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شقيّ تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله، لأنه من يضلل الله فلا هادي له ومن يهده فلا مضلّ له؛ ثم أخبر عزّ وجلّ عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنّة، وهي القصور الشاهقة ﴿من فوقها غرف مبنيّة﴾ طباق فوق طباق، مزخرفات عاليات ﴿تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾. وعن علي رضي الله عنه

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦١.

(٢) المصدر السابق (٤/٤٨).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٦٥).

(٤) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٩).

قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يُرى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها، فقال أعرابيّ: لمن هي يا رسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلّى بالليل والناس نيام»[1]. رواه أحمد وغيره.

● ● ●

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (١/ ١٥٦) ــ وليس كما توهمه المؤلف رحمه الله، حيث وهم أن أحمد أخرجه في مسنده ــ والترمذي (ح/ ١٩٨٥ و ٢٥٢٩)، والبزار (ح/ ٧٠٢)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٦١٣ ــ ١٦١٤) بسند ضعيف. ولكن له شاهد من حديث أبي مالك الأشعري: أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٣)، وابن حبان ــ كما في الإحسان ــ (١/ ٣٦٣)، والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ٤٠)، وشاهد آخر من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أخرجه أحمد (٢/ ١٧٣)، والحاكم (١/ ٣٢١)، وصححه ووافقه الذهبي، قلت: فيه ابن لهيعة، إلاّ أن حديثه لا بأس به في المتابعات والشواهد. فالحديث أقل أحوال أنه حسن، والله أعلم.

الدرس الحادي والأربعون بعد المائتين

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قال البغوي[١]: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه﴾ أدخل ذلك الماء ﴿ينابيع﴾ عيوناً وركايا في الأرض. قال الشعبي: كل ماء في الأرض فمن السماء. ﴿ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ أحمر وأصفر وأخضر ﴿ثم يهيج﴾ ييبس ﴿فتراه﴾ بعد خضرته ونضرته ﴿مصفراً ثم يجعله حطاماً﴾ فُتاتاً متكسّراً ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾. ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ وسّعه لقبول الحقّ ﴿فهو على نور من ربه﴾ كمن قسى الله قلبه ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ قال مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله عزّ وجلّ على قوم إلاَّ نزع منهم الرحمة.

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه. قلنا: يا رسول الله كيف انشراح صدره؟ قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح! قلنا: يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود. والتجافي عن دار الغرور، والتأهّب للموت قبل نزول الموت»[٢]. رواه البغوي وغيره.

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٦٥).

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٤/ ٦٦) بسند ضعيف.

قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ۝٢٣ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ۝٢٤ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٢٦﴾.

عن قتادة قوله: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال سعيد بن جبير: يشبه بعضه بعضاً، ويصدّق بعضه بعضاً، ويدلّ بعضه على بعض. وعن ابن عباس قوله: ﴿مثاني﴾ قال: كتاب الله مثاني، ثنى فيه الأمر مراراً. وقال قتادة: ثنى الله فيه الفرائض والقضاء والحدود. وقال ابن زيد ﴿مثاني﴾ مردد، ردّد ذكر موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء. وقال معمر: تلا قتادة ــ رحمه الله ــ ﴿تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عز وجل بأن تقشعرّ جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئنّ قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا من أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾. ﴿أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب﴾، أي: شدّته يوم القيامة. قال مجاهد: يجرّ على وجهه في النار؛ ومجاز الآية[1]: أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب كمن هو

(١) لعل مراد المؤلف ــ رحمه الله ــ يقوله: «مجاز الآية» أي: ما يعبر به عن الآية، كما هي طريقة أبي عبيدة معمر بن المثنى (الإيمان لابن تيمية ص ٧٣)، واعلم ــ وفقني الله وإياك ــ أن تقسيم ألفاظ اللغة إلى حقيقة ومجاز، هو اصطلاح حادث لم يكن عليه سلف الأمة من القرون الثلاثة المفضلة، فلم يتكلم به الصحابة ولا التابعون لهم بإحسان، ولا أحد الأئمة المشهورين في العلم كمالك، والثوري، والأوزاعي، والشافعي، بل ولا تكلم =

آمن من العذاب؟ وقيل: يعني تقول الخزنة للظالمين ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾، أي: وباله. ﴿كذّب الذين من قبلهم﴾ من قبل كفار مكة، كذّبوا الرسل ﴿فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾، يعني: وهم آمنون غافلون عن العذاب ﴿فأذاقهم الله الخزي﴾ العذاب والهوان ﴿في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

عن مجاهد ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ غير ذي لَبْس. وقال ابن عباس: غير مختلف.

وقال ابن كثير[1]: **ويقول تعالى:** ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾، أي: بيّنّا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿لعلّهم يتذكّرون﴾ فإن المثل يقرّب المعنى إلى الأذهان. وقوله جلّ وعلا: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾، أي: هو قرآن

= به أئمة اللغة والنحو كالخليل، وسيبويه، وأبـي عمرو بن العلاء ونحوهم، وسائر الأئمة ــ رحهمهم الله ــ لم يقل أحد منهم: إن في القرآن مجازاً، فتقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز لم يشتهر إلاَّ في المائة الرابعة، وهو تقسيم مبتدع مخترع لم ينطق به السلف. اهـ. ملخصاً من كلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ وقد شن ابن تيمية ــ رحمه الله ــ الغارة على القائلين بالمجاز في القرآن، واللغة أيضاً في كتابه القيم «الإيمان» من (ص ٧٢ ــ ٩٩) ط / المكتب الإسلامي فراجعه لزاماً، لتنجلي عنك ــ بإذن الله تعالى ــ الشبه الواردة في هذا الباب.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٢).

بلسان عربيّ مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لَبْس، بل هو بيان ووضوح وبرهان؛ وإنما جعله الله تعالى كذلك وأنزله بذلك ﴿لعلّهم يتّقون﴾، أي: يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد.

وعن قتادة قوله: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾ قال: هذا المشرك يتنازعه الشياطين، ﴿ورجلاً سَلَماً لرجل﴾ قال: هو المؤمن أخلص الدعوة لله والعبادة. وقال ابن زيد: أرأيت الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون؟ كلهم سيِّىء الخلق، ليس منهم واحد إلاَّ تلقاه آخذاً بطرف من مال لاستخدامه أسوأهم والذي لا يملكه إلاَّ واحد، فإنما هذا مثل ضربه الله لهؤلاء الذين يعبدون الآلهة وجعلوا لها في أعناقهم حقوقاً، فضربه الله مثلاً لهم وللذي يعبده وحده ﴿هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾. قال البغوي[١]: وهذا استفهام إنكار، أي: لا يستويان، ثم قال: ﴿الحمد لله﴾، أي: لله الحمد كلّه دون غيره من المعبودين ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ما يصيرون إليه.

﴿إنك ميّت﴾، أي: ستموت ﴿وإنهم ميّتون﴾، أي: سيموتون ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال ابن عباس: يعني، المحقّ والمبطل والظالم والمظلوم. قال ابن كثير[٢]: وقوله تعالى: ﴿إنك ميّت وإنهم ميّتون﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصدّيق رضي الله عنه عند موت رسول الله ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله عزّ وجل: ﴿وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾.

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٦٨).
(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٥٣).

الدرس الثاني والأربعون بعد المائتين

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ

جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قال البغوي[1]: قوله عز وجل: ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله﴾ فزعم أن له ولداً أو شريكاً ﴿وكذّب بالصدق﴾ بالقرآن ﴿إذ جاءه أليس في جهنّم مثوى﴾ منزل ومقام ﴿للكافرين﴾؟ استفهام بمعنى التقرير. وعن قتادة: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ قال: هذا رسول الله ﷺ جاء بالقرآن: ﴿وصدّق به﴾ المؤمنون. وقال مجاهد: هم أهل القرآن يجيئون به يوم القيامة يقولون: هذا الذي أعطيتمونا فاتبعنا ما فيه. وعن ابن عباس: ﴿أولئك هم المتقون﴾ يقول: اتقوا الشرك. وقال ابن زيد ﴿والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون﴾ ألهم ذنوب؟ أي ربّ، نعم ﴿لهم فيها ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفّر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾، وقرأ: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ إلى أن بلغ ﴿ومغفرة﴾ لئلاّ ييأس من له الذنوب أن لا يكونوا منهم ﴿ورزق كريم﴾، وقرأ: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلى آخر الآية.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٦٩).

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

عن السدي: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾؟ يقول: محمد ﷺ ﴿ويخوّفونك بالذين من دونه﴾ يقول: بآلهتم التي كانوا يعبدون. وعن قتادة ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله﴾ حتى بلغ ﴿كاشفات ضرّه﴾ يعني الأصنام ﴿أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته﴾؟ قال ابن كثير[1]: كانوا يعترفون أن الله عزّ وجلّ هو الخالق للأشياء كلّها، ومع هذا يعبدون معه غيره. وعن ابن عباس مرفوعاً: «من أحبّ أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله، ومن أحبّ أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عزّ وجلّ أوثق منه بما في يديه، ومن أحبّ أن يكون أكرم الناس فليتّق الله عزّ وجلّ»[2]. وعن مجاهد: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ على ناحيتكم. وقال ابن كثير[3]: أي على طريقكم؛ وهذا تهديد ووعيد ﴿إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ــ كما عزاه له ابن كثير في تفسيره ــ (٤/ ٥٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٨ ــ ٢١٩)، والقضاعي (ح/ ٣٦٧ و ٣٦٨) بسند ضعيف جداً.

(٣) المصدر السابق (٤/ ٥٤).

فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ قال: يجمع بين أرواح الأحياء وأرواح الأموات، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى﴾ إلى أجسادها. قال ابن زيد: فالنوم وفاة ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى﴾ قال السدي: إلى بقية آجالها. وعن قتادة: ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء﴾ الآلهة: ﴿قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً﴾ الشفاعة. وعن مجاهد قوله: ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾ قال: لا يشفع عنده أحد إلاّ بإذنه.

وعن قتادة قوله: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾: أي كفرت قلوبهم واستكبرت: ﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ الآلهة ﴿إذا هم يستبشرون﴾ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات

والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدني لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١]. رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ قال مقاتل: ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة. قال السدي: ظنّوا أنها حسنات فبدت لهم سيئات. قال البغوي[٢]: والمعنى أنهم كانوا يتقرّبون إلى الله بعبادة الأصنام، فلما عوقبوا عليها بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾، أي: مساوىء أعمالهم من الشرك والظلم بأولياء الله ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾، أي: على خبر عندي ﴿بل هي فتنة﴾، أي: بلاء ﴿ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾. وعن السدي: ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ الأمم الماضية ﴿والذين ظلموا من هؤلاء﴾ قال: من أمة محمد ﷺ.

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٧٧٠).
(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٧١).

وقوله تعالى: ﴿أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ قال ابن جرير[١]: يقول تعالى ذكره: أَوَلَم يعلم ــ يا محمد ــ هؤلاء الذين كشفنا ضرّهم فقالوا: إنما أوتيناه على علم منا، أن الشدّة والرخاء والسعة والضيق والبلاء بيد الله دون كلّ من سواه؟ ﴿يبسط الرزق لمن يشاء﴾ فيوسعه عليه ﴿ويقدر﴾ ذلك على من يشاء من عباده فيضيّقه، وأن ذلك من حجج الله على عباده ليعتبروا به ويتذكّروا ويعلموا أن الرغبة إليه والرهبة دون الآلهة والأنداد؟ ﴿إن في ذلك لآيات قوم يؤمنون﴾.

● ● ●

(١) انظر «جامع البيان» (١٣/٢٤).

الدرس الثالث والأربعون بعد المائتين

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

عن ابن عباس: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ وذلك أن أهل مكة قالوا: يزعم محمد أنه مَنْ عبد الأوثان ودعا مع الله إلٰهاً آخر، وقتل النفس التي حرّم الله لم يغفر له، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس التي حرّم الله ونحن أهل الشرك؟ فأنزل الله ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ يقول: لا تيأسوا من رحمتي ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾، قال: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ وإنما يعاتب الله أولي الألباب، وإنما الحلال والحرام لأهل الإيمان، فإيّاهم عاتب وإياهم أمر إن أسرف أحدهم على نفسه أن لا يقنط من رحمة الله، وأن ينيب ولا

يبطىء بالتوبة من ذلك الإسراف والذنب الذي عمله؛ وقد ذكر الله في سورة آل عمران أن المؤمنين حين سألوا الله المغفرة فقالوا ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا﴾ فينبغي أن يعلم أنهم قد كانوا يصيبون الإسراف فأمرهم بالتوبة من إسرافهم[1].

وعن القرظيّ أنه قال في هذه الآية ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ قال: هي للناس أجمعين. وعن قتادة قوله ﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾، أي: أقبلوا إلى ربكم. وقال ابن زيد: الإنابة الرجوع إلى الطاعة والنزوع عما كانوا عليه، ألا تراه يقول: ﴿منيبين إليه واتقوه﴾ وعن السدي ﴿واتّبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ يقول: ما أُمرتم به في الكتاب ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله﴾ قال: تركت من أمر الله ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ يقول: من المستهزئين. قال قتادة: فلم يكفه أن ضيّع طاعة الله حتى جعل يسخر بأهل طاعة الله، هذا قول صنف منهم ﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ هذا قول صنف آخر ﴿أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرّة﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فأكون من المحسنين﴾ قال: هذا صنف آخر؛ يقول الله ردّاً لقولهم ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وينجّي الله الذين اتقوا بمفازتهم﴾ قال: بأعمالهم، والآخرون ﴿يحملون أوزارهم يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ١٤) بسند ضعيف.

ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قال البغوي: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾، أي: الأشياء كلها موكولة إليه، فهو القائم بحفظها ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾، أي: مفاتيح خزائن السموات والأرض. ﴿والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون﴾. ﴿قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون﴾ قال مقاتل: وذلك أن كفار قريش دعوه إلى دين آبائه ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك﴾، أي: الذي عملته قبل الشرك، وهذا خطاب مع رسول الله ﷺ والمراد من غيره، وقيل: هذا أدب من الله لنبيّه وتهديد لغيره، لأن الله تعالى عصمه من الشرك ﴿ولتكوننّ من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ لإنعامه عليك ﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾ ما عظّموه حقّ عظمته حين أشركوا به غيره. ثم أخبر عن عظمته فقال ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾. انتهى ملخصاً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك؟ أين ملوك الأرض؟»(١) متفق عليه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨١٢)، ومسلم (ح/ ٢٧٨٧).

على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ »[1] متفق عليه.

قوله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ينفخ في الصور ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين تبارك وتعالى، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، فتفزع أهل السموات وأهل الأرض إلاَّ من شاء الله». قال أبو هريرة: يا رسول الله فمن استثنى حين يقول: ﴿ففزع من في السموات ومن في الأرض إلاَّ من شاء الله﴾؟ قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم وأمّنهم؛ ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق، فيصعق أهل السموات والأرض إلاَّ من شاء الله فإذا هم خامدون؛ ثم يأتي ملك الموت إلى الجبّار تبارك وتعالى فيقول: يا رب، قد مات أهل السموات والأرض إلاَّ من شئت، فيقول له ــ وهو أعلم ــ: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحيّ الذي لا تموت، وبقي حملة عرشك، وبقي جبريل وميكائيل. فيقول الله: فليمت جبريل وميكائيل. فيقول: يا رب يموت جبريل وميكائيل! فيقول الله له: اسكت إني كتبت الموت على من كان تحت عرشي؛ ثم يأتي ملك الموت فيقول: يا رب قد مات جبريل وميكائيل، فيقول الله ــ وهو أعلم ــ: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحيّ

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨١١)، ومسلم (ح/ ٢٧٨٦).

الذي لا تموت، وبقي حملة عرشك وبقيت أنا. فيقول الله: فليمت حملة العرش، فيموتون، ويأمر الله العرش فيقبض الصور فيقول: أي رب قد مات حملة عرشك. فيقول ــ وهو أعلم ــ: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحيّ الذي لا تموت وبقيت أنا. فيقول الله: أنت من خلقي، خلقتك لما رأيت، فمت لا تحيى. فيموت»[١]. رواه ابن جرير.

وعن قتادة ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ قال نبيّ الله: «بين النفختين أربعون»[٢] قال: قال أصحابه: فما سألناه عن ذلك؛ ولا زادنا على ذلك؛ غير أنهم كانوا يرون من رأيهم أنها أربعون سنة. وذكر لنا أنه يبعث في ذلك الأربعون مطر يقال له: مطر الحياة، حتى تطيب الأرض وتهتزّ وتنبت أجساد الناس نبات البقل، ثم ينفخ فيه الثانية فإذا هم قيام ينظرون. وعن الحسن قال: قال النبي ﷺ: «كأني أنفض رأسي من التراب أول خارج، فألتفت فلا أرى أحداً إلاّ موسى متعلّقاً بالعرش، فلا أدري أممن استثنى الله لا تصيبه النفخة لعلمه الصعقة أو بُعث قبلي»[٣].

وعن قتادة قوله: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ قال: فما يتضارّون في نوره إلاّ كما يتضارّون في الشمس في اليوم الصحو الذي لا دخن فيه ﴿ووضع الكتاب﴾ قال: كتاب أعمالهم ﴿وجيء بالنّبيّين﴾ قال ابن كثير: قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلّغوهم رسالات الله إليهم ﴿والشهداء﴾، أي: الشهداء من الملائكة، الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿وقضي بينهم بالحقّ﴾، أي: بالعدل ﴿وهم لا يظلمون ووفّيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ قال عطاء: يريد: أني عالم بأفعالهم لا أحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد.

---

(١) سبق تخريجه، وسنده ضعيف.

(٢) روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في الصحيحين، وقد سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٣١) عن الحسن مرسلاً.

قوله عز وجل: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ قال: جماعات ﴿حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾ قال ابن كثير[1]: أي بمجرّد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً ﴿وقال لهم خزنتها﴾ ــ على وجه التقريع والتوبيخ ــ ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾، أي: ولكن كذّبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾.

﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ في الصحيحين من حديث جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أضواء كوكب درّيّ، لا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتمخّطون،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٦٥).

أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الإلوة وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستّون ذراعاً في السماء»[١].

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع، وأنا أول من يقرع باب الجنّة»[٢]. رواه مسلم. وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ حتى إذا انتهوا إلى بابها إذا هم بشجرة يخرج من أصلها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فشربوا منها كأنما أمروا بها، فخرج ما في بطونهم من قذر أو أذى أو قذى، ثم عمدوا إلى الأخرى فتوضأوا منها كأنما أمروا بها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلن تشعث رؤوسهم بعدها أبداً ولن تبلى ثيابهم بعدها، ثم دخلوا الجنة فتلقّتهم الولدان كأنهم اللؤلؤ المكنون فيقولون: أبشر، أعدّ الله لك كذا، وأعد لك كذا وكذا، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه: جندل اللؤلؤ الأحمر والأصفر والأخضر يتلألأ كأنه البرق، فلولا أن الله قضى أن لا يذهب بصره لذهب، ثم يأتي بعضهم إلى بعض أزواجه فيقول: أبشري، قد قدم فلان ابن فلان، فيسمّيه باسمه واسم أبيه، فتقول: أنت رأيته، أنت رأيته؟! فيستخفّها الفرح حتى تقوم فتجلس على أُسْكُفَّة بابها فيدخل فيتكىء على سريره ويقرأ هذه الآية ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحقّ﴾ وعن مجاهد قوله: ﴿طبتم﴾ قال: كنتم طيّبين في طاعة الله.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأورثنا الأرض﴾ قال: أرض الجنّة وقرأ: ﴿أن

---

(١) ليس الحديث في الصحيحين من حديث جرير، إنما هو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد سبق تخريجه، فلعله وهم من المؤلف ــ رحمه الله ــ أو سبق قلم من الناسخ، أو أن المؤلف تابع ابن كثير على ذلك كما في تفسيره (٤/٦٦) حيث قال: «وأخرجاه من حديث جرير»!!.

(٢) أخرجه مسلم (١/١٨٨).

الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ وعن السدي ﴿نتبوّأ من الجنّة حيث نشاء﴾ ننزل منها حيث نشاء. وعن قتادة ﴿وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربهم وقضي بينهم﴾، أي: بين الخلائق ﴿بالحق وقيل الحمد لله ربّ العالمين﴾ قال: فتح أول الخلق بالحمد فقال: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ وختم بالحمد فقال ﴿وقضي بينهم بالحقّ وقيل الحمد لله رب العالمين﴾.

• • •

الدرس الرابع والأربعون بعد المائتين

﴿سـورة المـؤمـن﴾

مكية، وهي خمسة وثمانون آية

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً فمرّ بأثر غيث، فبينما هو يسير فيه ويتعجّب منه إذ هبط على روضات دمثات فقال: عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب منه وأعجب، فقيل له: إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمثات مثل آل حم في القرآن»[١]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لكلّ شيء لباب، ولباب القرآن الحواميم»[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟

---

(١) أخرجه حميد بن زنجويه كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٩)، ومن طريقه البغوي في تفسيره (٤/ ٧٩).

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره (٤/ ٧٩) بسند ضعيف.

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا

فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾.

عن أبـي إسحاق قال: جاء رجل إلى عمر فقال: إني قتلت فهل لي من توبة؟ قال: نعم، اعمل لا تيأس. ثم قرأ: ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب﴾. وعن ابن عباس قوله: ﴿ذي الطول﴾ يقول: ذي السَعة والغنى. وقال ثابت البناني: كنت مع مصعب بن الزبير في سواد الكوفة، فدخلت حائطاً أصلّي ركعتين، فافتتحت حم المؤمن، حتى بلغت ﴿لا إله إلاّ هو إليه المصير﴾ فإذا رجل خلفي على بغلة شهباء، عليه مقطّعات يمنية فقال: إذا قلت ﴿غافر الذنب﴾ فقل: يا غافر الذنب اغفر لي ذنبـي، وإذا قلت ﴿قابل التوب﴾ فقل: يا قابل التوب اقبل توبتي، وإذا قلت ﴿شديد العقاب﴾ فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبني، قال: فالتفتّ فلم أر أحداً.

وقوله تعالى: ﴿ما يجادل في آيات الله إلاّ الذين كفروا فلا يغررك تقلّبهم في البلاد﴾ قال قتادة: أسفارهم فيها ومجيئهم وذهابهم ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم﴾ قال: الكفار ﴿وهمّت كل أمّة برسولهم ليأخذوه﴾ ليقتلوه ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾ قال: شديدٌ والله، ﴿وكذلك حقّت كلمة ربك﴾.

قال البغوي[١]: يعني كما حقّت كلمة العذاب على الأمم المكذّبة، حقّت على الذين كفروا من قومك ﴿أنهم أصحاب النار﴾.

قوله عزوجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

قال البغوي[٢]: قوله عز وجل: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾ حملة العرش والطائفون به وهم الكروبيّون، وهم سادة الملائكة. قال ابن عباس: حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام، ويروى أن أقدامهم في تخوم الأرض، والأرضون والسموات إلى حُجُزهم، وهم يقولون: سبحان ذي العزّة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحيّ الذي لا يموت، سبّوح قدّوس، ربّ الملائكة والروح. قال وروى محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، ما بين شحمة أذنيه إلى عاتقيه مسيرة سبعمائة عام»[٣].

وعن قتادة: ﴿فاغفر للذين تابوا من الشرك واتّبعوا سبيلك﴾، أي: طاعتك

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٨٠).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٨٠).

(٣) أخرجه أبو داود (ح/ ٤٧٢٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ٤٧٦)، والطبراني في الأوسط كما في «مجمع البحرين» (ح/ ٦٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١٤٢)، وهو حديث صحيح.

﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ قال مطرف: وجدنا: أغشّ عباد الله لعباد الله الشياطين، ووجدنا: أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوا، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة. ﴿قالوا ربّنا أمّتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾؟ قال قتادة: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بدّ منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان.

﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾ قال: فهل إلى كرّة إلى الدنيا؟ قال البغوي[1]: أي من خروج من النار فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك؟ قال الله تعالى: ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم﴾ وفيه متروك استغني عنه لدلالة الظاهر عليه، مجازه: فأُجيبوا: أن لا سبيل إلى ذلك.

قوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٨٢).

عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

عن السدي: ﴿إلاَّ من ينيب﴾ قال: من يُقبل إلى طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾ قال ابن كثير[1]: يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾[2]. وعن قتادة قوله: ﴿يلقي الروح من أمره﴾ قال: الوحي ﴿من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾ قال: يوم تلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ قال: يوم القيامة، وقرأ ﴿أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة﴾[3].

﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ قال قتادة: قد وقعت القلوب في الحناجر من المخافة، فلا هي تخرج ولا تعود إلى أمكنتها. وعن السدي: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ قال: شخصت أفئدتهم عن أمكنتها، فنشبت في حلوقهم فلم تخرج من أجوافهم فيموتوا، ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقرّ. ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع﴾ قال: من يعنيه أمرهم ولا شفيع لهم.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٧٣).

(٢) سورة المعارج: الآية ٤.

(٣) سورة النجم: الآية ٥٨.

وقال ابن كثير: وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع﴾[1]، أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطّعت بهم الأسباب من كل خير. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ إذا نظرت إليها ــ يريد الخيانة ــ أم لا ﴿وما تخفي الصدور﴾ إذا قدرت عليها ــ أتزني بها ــ أم لا.

وقوله تعالى: ﴿والله يقضي بالحق﴾، أي: بالعدل ﴿والذين يدعون من دونه﴾ من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لا يقضون بشيء﴾، أي: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿إن الله هو السميع البصير﴾.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ يقيهم ولا ينفعهم.

● ● ●

(١) المصدر السابق (٤/ ٧٥).

الدرس الخامس والأربعون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ

مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟

بَلَىٰۚ قَالُواْ فَادْعُواْۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

عن قتادة: ﴿إني أخاف أن يبدّل دينكم﴾، أي: أمركم الذي أنتم عليه ﴿أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ والفساد عنده أن يعمل بطاعة الله.

قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ

مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾.

عن السدي: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون﴾ قال: هو ابن عم فرعون: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربـي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم﴾؟ قال ابن إسحاق: بعصاه وبيده. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينا رسول الله ﷺ يصلّي بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبـي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذه بمنكبيه ودفعه عن النبـي ﷺ ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربـي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم؟»[(١)] رواه البخاري.

وقوله: ﴿إني أخاف عليكم يوم التناد﴾، أي: يوم القيامة. وفي حديث الصور: «فتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتتلقّاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله: ﴿يوم التناد يوم تولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم﴾»[(٢)].

وعن السدي: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل﴾ قال موسى: ﴿من قبل﴾ بالبيّنات. قال البغوي[(٣)]: يعني قوله: ﴿أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهّار﴾[(٤)] ﴿فما زلتم في شكّ مما جاءكم به﴾ قال ابن عباس: من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿حتى إذا هلك﴾ مات ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨١٥).

(٢) سبق تخريجه، وسنده ضعيف.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٨٦).

(٤) سورة يوسف: الآية ٣٩.

يضلّ الله من هو مسرف﴾ مشرك ﴿مرتاب﴾ شاكّ. ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ قال الزجاج: هذا تفسير للمسرف المرتاب، يعني: ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾، أي: في إبطالها بالتكذيب: ﴿بغير سلطان﴾ حجّة: ﴿أتاهم﴾ من الله ﴿كبر مقتاً﴾، أي: كبر ذلك الجدال مقتاً ﴿عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبّر جبّار﴾ قال قتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً﴾ وكان أوّل من بنى بهذا الآجرّ وطبخه، ﴿لعليّ أبلغ الأسباب أسباب السموات﴾، أي: أبواب السموات ﴿فأطّلع إلى إله موسى وإني لأظنّه كاذباً﴾ قال ابن جرير[1]: يقول: وإنّي لأظنّ موسى كاذباً فيما يقول ويدّعي من أن له في السماء ربّاً أرسله إلينا. ﴿وكذلك زُيّن لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل﴾ قال قتادة: فعل ذلك به: زُيّن له سوء عمله، وصُدّ عن السبيل ﴿وما كيد فرعون إلاّ في تباب﴾، أي: في ضلال وخسار.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى

(١) انظر «جامع البيان» (٢٤/ ٦٤).

ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

عن قتادة: ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ استقرّت الجنّة بأهلها واستقرّت النار بأهلها. ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلَّا مثلها، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ قال قتادة: لا والله ما هناكم مكيال ولا ميزان. وعن مجاهد قوله ﴿ما لي أدعوكم إلى النجاة﴾ قال: الإيمان بالله ﴿وتدعونني إلى النار﴾؟ قال ابن زيد: هذا مؤمن آل فرعون يدعونه إلى دينهم والإقامة معهم ﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفّار﴾. ﴿لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ قال قتادة، أي: لا ينفع ولا يضرّ: ﴿وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾، أي: المشركون. وقال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ فقلت له: أو ذلك في الآخرة؟ قال: نعم. وعن السدي: ﴿وأفوّض أمري إلى الله﴾ قال: أجعل أمري إلى الله ﴿إن الله بصير العباد﴾. وعن قتادة: ﴿فوقاه الله سيّئات ما مكروا﴾ قال: كان قبطيّاً من قوم فرعون، فنجا مع موسى ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ قال السدي: قوم فرعون: ﴿النار يعرضون عليها غدّواً وعشيّاً﴾ قال: بلغني أن أرواح قوم فرعون في أجواف طير سود، تعرض على النار غدّواً وعشيّاً حتى تقوم الساعة ﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب﴾ قال ابن عباس: يريد ألوان العذاب، غير الذي كانوا يعذّبون به منذ أُغرقوا.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: ﴿وإذ يتحاجّون في النار﴾، أي: اذكر يا محمد لقومك، إذ يختصمون يعني أهل النار في النار ﴿فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً﴾ في الدنيا ﴿فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ قال ابن كثير[2]: أي قسطاً تتحملونه عنا ﴿قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾، أي: قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقّه كلّ منا.

قال البغوي[3]: ﴿وقال الذين في النار﴾ حين اشتدّ عليهم العذاب ﴿لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفّف عنا يوماً من العذاب﴾. ﴿قالوا﴾ يعني خزنة جهنم لهم ﴿أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا بلى قالوا فادعوا﴾ أنتم إذاً ربكم، أي: إنا لا ندعوا لكم، لأنهم علموا أنه لا يخفّف عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾، أي: يبطل ويضلّ ولا ينفعهم.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤٠/ ٨٨).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٨٣).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤٠/ ٨٨).

هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

عن السدي قول الله: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ قد كانت الأنبياء المؤمنون يُقتلون في الدنيا وهم منصورون، وذلك أن تلك الأمة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين لا تذهب حتى يبعث الله قوماً فينتصر بهم لأولئك الذين قتلوهم. وعن قتادة: ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ من ملائكة الله وأنبيائه والمؤمنين به.

وقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ قال مقاتل: الهدى من الضلالة يعني التوراة: ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب﴾، أي: العقول السليمة: ﴿فاصبر﴾ يا محمد على أذى قومك ﴿إن وعد الله حق﴾ وسينصرك عليهم ويظهر دينه ﴿واستغفر لذنبك﴾ قال البغوي[1]: هذا تعبّد من الله، ليزيده به درجة وليصير سنّة لمن بعده ﴿وسبّح بحمد ربك بالعشّي والإبكار﴾.

• • •

(١) المصدر السابق (٤٠/ ٨٩).

الدرس السادس والأربعون بعد المائتين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن

يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ♦ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٥٩﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ لم يأتهم بذلك سلطان ﴿إن في صدورهم إلاّ كبر﴾ قال ابن عباس ما يحملهم على تكذيبك إلاّ ما في صدورهم من الكبر والعظمة ﴿ما هم ببالغيه﴾ قال مجاهد ﴿ما هم ببالغيه﴾ مقتضى ذلك الكبر، لأن الله عز وجل مُذِلُّهم ﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾.

وقوله تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض﴾ مع عظمهما ﴿أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ قال البغوي[1]: حيث لا يستدلّون بذلك على توحيد خالقها؛ وقال ابن كثير[2]: يقول تعالى منبّهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه، بأنه خلق السموات والأرض وخَلْقُها أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٨٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٨٥).

الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿أوَلَم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهنّ بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾. ثم قال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيىء قليلاً ما تتذكّرون﴾، أي: ما أقلّ ما يتذكّر كثير من الناس. ثم قال تعالى: ﴿إن الساعة لآتية﴾، أي: لكائنة وواقعة ﴿لا ريب فيها ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ يقول: وحّدوني أغفر

لكم. وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء هو العبادة، وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾»[1]. رواه ابن جرير. وعن السدي: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ قال: عن دعائي ﴿سيدخلون جهنّم داخرين﴾ قال: صاغرين.

وقوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلاَّ هو فأنى تؤفكون﴾، أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ وعن ابن عباس قال: من قال لا إله إلاَّ الله، فليقل على إثرها: الحمد لله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾.

وقوله تعالى: ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لمّا جاءني البيّنات من ربّي وأمرت أن أسلم لربّ العالمين﴾ قال ابن كثير[2]: يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بيّن تبارك وتعالى أنه لا يستحقّ العبادة أحد سواه في قوله ــ جلت عظمته ــ : ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم ثم لتكونوا شيوخاً﴾، أي: هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله.

وقوله تعالى: ﴿ومنكم من يُتَوَفَّى من قبل﴾ قال البغوي[3]: من قبل أن يصير شيخاً ﴿ولتبلغوا﴾ جميعاً ﴿أجلاً مسمى﴾ وقتاً معلوماً محدوداً لا تجاوزونه، يريد

(١) حديث صحيح، وقد خرجته في «كشف ما ألقاه إبليس من البهرج والتلبيس على قلب داود بن جرجيس».

(٢) المصدر السابق (٤/ ٨٧).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٩٢).

أجل الحياة إلى الموت ﴿ولعلّكم تعقلون﴾، أي: لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته.

قال ابن كثير[١]: **ثم قال تعالى**: ﴿هو الذي يحيـي ويميت﴾، أي: هو المتفرّد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، أي: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان لا محالة.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون﴾ قال: عن الحق، قال: هؤلاء المشركون. وعن مجاهد في قوله: ﴿يُسْجَرُون﴾ قال: يوقد بهم النار.

وقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلّوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضلّ الله الكافرين﴾.

قال ابن جرير[٢] **يقول**: ثم قيل: أين الذين كنتم تشركون بعبادتكم إياها من دون الله من آلهتكم وأوثانكم، حتى يغيثوكم فينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعـذاب؟ فإن المعبود يغيث من عبده وخدمه، وإنما يقال هذا لهم توبيخاً وتقريعاً

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٨٧).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٤/ ٨٥).

على ما كان منهم في الدنيا من الكفر بالله وطاعة الشيطان، فأجاب المساكين عند ذلك فقالوا: ﴿ضلّوا عنا﴾ يقول: عدلوا عنا، فأخذوا غير طريقنا وتركونا في هذا البلاء، بل ما ضلّوا عنا ولكنا لم نكن ندعوا من قبل في الدنيا شيئاً، أي: لم نكن نعبد شيئاً؛ يقول الله تعالى ذكره: ﴿كذلك يضلّ الله الكافرين﴾ يقول: كما أضلّ هؤلاء الذين ضلّ عنهم في جهنّم ما كانوا يعبدون في الدنيا، من دون الله من الآلهة والأوثان آلهتهم وأوثانهم، كذلك يضلّ الله أهل الكفر به عنه وعن رحمته وعبادته، فلا يرحمهم فينجّيهم من النار، ولا يغيثهم فيخفّف عنهم ما هم فيه من البلاء.

وعن مجاهد ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تمرحون﴾ قال: تبطرون وتأشرون ﴿ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبّرين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ

إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

قال البغوي[١]: ﴿فاصبر إن وعد الله﴾ بنصرك ﴿حقّ فإما نرينّك بعض الذي نعدهم﴾ من العذاب في حياتك ﴿أو نتوفّينّك﴾ قبل أن يحلّ بهم ﴿فإلينا يرجعون﴾ **قال ابن كثير**[٢]: أي، فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة. ثم قال تعالى: مسلّياً له ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ وهم أكثر ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله﴾، أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلاّ أن يأذن الله له في ذلك ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ وهو عذابه ﴿قضي بالحقّ﴾ فينجّي المؤمنين ويهلك الكافرين، ولهذا قال عز وجل: ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾.

وقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأيّ آيات الله تنكرون﴾ قال ابن كثير: ﴿ويريكم آياته﴾، أي: حججه وبراهينه في الآفاق، وفي أنفسكم ﴿فأيّ آيات الله تنكرون﴾؟، أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلاّ أن تعاندوا وتكابروا. وقال البغوي[٣]: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدّ قوة وآثاراً في الأرض﴾، يعني: مصانعهم وقصورهم ﴿فما أغنى عنهم﴾ لم ينفعهم ﴿ما كانوا يكسبون﴾. ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا﴾ رضوا بما عندهم من العلم. قال مجاهد: هو قولهم: نحن أعلم، لن نُبعث ولن نُعذَّب، سمّى ذلك علماً على ما يدّعونه ويزعمونه، وهو في الحقيقة جهل. ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٩٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٨٨).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٩٤).

﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾، يعني: تبرّأنا مما كنا نعدل بالله ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ عذابنا. ﴿سنّة الله التي قد خلت في عباده﴾ وتلك السنّة أنهم إذا عاينوا عذاب الله آمنوا ولا ينفعهم إيمانهم عند معاينة العذاب ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾ بذهاب نعيم الدارين. قال الزجاج: الكافر خاسر في كل وقت، ولكنهم تبيّن لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب.

• • •

الدرس السابع والأربعون بعد المائتين

﴿سورة فصلت﴾

مكية، وهي أربع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ

أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾.

قال ابن إسحاق في السيرة: حدّثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدثت أن عتبة بن ربيعة ــ وكان سيّداً ــ قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلّمه وأعرض عليه أموراً لعلّه أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلّمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها؟ قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع» قال: يا ابن أخي. إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع

على الرجل حتى يداوى منه ــ أو كما قال له ــ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد»؟ قال: نعم. قال: «فاستمع مني». قال: أفعل. قال: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم تنْزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾»، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبا الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بـي، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيـي فاصنعوا ما بدا لكم»[1].

وفي رواية البغوي من حديث جابر رضي الله عنه: «قال عتبة: ولكنّي أتيته وقصصت عليه القصّة فأجابني بشيء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكفّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب»[2].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٠٤ ــ ٢٠٣) مرسلاً عن محمد بن كعب القرضي.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٠٢ ــ ٢٠٣)، والبغوي في تفسيره (٤/ ٩٧ ــ ٩٨).

وقوله تعالى: ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصّلت آياته﴾ قال السدي: بُيّنت آياته. وعن مجاهد في قوله: ﴿قلوبنا في أكنّة﴾ قال: عليها أغطية كالجعبة للنبل: ﴿وفي آذاننا وقر﴾ قال السدي: صمم.

وعن قتادة قوله: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ قال: لا يقرّون بها، وكان يقال: إن الزكاة قنطرة الإسلام، فمن قطعها نجا ومن تخلّف عنها هلك، وقد كان أهل الردّة بعد نبيّ الله قالوا: أما الصلاة فنصلّي، وأما الزكاة فوالله لا نُغصب أموالنا. فقال أبو بكر: «والله لا أفرّق بين شيء جمع الله بينه، والله لو منعوني عقالاً مما فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه»[1]. وعن السدي: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾، أي: لا يدينون بالزكاة، وقال: لو زكّوا وهم مشركون لم ينفعهم. وعن ابن عباس: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ يقول: غير منقوص.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

قال ابن عباس: خلق الله الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام في يومين آخرين، فذلك قوله

(١) أخرجه ابن جرير (٢٤/٩٣)، وفيه انقطاع.

تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾[1]. وعن قتادة: ﴿سواء للسائلين﴾ قال: من سأل فهو كما قال الله.

وقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ قال البغوي[2]، أي: ائتيا ما آمركما، أي: افعلاه: ﴿قالتا أتينا طائعين﴾. وعن مجاهد في قوله: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ قال: ما أمر الله به وأراده. وعن السدي: ﴿وزيّنّا السماء الدنيا بمصابيح﴾ قال: ثم زيّن السماء. بالكواكب فجعلها زينة ﴿وحفظاً﴾ من الشياطين ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

قوله عز وجل: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ قال يقول: أنذرتكم وقيعة مثل وقيعة عاد وثمود، قال: عذاب مثل عذاب عاد وثمود: ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ قال ابن عباس: الرسل التي كانت قبل هود، والرسل الذين كانوا بعده، بعث الله قبله رسلاً، وبعث من بعده رسلاً.

---

(١) سورة النازعات: الآية ٣٠.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٩٧).

وعن مجاهد في قوله: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ قال: شديدة: ﴿في أيام نحسات﴾ مشائم. قال قتادة: ﴿في أيام نحسات﴾ والله كانت مشئومات على القوم: ﴿وأما ثمود فهديناهم﴾ بيّنّا لهم سبيل الخير والشر: ﴿فاستحبّوا العمى على الهدى﴾ قال ابن زيد: استحبّوا الضلالة على الهدى. وعن السدي: ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ قال: الهوان ﴿بما كانوا يكسبون، ونجّينا الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾.

• • •

الدرس الثامن والأربعون بعد المائتين

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ (٢٤) ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

عن قتادة ﴿فهم يوزعون﴾ قال: عليهم وزعة تردّ أولاهم على أخراهم. قال في جامع البيان ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ «ما» مزيدة لتأكيد ظرفيته للشهادة، أي: إنما تقع فيه البتّة ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾ من المعاصي. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «ألا تسألوني من أي شيء ضحكت»؟ قالوا: يا رسول الله من أي شيء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة! يقول: أي ربّ، أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: بلى. فيقول: فإني لا أقبل عليّ شاهداً إلاّ من نفسي. فيقول الله تبارك وتعالى: أليس كفى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردّد هذا الكلام مراراً قال: فيختم على فيه وتتكلّم أركانه بما كان يعمل فيقول: بُعداً لكنّ وسحقاً، عنكنّ كنت أجادل»[1] رواه مسلم وغيره. وعن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام، وإن أول ما

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢٩٦٩).

يتكلّم من الآدميّ فخذه وكفّه»[١]. رواه ابن جرير وغيره.

وعن السدي ﴿وما كنتم تستترون﴾، أي: تستخفون منها. وعن قتادة ﴿وما كنتم تستترون﴾ يقول: وما كنتم تظنّون ﴿أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم﴾ حتى بلغ ﴿كثيراً مما كنتم تعملون﴾، واللّهِ إنّ عليك يا ابن آدم لشهوداً غير متّهمة من بدنك، فراقبهم واتّق الله في سرّ أمرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسرّ عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظنّ فليفعل، ولا قوّة إلاّ بالله وعن عبد الله بن مسعود قال: إنّي لمستتر بأستار الكعبة، إذ دخل ثلاثة نفر: ثقفيّ وختناه قرشيّان، قليلٌ فقه قلوبهما، كثيرٌ شحوم بطونهما، فتحدّثوا بينهم بحديث فقال أحدهم: أترى الله يسمع ما قلنا؟ فقال الآخر: إنه يسمع إذا رَفَعْنا، ولا يسمع إذا خَفَضْنا. وقال الآخر: إذا كان يسمع منه شيئاً فهو يسمعه كلّه. قال: فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فنزلت هذه الآية ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾[٢] رواه ابن جرير وغيره.

وعن معمر قال: تلا الحسن ﴿وذلكم ظنّكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ فقال: إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن بالله الظنّ، فأحسن العمل. وأما الكافر والمنافق فأساء الظن، فأساءا العمل. وعن قتادة قال: الظنّ ظنّان: ظنّ مُنْجٍ، وظنّ مُرْدٍ قال ﴿الذين يظنّون أنهم ملاقوا ربهم﴾ قال ﴿إني ظننت أنّي ملاق حسابيه﴾ وهذا الظنّ المنجي ظنّاً يقيناً، وقال ﴿وذلكم ظنّكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾ هذا ظنّ مُرْدٍ، وقال الكافرون ﴿إن نظنّ إلاّ ظناً وما نحن بمستيقنين﴾؛ وذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول ــ ويروي ذلك عن ربه ــ :

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣ و ٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥١)، وابن جرير (٢٤/ ١٠٧)، وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨١٦ و ٤٨١٧ و ٧٥٢١)، ومسلم (ح/ ٢٧٧٥).

«عبدي غير ظنّه بي، وأنا معه إذا دعاني»[١]. وقوله تعالى: ﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ قال البغوي ﴿وإن يستعتبوا﴾ يسترضوا ويطلبوا العتبى ﴿فما هم من المعتبين﴾ المرضيّين، والمعتب: الذي قبل أعتابه وأجيب إلى ما سأل.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾.

عن مجاهد ﴿وقيّضنا لهم قرناء﴾ قال: شياطين ﴿فزيّنوا لهم ما بين أيديهم﴾ قال السدي: من أمر الدنيا ﴿وما خلفهم﴾ من أمر الآخرة ﴿وحقّ عليهم القول﴾ قال: العذاب ﴿في أمم قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ وعن ابن عباس قوله ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ قال: هذا قول المشركين قالوا: لا تتّبعوا هذا القرآن والهُوا عنه. وعن مجاهد ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ قال: المكاء والتصفير، وتخليط من القول على رسول الله ﷺ إذا قرأ، قريش تفعله.

﴿فلنذيقنّ الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينّهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ قال البغوي[٢]: وهو الشرك بالله. وعن عليّ رضي الله عنه في قوله: ﴿ربنا أرنا

(١) سبق تخريجه مرفوعاً بلفظ: «إذا ذكرني في نفسه...».

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٠١).

اللذين أضلّانا من الجنّ والإنس﴾ قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه ﴿نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ قال ابن عباس: ليكونا أشدّ عذاباً منّا.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قال: قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام»[1]. وقال عكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلاّ الله. وعن مجاهد ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قال: أسلموا ثم لم يشركوا به حتى لحقوا به. وعن الزهري قال: تلا عمر رضي الله عنه على المنبر ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ قال: استقاموا واللهِ بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. وقال قتادة: استقاموا على طاعة الله. وكان الحسن إذا تلاها قال: اللهم فأنت ربّنا فارزقنا الاستقامة. وعن مجاهد ﴿تتنزّل عليهم الملائكة﴾ عند الموت ﴿أن لا تخافوا ولا تحزنوا﴾ قال: ﴿لا تخافوا﴾ ما تَقْدُمُون عليه من أمر الآخرة ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما خلّفتم من دنياكم، فإنا نخلفكم في ذلك كلّه ﴿وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون﴾.

وعن السدي ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا﴾ نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا، ونحن أولياؤكم في الآخرة ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون﴾ قال ابن كثير[2]: أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم

(١) أخرجه الترمذي (ح/ ٣٢٥٠)، وقال: حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٢)، وابن جرير (٢٤/ ١١٤)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٩٩).

﴿نزلاً من غفور رحيم﴾، أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم ﴿رحيم﴾ بكم. وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا: يا رسول الله كلنا نكره الموت! قال: ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه، فليس شيء أحبّ إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحبّ الله لقاءه ــ قال ــ، وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشرّ فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه»[1]. رواه أحمد وغيره.

● ● ●

(١) أخرجه أحمد (٣/١٠٧)، وليس هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية أنس عند مسلم؛ بل هو من رواية عائشة رضي الله عنها (ح/ ٢٦٨٤ و ٢٦٨٥).

الدرس التاسع والأربعون بعد المائتين

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ

فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

عن معمر قال: تلا الحسن ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين﴾ قال: هذا حبيب الله، هذا وليّ الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحبّ الخلق إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته وقال: إنني من المسلمين، فهذا خليفة الله.

وقوله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيّئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم﴾ قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوّهم ﴿كأن وليّ حميم﴾. قال قتادة: كأنه وليّ قريب. وعن ابن عباس قوله: ﴿وما يلقّاها إلاّ الذين صبروا وما يلقّاها إلاّ ذو حظّ عظيم﴾ يقول: الذين أعدّ الله لهم الجنّة. قال قتادة: ذكر لنا أن أبا بكر رضي الله عنه شتمه رجل ونبيّ الله ﷺ شاهد، فعفا عنه ساعة، ثم إن أبا بكر جاش به الغضب فردّ عليه، فقام النبيّ ﷺ فاتّبعه أبو بكر فقال: يا رسول الله شتمني الرجل فعفوتُ وصفحتُ وأنت قاعد، فلما أخذت أنتصر قمتَ يا نبيّ الله؟ فقال نبيّ الله ﷺ: «إنه كان يردّ عنك ملك من الملائكة، فلما قرّبت تنتصر ذهب الملك وجاء الشيطان،

فوالله ما كنت لأجالس الشيطان يا أبا بكر»[١]. وقال ابن زيد: ﴿وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ﴾ قال: هذا الغضب. وقال السدي: وسوسة وحديث النفس ﴿فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قال ابن كثير[٢]: لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلويّ والسفليّ، نبّه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهنّ إن كنتم إياه تعبدون﴾، أي: ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فإن استكبروا﴾، أي: عن إفراد العبادة له وأبوا إلاّ أن يشركوا معه غيره ﴿فالذين عند ربك﴾، يعني: الملائكة ﴿يسبّحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾.

وعن قتادة قوله: ﴿ومن آياته إنك ترى الأرض خاشعة﴾، أي: غبراء متهشّمة ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت﴾ يعرف الغيث في صحتها وربوها. وقال مجاهد ﴿اهتزّت﴾ بالنبات ﴿وربت﴾ يقول: انتفخت. ﴿إن الذي أحياها لمحيي الموتى﴾ قال السدي: كما يحيي الأرض بالمطر كذلك يحيي الموتى بالماء يوم القيامة بين النفختين ﴿إنه على كل شيء قدير﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ١٢٠) عن قتادة مرسلاً، وروي مسنداً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٠٢).

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

قال ابن يزيد في قوله: ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾ قال: هؤلاء أهل الشرك، وقال: الإلحاد الكفر والشرك. وقال ابن عباس: هو أن يوضع الكلام على غير موضعه. ﴿أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾. قال ابن كثير[1]: أي أيستوي هذا وهذا؟ ﴿لا يستويان﴾؛ ثم قال عز وجل للكفرة: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾. عن قتادة قوله: ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ كفروا بالقرآن ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾، يقول: أعزّه الله لأنه كلامه، وحفظه من الباطل، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾، الباطل: إبليس، لا يستطيع أن ينقص منه حقاً ولا يزيد فيه باطلاً. وقال ابن كثير: أي ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزّل من ربّ العالمين، ولهذا قال: ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾. وعن قتادة ﴿ما يقال لك إلاّ ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ يعزّي نبيّه ﷺ كما تسمعون، يقول: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحر أو مجنون﴾ ﴿إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾.

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٠٢).

وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصّلت آياته أأعجمي وعربي﴾ قال: الرسول عربيّ واللسان أعجميّ. وقال السدي يقول: بيّنت آياته ﴿أأعجميّ وعربيّ﴾ نحن قوم عرب ما لنا وللعجمة؟ ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ قال: القرآن ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ قال: صمم ﴿وهو عليهم عمى﴾. قال: عميت قلوبهم عنده ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾. قال مجاهد: بعيد من قلوبهم.

قال البغوي[١]: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾ فمصدّق ومكذّب، كما اختلف قومك في كتابك ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ في تأخير العذاب عن المكذّبين بالقرآن ﴿لقضي بينهم﴾ لفزع من عذابهم وعجّل إهلاكهم ﴿وإنهم لفي شكّ منه مريب﴾. **وقوله تعالى**: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾. قال ابن كثير[٢]: أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿ومن أساء فعليها﴾، أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وما ربك بظلّام للعبيد﴾.

قوله عز وجل: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٠٤).

(٢) المصدر السابق (٤/١٠٣).

ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

قال البغوي[1]: يقول: يردّ إليه علم الساعة كما يردّ إليه علم الثمار والنتاج.

وقوله تعالى: ﴿ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذنّاك﴾. قال ابن عباس: يقول أعلمناك. وقال السدي: قالوا: أطعناك ﴿ما منا من شهيد﴾ على أن لك شريكاً ﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنّوا ما لهم من محيص﴾ استيقنوا أنه ليس لهم ملجأ.

قوله عز وجل: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٠٤).

ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿لا يسأم الإنسان﴾ قال: لا يملّ ﴿من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط﴾ قال السدي: قانط من الخير ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضرّاء مسته ليقولنّ هذا لي﴾ قال مجاهد: أي بعملي، وأنا محقوق بهذا ﴿وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربّـي إن لي عنده للحسنى﴾ قال السدي يقول: غِنَىً ﴿فلننبّئنّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنّهم من عذاب غليظ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآى بجانبه﴾ قال السدي: يقول ﴿أعرض﴾ صدّ بوجهه ﴿ونآى بجانبه﴾ يقول: تباعد ﴿وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض﴾.

يقول ابن كثير[1]: **وقوله تعالى**: ﴿قل أرأيتم إن كان﴾، أي: هذا القرآن ﴿من عند الله ثم كفرتم به من أضلّ ممن هو في شقاق بعيد﴾ خلاف للحق، بعيد عنه.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق﴾ قال قتادة: يعني وقائع الله في الأمم ﴿وفي أنفسهم﴾ يوم بدر ﴿حتى يتبيّن لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ قال مقاتل: أولم يكف بربك شاهداً أن القرآن من الله؟ ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ في شكّ من البعث ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ فلا يخفى عليه خافية ولا يعجزه شيء سبحانه وتعالى.

انتهى الجزء الثالث بحمد الله،
ويليه الجزء الرابع

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٠٤).

فهرس الموضوعات
الجزء الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة

● ● ●